



كتاب خِطِّ الشَّيْخِ

الجزء الثالث

مجموع

تأليف

محمد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

مكتبة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع في مطبعة الترقى بدمشق عام ١٣٤٣ هـ و ١٩٢٥ م

العهد العثماني

« من سنة ١٢٠٠ الى ١٢٤٧ »

—:ooo:—

الجند أداة الظلم والتدمير } كان الشام في هذا الزمن مهد القلاقل والثورات ، يقع
السكنة من فقراء المسلمين . واكثر الفوضى ناشئة من الجند الجاهل الذي تهادى في
اللاؤم والدناءة الى درجة الوحوش الضارية . ويقسم هذا الجند الى ثلاثة اقسام
الانكشارية والقبوقولي وهما القسمان القويان والقسم الثالث حرس الولاية الخاص
وهو يتألف من المغاربة والتكرانة والترك والارناؤد والدالاتية وغيرهم ، والعداوات
متأصلة بين هذه الاقسام الثلاثة . ولطالما قامت بسبب ذلك فتن بينهم أهرقت فيها
الدماء ووقعت ويلاتها على الشعب ، فتُهب أهواله وتخلق حوانيته وتنفذ الاعمال ،
ولا سيما في الحواضر مثل دمشق وحلب . ولا تنفض هذه المشاكل الا بتدخل الولاية
أو أحد الاعيان ، ويتكرر ذلك ابدآ لان العلة الاولى فيها لم تستأصل فلا يعاقب
المجرمون ولا يحمل الاوباش على حرمة الشريعة . ولذلك كانت شوارع المدن
وأحيائها كثيرذا الابواب والارتجة ونقفل ايام الثورات ، وساعة المخاصمات والمشاغبات .
واكثر رجال الجندية نفوذاً الانكشارية لكثرتهم وشدتهم وصدافتهم للوالي .
وكان زعماء الجند يلقبون بالانغاوات . ويرسمون على أيديهم الوشم شعار الفرقة التي
ينتمون اليها ، وترسم على أبواب المقاهي اسم الفريق الذي يخلف اليها وليس لهم نظام
خاص . والمحلات تخضع للاغا المقيم فيها وهو يخضع لرعي الفرقة . ولم تكن نكفهم

إدرااراتهم التي يتناولونها من مال الخزينة لكثرة أتباعهم ، فيضطرون للعمل يذهبون اليه وهم مسلحون ليسهل عليهم الانضمام الى فرقهم متى دعت الحاجة ، ولا شأن للغاملين واهل الفسق الا الاجتماع في المقاهي والحانات ، وإطالة أيدي الأذى على الناس يصادرون أموالهم ويفترسون نساءهم وصبيانهم ، وكثيراً ما يقتلون أحد أبناء السبيل لغير سبب كأن يجربوا بنادقهم او سيوفهم في اول من تقع أعينهم عليه .

فتمادى الرعاع في قحتهم وفجورهم الى الغاية ، لضعف الحكم وقصورهم عن ردع القوي عن الضعيف ، فنشأت فئة من الناس مسلمين ومسيحيين ، اتكلوا في حفظ أنفسهم وأهلهم على انفسهم وشدة بأسهم في الدفاع . وكان القوم يحترمون هؤلاء الأشرار ويخافونهم ، وكان منهم من عرف بالشهامة والشم بما يغبطون عليه ويخنف ويلاش الشرور اللاحقة بالرعايا من اعتداء الجند أحياناً . وبلغ التعصب الديني أقصى شدته في هذا العصر حتى تجاوز القوم فيه حد الافراط ، فيحسب المرء كل من لم يتدين بدينه ممن يجوز له قتله او الاعتداء عليه ، وابتزاز ماله وانتهاك عرضه ، وانتشر هذا الروح حتى عم السواد الاعظم من الناس . قال مشاقة بعد ايراد ما لخصناه : وكان فريق من العلماء وأهل التقوى يرون معاملة الذمي بالحسنى تبعاً لقواعد الدين الشريفة ولكنهم لم يتوفقوا لردع الرعاع في زمن عمت فيه الفوضى وساد الجهل والهمجية على القوم .

من أجل هذا ساغ لنا ان نستنتج ان البلاد على اختلاف في الدرجات كان أهلها وحكومتها بين ظالم ومظلوم ، يشتد الوالي في إعنات الرعية لسلب أموالهم ويرسل الى العاصمة بالمقرر عليه ، وكثيراً ما يشاكسونه فلا يدفعون المفروض عليهم ، او ينقضون عليه بايعاز بعض أهل النفوذ وقد يكون الحق معه ، والرعايا عرضة لاعتداء الجند وأغواتهم والاعيان وأتباعهم ، تساوى في الظلم المدني والقروي ، وربما كان المدني أكثر تعرضاً للمهالك لقربه من هذه العوائل التي أخذت على نفسها التخريب وتمثيله في مسارح الجهل على ضروره وأشكله . ظلمات بعضها فوق بعض ، وسلاسل مفرغة من المصائب لا يدري أين طرفانها . وليت شعري ما يرجي من عناية دولة بامتها وهي تعطي الوزير ثلاثة أطواخ والأطواخ أذنان خيل فالذنب

يعلق من أسفله في رأس عصا وطولها نحو ثلاثة أذرع وشعره مسدول عليها ، فاذا سافر الوزير يرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم الى محل نزوله فيستعدون لاستقباله بتهيئة ما يلزمه من المأكل والعلف للدواب وهذا بلا ثمن . واما الطوخان الباقيان فيحملان أمام الوزير في السفر . ومعنى الاطواخ ان الدولة تحكم البلاد باذئاب خيلها — قاله مشافة ونحن نقول ان الدولة التي تبلغ من غرورها هذا المبلغ لا تنجح في الحكم ويمكن ان يقال للرعية ما قاله علي بن ابي طالب : « والله ان امراً يمكن عدوه من نفسه ، يعرق لحمه ، ويهشم عظمه ، ويفري جلده ، لعظيم عجزه ، ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره » .

وقال جودت في حوادث سنة الف ومائتين : ان وظيفة جابي المال في حلب كانت منذ اربعين سنة مطمح انظار الموظفين في الدولة لانها تأتيتهم بثروات اذا جاؤا بها الى الاستانة ينالون بواسطتها رتبة الوزارة ورتبة ميرميران ومن كان منه ذلك احمد باشا فانه أخذ العلم والطوخ واشتهر شهرة عظيمة ، وما برحت هذه الوظيفة تباع وتشترى بالمزاد ، وكثيراً ما كانت الدولة ترسل بمنتشين يشاركون المرتكبين من هؤلاء الجباة ، وكثيرون ممن يتولون هذه الوظائف يرحلون بالاموال ينفقونها في شهواتهم حتى يهلكوا فقراً وقهراً ، ولذلك كانت اموال الدولة تبدد ويسرف فيها .

حوادث الجزار وقتن } بدأ القرن وأهم ورير مسموع الكلمة في الاستانة
الانكشارية وغيرها } قوي الشكينة في ظلم الرعايا بالشام ، احمد باشا
الجزار ، تولى دمشق بعد ولاية عكا ، وذهب أميراً مع الحج فرفعت الشكاوى عليه
من اهل دمشق الى دار الملك فعزل وذهب الى الاستانة فعينه الدولة وزيراً على
صيدا ، وأقام في عكا وحصنها وضبط املاك بيت شهاب في بيروت ورفع ايديهم
عن حكمها ، وأنشأ للثغر ارتجة وسوراً فسُـر المسلمون بذلك ، ونُـصب على دمشق ابراهيم
دالاتي باشا الكردي سنة احدى ومائتين والف وكانت جسوراً مهيباً فحدث بينه
وبين الاهالي اختلاف وتعصبوا عليه وحدثت نمة فأغلق احمد اغا الزعفرنجي شيخ
الانكشارية القلعة وقتل من عسكر الوالي ثلاثمائة رجل وأراد ان يضرب الوزير ،

فخرج هذا الى حمص وحماة وجمع عسكرياً كثيراً ، وأوعزت الدولة الى الجزار والى الامير يوسف الشهابي ان يعاوناه بعسكرهما ففعلا ، وعاد الوالي الى دمشق فارتاع اهلها وأرسلوا النساء الى الجامع الأموي فكله أعيان المدينة فاشتراط عليهم انه يلتزم الرحمة اذا خرج الزعفرنجي من القلعة وتسلمها رجاله ، ودخل البلد وقتل بعض الاردباء قيل انهم مئة وخمسون رجلاً من جماعة القلعة ، وكان جاء الوالي في عسكره الى باب الله واجتمع العسكران ووقع قتال فهلك فيه من الفريقين خلق كثير . وملك الوالي الميقات ، واستمر ذلك مدة والعسكر محيطة بالقلعة حتى سلمت . وأقام هذا الوالي اربع سنين في دمشق ، وذهب امير القلعة الى امير عرب الموالي فاراً من والي دمشق ، فأوعز هذا الى متسلم حماة ان يقنص من عربيه لفسادهم في تلك الارحاء ، فساق عليهم من حلب وحماة جيشاً قتل منهم نحو الف انسان وانهمز الباقون . وكان عرب الموالي ثاروا هذه السنة في ضواحي حمص وحماة فنهبوا القرى وفتكوا باغوات الدنادشة حكام المدينين منهم وقتلوا كلاً من شيخ بلاد الكابيين وشيخ بلاد النصيرية وعاثوا في تلك الجهات وفتكوا باعيانها .

وفي سنة ١٢٠١ دخل عثمان باشا الى انطاكية ونزل عسكره على الحریم وفعل فيها أفعالاً قبيحة واتى ادلب وصادرها وخرب جميع القرى التي مرَّ عليها وما حول ذلك وخرب الراموسة واشتبك القتال بينه وبين اهل الشيخ سعيد عدة ايام فقتل من عسكره بالطاعون والسلاح عدد كبير ونهب قرى كثيرة في تلك الارحاء ، هذا والطاعون في حلب وارجائها يفتك فتكاً ذريعاً .

وخربت القرى وهلك البقراء في فتنه الامير جهجاه الحرفوش (١٢٠٢) وكان قوي على ابراهيم باشا والي دمشق ، وسرت شرارة فتنه الزعفرنجي الى جميع اهل دمشق حتى طلب الوالي عسكراً من جبلي نابلس والشوف ودقت طبول الوالي (١٢٠٣) من ديمة في غوطة دمشق وفرق العساكر ثلاث فرق فدخل عمر اغا من الزفتية ، وابنه على صف الجوز ، والوزير على السلطاني ، وأحرقوا القبيبات وحارة التبركان ، وجرت الدماء من الصباح الى العصر حتى أطاع اهل دمشق السلطان

عبد الحميد الاول وخرب الوالي القلعة وأهلك متوليها بمدافعه ثمزمة قليلة من عسكر
الوزير وبقيت الحرب بين الفريقين ستة ايام بلياليها .
وفي ايام ابراهيم باشا الكردي (١٢٠٣) انتشبت الحرب في وادي أبي عباد فوق
كامد اللوز في البقاع بين عسكر الجزار وعسكر الشهابيين أمراء لبنان ووادي التيم
انكسر فيها عسكر الجزار كسرة عظيمة . ووقع بين عسكر الجزار والهواره والدروز
في جب جينين قتال انكسر فيه عسكر الامير وقتل منه مقتلة عظيمة ، ثم جمع الامير
يوسف عسكر لبنان وأرسلهم مع سليمان باشا والهواره الى عين دارة فالتقوا بعسكر
الجزار في قب الياس فانكسر ايضاً عسكر الامير يوسف وحدثت عدة وقائع بين
عسكر الامير في جزين وعسكر الجزار في جباع كسر فيها عسكر الامير يوسف .
وكان عسكر الزعفرنجي يعيث خلال ذلك في مرج الغوطة غوطة دمشق ، فيهلك
الفلاحين ولا إهلاك الاوبئة ويرعى رجاله الزروع ولا اكل الجراد .

* * *

عهد سليم الثالث } هلك السلطان عبد الحميد الاول سنة ١٢٠٣ وخلفه
وقتن وكوائن } السلطان سليم الثالث وكانت أيامه كلها غوائل وفتنًا :
استقلت فيها القريم وأصبحت روسيا بما أخذته من بلاد الدولة على البحر الاسود دولة
بحرية مهمة ، وقبل بمعاهدة كوجك قينارجة (١١٨٨) مع روسيا وبها انحط مقام
الدولة ، وحارب روسيا مرتين . وقال مترجموه من الترك انه كان عادلاً حليماً
تجبه رعيته . وقد ذكر بعض مؤرخي العراق ان الايرانيين استولوا على البصرة
وبقيت في أيديهم خمس سنين ولم يبلغه ذلك وموته وزراؤه عليه . فما أحرام ان
يموهوا في حالة بلاد كالشام لم تخرج عن حكمه الذي دام ست عشرة سنة . ويقول
معاصروه من المؤرخين ان السلطان عبد الحميد الاول كان أخرق للغاية وانه كان
جاهلاً ولبس فيه من جودة الرأي والحزم والمضاء شيء ، ولم يستطع ان يستفيد
من الثورة السياسية والدينية التي نشبت في القافقاس ، ولم يحسن الانتفاع من أسباب
النجاح التي كانت متوقعة من بحريته وجيشه .

وفي سنة ١٢٠٤ وقعت فتنة بين الامير قاسم الحرفوش وابن عمه الامير جهجاه

في سهل أبلح بالبقاع ، فدحر الأمير قاسم عسكر الأمير بشير الشهابي الكبير فشق عليه فأرسل نجدة أخرى للأمير قاسم ، فلما علم ذلك الأمير جهجاه هرب سكاك بعلبك وأتلف ما فيها ولم ينالوا من جهجاه ، ثم استُصرخ الجزار فأمر بان يمد بجيش فأرسل معه عسكر المغاربة والدولة ومشايخ الدروز فانتشبت الحرب بينهم وبين جهجاه فاندحروا وقلق الناس ، ورحل كثير من السكان من تلك الارحاء ، ثم تغلب الأمير جهجاه على الأمير قاسم . وفي السنة التالية وقعت وقعة بين جهجاه وحاكم بعلبك الحاج اسماعيل فانهزم هذا وقتل من رجاله نحو مائتي رجل ولم يقتل من رجال جهجاه احد . وفي سنة ١٢٠٥ أحرقت عساكر الدولة وقيل عسكر الأمير بشير حاصبها واكثر القرى التي حولها .

مظالم الجزار واختلال
الادارة } تولي احمد باشا الجزار دمشق للمرة الثانية سنة ١٢٠٥
وظل مقبلاً في عكا وارسل متسلمين منهم ارفه اميني
وكان كما قال مشافة ظالماً قاسياً يشبه استاذة في انشاء المظالم والحوادث الصعبة على المسلمين والنصارى واليهود . وكان الجزار مغتاضاً من اهل دمشق لعرضهم على الدولة مساوئهم مما ادى الى تخيته عن عمله سنة احدى ، فاراد الانتقام من الساعين به هذه المرة . وبالحقيقة ان مدة حكم الجزار في دمشق وهي خمس سنين لم يرتح فيها الناس شهراً واحداً من طلب الاموال ظالماً وطرح المعاملة المتصل التي حدثت بها خسائر عظيمة وطرح بضائع متنوعة ، ينهبها من جبات ويطرحها باسعار زائدة على اخرى ، وليس في البلاد صغير ولا كبير الا ويناله الظلم والقهر ، ونزع كثير من السكان وتركوا اوطانهم وعيالمهم . سلسلة من المظالم لاحد لها . وكان كل سنة يقتل في قلعة دمشق بدون تحقيق اناساً وقد قتل في احدى السنين مئة وستين رجلاً خنقاً وذلك في ثاني سنة من ولايته . وفي السنة الثالثة قتل نحو ستين وكان كلما جاء دمشق مرة في السنة وهو ذاهب ليحج بالناس او آيب منه بعمل هذه الاعمال للارهاب ولم يقف امر المظالم عند حد اوامر الجزار المجنونة ، بل كانت الفتن في جهات أخرى من الشام على عادتها في القرون الماضية ، من ذلك انه جرت سنة ١٢٠٦ عدة وقائع بين

الجبيل وعسكر الدولة الذين كانوا مع الامير بشير كانت الحرب فيها سجالاً ، واحرقت عسكر الدولة غزيفة وسببت نساء كثيرة واولاداً . واشتد الخصام بين الاميرين بشير قاسم وحيدر ملحم الشهابيين على الإمارة في لبنان ، وكان الامير بشير تعهد للجزر بخمسة آلاف كيس على مثل ما تعهد به الامير يوسف ، فاخذ يصادر كل من مالا الامير يوسف ، ومال الناس الى الامير حيدر للتخلص من الضرائب التي سامهم الامير بشير دفعها ، وسادت الفتن في اللبنانيين الغربي والشرقي ، وهاجم والي دمشق بعلبك للانتقام من الامير جهجاه لانه لم يخلد الى السكنية ، وقتل عشرات من الناس في بعلبك وسغبين وقتل من العسكر اكثر من ذلك .

واختل الامن سنة ١٢٠٦ في جهات عينتاب للفتن القائمة بين الانكشارية والحكومة والاهالي وأصيب الانكشارية بنهب اموالهم وخراب بيوتهم وهجمت اهالي حلب على بطل آغا نوري ومحمد آغا وعلى عسكره وحصل بينهما مناوشة ادت الى انهزامه خارج حلب ، وتوجه الى عينتاب وحاصرها خمسة اشهر الى ان قتل وحمل رأسه ورأس اربعة وعشرين من العصاة الى الاستانة . قال جودت : وكان هؤلاء الخونة ينقربون الى زجال الاستانة بالامور الدينية فينصبونهم حكاماً في بعض المقاطعات فيفسدون في الارض ويتسلطون على عباد الله حتى ترفع الرعية علم العصيان وتقاوم الحكومة ولا تبعة في ذلك الا على رجال الدولة .

وفي سنة ١٢٠٦ (١٧٩١) اخرج الجزار الفرنج من بيروت وبني السور بحجارة ابنية الشهابية التي دكها ودك كنائسهم وجعلها اصطبلات . وفي هذه السنة قتل رجل من اهل بيروت خارج البلد فاغلاقوا الابواب وقبضوا على كل من وجدوه من اهل الجبل وكانوا نحو ستين رجلاً فقتلهم جميعاً . وحدثني الثقة من اهل بيروت عن ابيه عن جده ان حكام بيروت المسيحيين اشتدت مظالمهم وعقوهم على المسلمين فكان الامير يمر في شهر رمضان في المدينة يحملون امامه الغليون للتدخين فينتصب المسلمون على الاقدام يحيونه فلا يتنازل ان يجيبهم بل يقول الخادم من ورائه : سلام الامير . فضاقت الحال بالمسلمين فشكوا امرهم الى قائد الاسطول العثماني وكان يأتي كل سنة ليحمل الاموال المقررة على البلاد فقال لهم : الخطب سهل وهو ان تغلقوا ابواب

المدينة متى رأيتونا اقلعنا بسفنتنا وتذبحوا النصارى وبذلك ترتاحون منهم ففعل غوغاء المسلمين وقتل بهذا التدبير الجائر كثير من الابرياء ، وبذلك تبين ان الدولة لم تكن تهتم الا لجبايتها فاذا استوفتها فسواء لديها ثقاتل رعاياها ام تصالحوا ، والغالب انها تحبهم ان يكونوا على خصام ابدآ حتى يخلوها الجو وقاعدة « فرق تسد » من اهم قواعدها . وفي سنة ١٢٠٧ وهب الشهابيون الهرمل للامير جهجاه الحرفوش فلم يذعن له سكانها فخار بهم وقتل منهم نحو اربعين رجلاً واحرق البلدة وفي سنة ١٢٠٨ قامت الفتن بين الاشراف والانكشارية في حلب دامت عشرين يوماً قتل فيها بعض اهل اليسار والشرف ثم انكسر الاشراف وحصرهم الانكشارية في جامع الاطروش وجرى من القبايح الوان واشكال .

وفي سنة ١٢٠٩ صدر امر الجزار بمصادرة بعض صيارف دمشق من الاسرائيليين فلقوا عنقاً وقتل بعضهم وادخل الرعب على ابناء نجلتهم في حبيهم الخاص بهم ، ونال مثل ذلك بعض اغنياء الاهالي على اختلاف مذاهبهم ، وبدأ القتل والصلب وقطع المناخير وحبس خلق كثير وجرم الابرياء وهرب الناس هائمين ، وفي هذه السنة غزا عسكر دمشق بعلبك فهرب الامير جهجاه الى رأس بعلبك فاحرق بعض بيوتها وكان رجال الدولة يحاذرون من شيء يقع على الشام بعد ان اعتصم الظاهر عمر بروسيا فقد ذكر (شافي زاده) ان والي صيدا عبدالله باشا كتب الى الدولة بان كنيسة عكا والبصرة وقلعة حيفا كلها مستحكمة البناء لا تخلو من محذور فاستفتى السلطان فافتي بان تهدم الكنيسة القديمة والجديدة معاً لثبوت مضرتها ونفذ الحكم وكثيراً ما كان الولاة في العهد العثماني يوجسون خيفة من الديارات والبيع اذا كانت مستحكمة البناء فقد اخرج السلطان سليمان النصارى من ديرهم في سفح جبل بالقرب من قرية البعنة في صفد وكان قديماً يعرف بدير الخضر وامر احمد بن اسد البقاعي من الصوفية بالاقامة فيه مع اولاده .

وفي سنة ١٢١٠ تولى دمشق عبد الله باشا العظم والبلاد في حاله مزعجة وقد دام في ولايته هذه ثلاث سنين وبقي الجزار في عكا وفي هذه السنة وقع القتال بين عسكراولاد الامير يوسف في جبيل وبين الدين كانوا في قلعتها من عسكر الامير بشير

وكسروهم وفي سنة ١٢١١ أرسل عبدالله باشا العظم عسكرياً الى البقاع فارسل الامير بشير والجزار والي عكا عسكرياً فالتقاهم الجزار واهل البلاد ، وقع القتال في مندره من قرى البقاع ، فانكسر عسكر دمشق كسرة عظيمة وقتل منه جماعة . ولم يزل عسكر لبنان والهواره مجدياً في آثارهم ان وادي الجدل وغنموا خيلهم وسلاحهم وذهب بعض اللبنانيين واحرقوا البترونة قرب الزبداني . وفي سنة ١٢١٢ توجه والي دمشق الى التفتيش كالعادة فلقى الطريق ممسوكاً منافذها من عسكر الجزار فساءت حال رجاله ثم توجه الى جينين فطمعت البلاد فيه ولم تعطه مال الدورة ، فالحق به الجزار جنده قاصداً قهره وعسكره . فركب وركب العسكر وتوجه نحو عسكر الجزار فدارت بين الفريقين حرب انتصر فيها والي دمشق على الجزار ، وقتل الاول من عسكر الثاني خلقاً كثيراً ، ورجع لم يعترضه أحد وقد جمع الاموال الاميرية برمتها . وفيها قامت الانكشارية على اعيان حلب وقتلوا كثيراً منهم حتى كانوا يقتلون السيد وهو يصلي في المحراب ، فعرض الحال على الدولة فجاء شريف باشا والياً على حلب فمنعته الانكشارية من دخولها ، فتعهد بان يكون مسعفاً لهم فدخل واثنه الاشراف فقوي بأسهم على الانكشارية وبعد ذلك ارسل الى الانكشارية سرّاً ان يثوروا بالسادات فكبسوهم ليلاً وقتلوا منهم مائتين وخمسين نفساً واخذ منهم شريف باشا خمسمائة الف قرش وقدمها للدولة ، وقويت شوكة الانكشارية في حلب .

وفي سنة ١٢١٣ ضرب الجند الدالائيه جميع قرى دمشق واكلوا مغانها وحرقوا دوابها وصار منهم قتل وسلب --- قاله ابن آقبيق : وقال ايضاً في حوادث هذه السنة : انه كثرت الفتن والنحل الحكم حتى بقي اطلاق البارود من القلعة سبعة ايام . وانتشرت الفوضى في الاحياء والبلاد لاحكم فيها لحاكم ولا متسلم وافندية البلد (دمشق) مسجونون عند الباشا في الخيم وبقي ذلك حتى رحل الباشا ، وبقي عسكره في البلاد يومين وليلتين ، نهبوا في خلالها ما في القرى من مأكول ومنظور وعزم غالب اهلها على الرحيل لا اوقع فيهم الجند من الضرر .

محاولة نابوليون فتح الشام } بينما كانت الفتن الاهلية بين العمال على المال والبلاد
واستبلاؤه على غزاة وبافا } قد ضعفت فيها كل قوة ، والدولة كلما رأت عاملاً
قوياً تكتفي بان تضع في جواره عاملاً آخر تملي له من قوتها حتى يظل في خصام
وحرب مع جاره ، والضعف في الادارة ظاهر كل الظهور ، والناس من الجزار في
قسم عظيم من بلاد الشام في امر مريج ، والبلاد مفتحة الابواب خالية من اسباب
الدفاع الا ما كان من اسوار امهات مدنها اتى القائد نابوليون بونايرت الفرنسي مصر
(١٢١٣) وفتحها » ولما شعر باجتماع الجيوش لمحاربتة وانه ان لم يفاجئ الدولة العلية في بلاد
الشام قبل ان تتم استعداداتها الحربية تكون عواقب الامور وخيمة عليه وان من يحتمل
مصر لا يكون آمناً عليها الا اذا احتل القطر السوري فلهذه الدواعي عزم بونايرت
على فتح بلاد الشام وقام من مصر ومعه ثلاثة عشر الف مقاتل قاصداً الشام من
طريق العريش .

ولما بلغ احمد باشا الجزار قدوم الجيش الفرنسي من مصر الى عكا وتلك الديار
أسرع - على رواية نقولا الترك - بتدبير ما يحتاج اليه في الحصار ، وارسل الى يافا
العسكر وحصنها بالمدافع والقناير ، وامتد الى مدينة غزاة بعساكره وعشائره ووصلت
جيوشه الى قلعة العريش وأقاموا فيها ونهبت الغز للجهاد . وفي شهر شعبان سنة ١٢١٣
خرجت العساكر الفرنسية الى مدينة بلبس والصاحية وكتب الى الجنرال كاپر
ان يتوجه من دمياط في البر على طريق قطية ويكون قائد العساكر الفرنسية .
ثم ان أمير الجيوش بونايرت بعدما سير العساكر أحضر علماء الدين وغيرهم وقال
لهم : ان الغز الممالك الهاربة مني قد التجؤا الى احمد باشا الجزار فجمع لهم العساكر
وحضر الى العريش وعزموا على الحضور الى الديار المصرية لاجل خراب البلاد ،
فلذلك أخذني الغيرة وعزمت ان أسير اليهم بالعساكر وأخرجهم من قلعة العريش ،
ثم جاء الفرنسيين الى هذه القلعة وكان فيها الف وخمسمائة مقاتل فحاصرها ثمانية ايام ،
ولما فرغت مؤونتهم وبارودهم أرسلوا يطالبون الامان ، وان يخرجوا من القلعة بغير
سلاح وبعد ذلك حضر قاسم بك المسكوبي في عسكر ومهمات فبلغ أمير الجيوش
وصوله وربطوا عليه الطريق وكبسوه ليلاً وذبحوا عساكره ولم يسلم منهم الا القليل .

وعندئذ امر الجنرال دو كوا قائد مصر ووكيل بونابرت التجار ان تسير بالقوافل الى الشام لينتفع بالملكاسب اصحاب التجارة وينتفع سكان الشام ببضائع مصر سب العادة السابقة . وسار امير الجيوش بالعساكر من قلعة العريش الى خان يونس واستخلص غزوة من الغز عساكر الجزائر فوجد في غزوة حواصل ذخيرة من بقسماط وشعير واربعائة قنطار بارود واثني عشر مدفعا وحاصلا كبيرا من الخيام وكللا وقناير فحاز الجميع . ولما بلغ يافا بنى المناريس امامها وأرسل يطلب الى حاميتها التسليم وكانت نحو ثمانية آلاف فأبقت وقتلت الرسول فأدار عليها المدافع وقوي الصدام فقتل من العسكر ما ينيف على خمسة آلاف ومن أهالي البلد القان وهجم الفرنسيون على المراكب التي في الميناء وأخذوا منها بضاعة ثمينة . ومن الغد أطلق امير الجيوش الأسارى وأطلق سبيل الشاميين والمصريين وأمر بقتل الهوارة والارناؤد جميعا لان بعضهم كان في قلعة العريش وحين أطلقهم امرهم ان يذهبوا الى بلادهم فأتوا يافا وحاصروا بها فقتلهم جميعا الا بعض انفار من الاغاوات الكبار استبقاهم . ووجد الفرنسيين في قلعة يافا ثمانين مدفعا وغنموا غنائم كثيرة من المراكب وغيرها .

وقائع نابوليون على عكا } ثم ان امير الجيوش سار بالعسكر قاصدا مدينة
وفي مرج ابن عامر } عكا على طريق الجبال ولما وصلوا الى ارض
قانون كانت عساكر الجزائر والنابلسيون كافة في الوادي الذي هناك ، وحينما بلغهم
قدوم الفرنسيين أخرجوا منهم من في الوادي خمسمائة مقاتل وبدروا يرمحون تجاه
العسكر وكان قصدهم ان يجروهم الى ذلك الوادي ، فلما علم امير الجيوش مقصدهم
قسم عساكره اثلاثا ونشبت الحرب فقتل من عسكر المسلمين وولى الباقيون منهزمين ،
ومن الغد سار عسكر الفرنسيين الى وادي الملك وكان بلغ الجزائر قرب الفرنسيين
الى تلك الديار فأرسل الى حيفا فأحضر الذخائر الحربية والعسكر ، وعندما وصل
الفرنسيين أمام مدينة حيفا خرج أهالي البلد لمقابلتهم وسلموا أمير الجيوش مفاتيح البلد
والقلعة ، ودخل الفرنسيين الى حيفا فوجدوا بها قاربا صغيرا فيه جماعة من مراكب
الانكليز فأخذوهم اسرى وبعد ذلك أنقل امير الجيوش بالعساكر الى تجاه مدينة

عكا ونصبوا المضارب والخيام في محل يقال له ابو عتبة ، وبنوا المتاريس الحصينة ووضعوا فوقها المدافع وسار الجنرال كلير والجنرال منوالى الناصرة ونصب حاكم فرنسي على شفا عمرو وبعد إتمام المتاريس ابتدأت الحرب على عكا خامس يوم من شوال سنة ١٢١٣ ودامت اربعاً وعشرين ساعة والجيش الفرنسي يضرب المدافع والقناير والمراكب العثمانية والانكليزية تطلق المدافع من البحر حتى خيل للناظرين والسامعين ان مدينة عكا لم يبق فيها حجر على حجر ، وهم الجزار ان يخرج فطمئنه الانكليز وقالوا له : اننا اسرنا في عرض البحر ثلاثة مراكب مشحونة ذخيرة فضعف امرهم ، ثم اسر الفرنسيين مركبين كانا قادمين من الاستانة فيهما ذخائر ومدافع وستة وثلاثون الف دينار مرسله للجزار فسرّي عن الفرنسيين وحضر الى امير الجيوش قرب عكا الشيخ عباس بن ظاهر العمر وعرض له أحواله فرحب به واعطاه السلاح والكسوة وعشرة اكياس وكتب له ان يكون متولياً بلاد ابيه . وحضرايناً مشايخ بني متوال فأعطاهم حكم بلادهم وساروا من عند امير الجيوش الى مدينة صور وقدموا له الذخائر من البلاد وتسلموا القلعة التي كانت لا بائهم .

وكان قد اجتمع من دمشق عسكر المسلمين من مغاربة وهوارة وعربان والغز الذين حضروا مع إبراهيم بك وبلغ جمعهم ثلاثين الف مقاتل بين فارس وراجل فخرجت الى مرج ابن عامر فبلغ كلير قدوم ذلك العسكر فسار اليهم في الف وخمسمائة مقاتل وحينما وصلوا وشاهدتهم تلك الجموع انهزموا أمامهم مكيدة لهم ، ولم يزل الفرنسيون في أثرهم حتى وصلوا الى أطراف المرج ومن هناك أحاطوا بالفرنساويين من كل جانب ولما رآهم القائد كلير قد أحاطوا بالعسكر قسم رجاله أربعة أقسام مع كل قسم منهم مدفع ولما شاهد أهالي الناصرة كثرة جيوش دمشق وان الفرنسيين قايلون جداً بادروا حالاً وأخبروا امير الجيوش فأحضر حالاً القائد لترك (Leture) وأمره بتخصير ثلاثة آلاف عسكري وأخذوا معهم أربعة مدافع ، وأمر الجنرال بونايرت ان يسيروا على وادي عبلين وبعد ثلاث ساعات من مسيرهم ركب أمير الجيوش وسار وراءهم طالباً أثرهم ، ووصل في منتصف الليل بمكة المدونة وعند الصباح سار بالعسكر الى أن تقد الى مرج ابن عامر

وصعد الى تل عالٍ فكشف أرض المرج ونظر الى الجنرال كليبر في وسط البهلاء وعساكر المسلمين محيطة به والهجوم من كل ناحية وليس لهم عليه سلطان ، ثم شاهد جبلاً بعيداً وعليه المضارب والخيام وكان هذا جيش الغز ، فنزل أمير الجيوش وعزل خمسمائة مقاتل ، وأمرهم ان يقصدوا الجبل ويكبسوا الجيش وتوجه قسم منه حتى صارت العساكر المحاربة في وسطهم وأحاطوا بهم ، ولما وصل أمير الجيوش اليهم ضرب مدفعاً واحداً ثم ضرب القسم الثاني ثم الثالث وحينما سمعت العساكر المحاربة المدافع ورأوا قدوم النجدة وعلموا أنهم صاروا في وسطهم ولوا منهزمين ولما أصبح الصباح أرسل خمسمائة جندي الى قرية جينين وأمرهم ان ينهبوها ويحرقوها ثم ان أمير الجيوش أخبر قري جبل نابلس لانهم لم يطلبوا منه الامان .

ولما بلغ أمير الجيوش قدوم عسكر دمشق الى صفد أمر الجنرال مرات (Murat) ان يسير بخمسمائة راكب واتصل بعسكر دمشق لشخصه فرحل الى جسر بنات يعقوب وعلم الجنرال منو وهو في الناصرة ان في مدينة طبرية عسكر الجزار فنشب القتال بينهم فانكسر عسكر الجزار وانهزم بعد ان قتل منه مائتا جندي وظهر الطاعون في عسكر الفرنسيين فمات منهم خلق كثير . وكانت الحروب قائمة على مدينة عكا الليل والنهار وهم يهجمون على الأسوار والقنابل تنهال عليهم كالطر ، وقد أهلكوا من العساكر الاسلامية والانكازية خلقاً كثيراً وهدموا أبراج عكا وأسوارها . ولما هلك بعض قواد الفرنسيين على أسوار عكا مع جملة سالحة من جندهم : أبونا برت يرجع الى بلاده لامر طراً على مركزه هناك .

وكانت انكلترا هيئت ملوك الفرنج على فرنسا فاضطر الفرنسيين ان يرجعوا عن عكا بعد ان فقدوا على سورها ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي ، ومات في الطاعون وعلى الطريق ما ينيف على الف . وفي ١١ ذي الحجة أمر أمير الجيوش بالقيام بجميع المضارب والخيام وانتقل الى مدينة حيفا وكان فيها عدة حواصل قطن للجزار فأمر باحراقها ومن هناك ساروا الى مدينة يافا فأخذوا ما كان لهم من الامتعة والمدافع الكبار ودفنوها في الرمال وقد كانوا أخذوا من العساكر العثمانية اربعة آلاف بندقية فألقوها في البحر وأحرقوا المراكب التي كانوا غنموا من المسلمين وأخذوا من

فيها اسرى وسخروهم في نقل الجرحى والمرضى من عسكر الفرنسيس يحملونهم على الواح خشب الى مصر .

خطيئات نابوليون } هذا ما رواه المؤرخ نقولا الترك في دخول نابوليون
في الشام } جنوب ارض الشام وخروجه منها وما وقع له من
الوقائع المهمة وكانت مدة مقامه في الشام شهرين لم تستفد منها فرنسا سوى قتل
بعض ابنائها ، وكذلك خسرت الشام خسارة الضعيف مع القوي . ونابوليون وان
عدوه نابغة القواد في عصره الا انه اخطأ كثيراً في توسعه في فتوحه . وفتح الشام
ومصر من جملة خطيئاته ، ولم ترج بلاده من حملتها على هذين القطرين الا نشر
مدنيتها على ايدي من استصحبهم نابوليون معه من كبار العلماء والمهندسين والطببيين ،
وكانت مصر مباءة علمهم وعقر يتهم .

وقد آخذ صاحب تاريخ الدولة العلية القائد بونايرت بانه ارتكب قبل مغادرته
يافا امراً شنيعاً لم يسبق في التاريخ وهو امره بقتل جميع الجرحى والمرضى من
عساكره حتى لا يعوقوه في سيره . وفي تاريخ فلسطين : ان جنود الجزائر في يافا يوم
نابوليون كانت مؤلفة من عرب واتراك ومغاربة وارناؤد واكراد وجر كس « وبيت
الاسكاف فيه من كل جلد رقعة » فانسحبوا لما فتحها نابوليون الى بعض الخانات وابوا
التسليم قبل ان يؤمنهم على حياتهم فاجابهم القائد الافرنسي الى طلبهم فاستأمن له
اربعة آلاف شخص فساقمهم الى المعسكر ولما رآهم نابوليون سأل قائده عن هذه
الجموع المحتشدة فاخبره انها حامية المدينة التي سلمت اليه اماناً وقبلهم حقناً للدماء
فبهت وحرار في امره وقال : ماذا تريدون ان افعل بهذا العدد عندكم زاد يكفيهم
ألكم مراكب فنقلهم الى مصر او فرنسا ومن يتولى خفارتهم اذا ارسلناهم ، يجب ان
تعطوا الامان الى الاطفال والنساء والشيوخ لا للرجال الاشداء المقاتلين ، ثم استشار
ضباطه في قتلهم فخالفوه واكسره اصر على رأيه وامر بهم فقتلوا رمياً بالرصاص في ١٠ آذار
سنة ١٧٩٩ هـ .

الا ان مشاقة بقول وقبل ان يغادر بونايرت يافا الى عكا امر بقتل الاسرى الذين وقعوا

في قبضته ثلاثاً في العريش وفي غزة وفي يافا ، وكان يطلق سراحهم كل مرة بعد ان يأخذ عليهم العهد ان لا يعودوا الى قتاله ، ولما اسرهم هذه المرة وعددهم يربو على ثلاثة آلاف حنق عليهم وعلم انهم لا يراعون ذمة ولا يحترمون الشرف العسكري ، فامر جنوده باطلاق النار عليهم ولم يواروهم التراب ، وبقيت اجسامهم طعاماً للطيور ، وظلت رفاتهم مكشوفة مدة اه . وهذا السبب معقول وله من القوانين الخريبة ما يشفع به بعض الشيء اكثر من الرواية الاولى . وانتقد مسترمان على نابوليون ذبحه حامية يافا وكانت مؤلفة من اربعة آلاف ارناؤدي ووضعه السم لجنوده لدن عودته لانهم اصابوا بالطاعون . وفي رواية انه وجد فيها الفين من الاسرى الذين اطلقهم وكانوا عاهدوه في العريش ان لا يحاربوه فقتلهم والحرب غشوم .

وقال مشاقة : ان بونابرت بعد ان فرق جموع الاتراك على الحدود السورية ارسل كتاباً الى الجزائر ينصح له ان يجنح معه الى السلم فلم يتنازل الجزائر الى اجابته ، فارسل اليه رسولاً ثانياً فقتله الجزائر فحنق نابوليون ونقدم برجاله البالغ عددهم عشرة آلاف مقاتل الى غزة ، وهزم من رجال الجزائر اربعة آلاف فارس ، واسفرت وقعة يافا عن قتل ثلاثة آلاف من الجنود التركية ، ودخلت رجال نابوليون مدينة يافا ، وتصرفت بما عثرت عليه من مال ومتاع ، وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي سمح بها نابوليون لرجالها بالتصرف والتمتع بآل المغلوب واملاكه . وقال الشهابي : ان العساكر الفرنسية حاصرت يافا ثلاثة ايام وملكوها بالسيف ، وكانت عسكر المسلمين فيها ينيف على اثني عشر الفا فما سلم منه الا القليل ، وقتل كثير من النساء والاولاد حتى جرى الدم في اسواق يافا ، وارسلت دمشق عشرين الف جندي الى عكا فالتقاهم الف جندي من الفرنج وكسروها وقتلوا منها مقللة عظيمة .

ولما جاءت الاخبار الى دمشق بان عسكر الجزائر وعسكر الانكيز قتلوا من جنود نابوليون ثلاثة آلاف جندي زينت دمشق وضربت المدافع من قلعتهما ، وقد اصبحت البلاد التي وقعت فيها تلك الوقائع وماليها بالخراب ، ومن اهم خرابها تسلط الجند على ضعاف الرعايا فقد نهبت العساكر التي ذهبت من دمشق لمقاتلة الفرنسيين (١٢١٣) مدينة صفد وعملوا المنكرات اثناء طريقهم . فاصيبت فلسطين هذه الرة بفوائيل كانت سواحل

فينيقية واعمالها تصاب بمثالها او اكثر منها في القرنين الماضيين . ولقد اصبحت مثل هذه الوقائع في هذا الجزء من اقاليم الشام اي في اللبنانيين الغربي والشرقي وماجاورهما من الامور العادية ، وما ذلك الا لقيام امثال بني حمادة وبني معن وبني الحرفوش وبني شهاب ممن كانوا يحاولون ان يظهروا بمظهر كبار الامراء وهم صغار بمواقعهم ونقص تربيتهم الحربية وضعف اخلاقهم وقلة معارفهم ، فكانوا بمقاومتهم بعض المقاومة لعمال الدولة من الترك يخربون ديارهم ، ويهلكون من اخذوا على انفسهم حمايتهم من ضفاف السكان .

حال الشام بعد رحيل ا كان يظن بعد رحيل بونايرت ومعاونة الانكليز نابوليون ٤ ان للدولة العثمانية على اخراجه من الشام ، ان الدولة تبدل شيئا من اصول ادارتها وترجع عن استسلامها لعمالها الذين يجبوت الجبايات ويرضونها بجزء منها ويحتفظون بالباقي لانفسهم . ولكن الاحوال بقيت بحالها ، وظن الجزار نفسه انه هو الذي دفع جيش نابوليون عن الشام ، فعاد يمثل مظالمه ويحمل على الناس مفارمه ، ومظالمه لاحقة بالمسلمين والمسيحيين والاسرائيليين على السواء وجنونه فتون ربما كان فيه شيء من المعقول وذروا من جودة الادارة ولكن الناس في حكمه كما قيل :

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش اخف منه الحمام
ولم يكف فاسطين ما حل بها من ظلم الجزار ثم وقائع بونايرت حتى قام محمد باشا ابوالمرق يسومها العسف والحسف ، يجور على اهل بيت المقدس ومدينة الخليل وغزة والرملة ولد مما لم يقع مثله ، حتى اضطر السادات الاشرف الابرياء لكثرة مظالمه ان يبيعوا اولادهم كما تباع العبيد والجواري على ما ذكر ذلك احمد باشا الجزار في كتاب صدر عنه سنة ١٢١٧ الى وكيله في دمشق .

ومن احداث هذا الدور نهب المسكر الدمشقي (١٢١٤) جميع القرى في طريقه الى غزير في لبنان ، وثارت عساكر الدولة في ضياع كسروان ونهبوا كل ما وجدوه وذلك للضرب على ايدي الامير بشير الذي كان على ما يظهر يسر حسوا في ارضاء وتحبسه نفسه ان يأكل الخراج ، ولذلك قاتله جيش الدولة (١٢١٥) مرة أخرى

للاجاء الى نواحي بعبداء في لبنان وقتل من ادركه في المتن ، ورجع الامير بشير الى عاريا
وكان عسكر الدولة احرق عدة بيوت من بعبداء والحدث وسبي النساء وقتل العجائز والاولاد
فاجتمع معه اربعة وخمسون رأساً من القتلى فارسلوها الى الجزار ونهبوا اموالاً ومواشي
واحرقوا عاريا . وذهب والي دمشق سنة ١٢١٧ الى حماة وفتحها بالسيف وبالغ في
الظلم حتى قمر غالب اهالي حماة عن بلدهم انقاء شره ، واثرقوا في دمشق وحلب
وطرابلس واصبحت حماة كاقربة لقلة سكانها .

قال ابن آق بيق : وفي سنة ١٢١٧ شغلت دمشق بالظلم واكرامية الباشا من
البلاد واشتغل حسن اغا بالظلم في دمشق وارهاق القرى بالطروحة والاكراميات
بفرض الذخائر ومعاونة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها اثر في السابق
قال : ولما خرج عبد الله باشا العظم من دمشق سنة ١٢١٨ قاصداً الى طرابلس
يحارب اهله وضرب عسكره بعض القرى ونهبها وذلوا على هذا التخريب حتى بلعوا
طرابلس فحاصرها وخرج اهلهاء ثمين على وجوههم ووقع القتال بين عسكره وعسكر
لمتسلم وقتل من الفريقين خلق كثير . وكان احمد باشا الجزار يرسل التجيدات الى
عبد الله باشا العظم .

وقال ايضاً : ان الجزار كان يبعث ويطلب من الاغنياء اموالاً طائلة يأخذها
منهم بعد الحبس والضرب واشتغل الدمشقيون بالهواجس والوساوس ، وبقي الطرح على
جميع الاصناف وانزلت الدكاكين وبات الناس في كرب والعسكر يحيط بالبلد ،
بالاكراد والشيخ طه الكردي وجنوده يعذبون الخلق أنواع العذاب حتى يقرؤا لهم
الاموال ، والطرح على الخلق اشكركل وخسروا من بن وثبأك والاجه وحرير
يشاشات وزنانير وبيوت وخانات وبساتين وعتامنة ووظائف وغير ذلك ، وظهر في
نار ابن عقيل وكيل الجزار بدمشق طائر ذهب قدرت بفخو خمسمائة كيس . ولم يكن
يمر يوم دون ان يقبض على اربعة او خمسة من ارباب الوجاهة والثروة يسجنون في سجن
لقاعة ويمدبهم الاكراد الموفدون من قبل الجزار بالكلمات والحديد والعصي الى ان
يشرف المعتذبون على الموت ويشتط العمال في طلب المال من المصادرين ويطوفون
هم في المدينة ، فيضطرون الى بيع جميع ما يملكون ليكف عنهم ، ووصلت الحال

بالاغنياء الى التسول ، وكان قتل النفوس على الاكثر في سبيل اخذ المال مشروعاً كان او غير مشروع . فقد حدثت فتنه طفيفة بين ملتزم اموال بلادبشارة ، فارسل الجزار على العصاة عسكرياً قتلوا منهم ما ينيف على ثلثائة رجل واسروا عدة ، وارسلوهم الى عكا جعلوا على الاوتاد ثم اخذ الجزار من البلاد اموالاً جزيلة .

ومن الحوادث في أيام عبد الله باشا العظم بدمشق ان القبوقول قصدوا إثارة فتنه (١٢١٤) فأغلق اغا القلعة بابها ، وحاصره الباشا فاضطروا الى التسليم بعد مدة ، فقتل اغا القلعة وهمدت الفتنه ، ثم سار عبد الله باشا لمحاربة مصطفى بربر متسلم طرابلس بنفسه وحاصر قلعتها بشدة ، وطال الامر فالتجأ بربر الى الجزار فسكت ولم يجبه لانه كان يفاوض الاستانة لاختذ ولاية دمشق ، وبينما الحال مشتدة على بربر وعبد الله باشا يحاصره بعسكره أرسل الجزار الى وكيله بدمشق محمد بن عقيل النفي جندي وأمره أن يقبض على عبد الرحمن افندي المرادي وحسن آغا دقتردار المتسلم وابن سجع متسلم حمص ويقتلهم حالاً ونادوا باسم الجزار واليآ . فبلغ ذلك عبد الله باشا وعلم ان الدولة متغيرة عليه ، فخاف كثيراً وهام على وجهه في البادية يختبيء عند العرب . أما بربر طرابلس فرضي عنه الجزار وأقره متسلماً على بلده ، ثم لامت الدولة الجزار على ما أناه من قتل ابن المرادي وقتله له كما يقتل العامة فتخلص الجزار مما أناه والتي تبعة قتله على وكيله ابن عقيل وقطعه إرباً مع ان الجزار هو الذي أمره خطأ بقتله .

ساوي احكام الجزار
 توفي الجزار سنة ١٢١٩ (١٨٠٤) بعد ان ضرب البلاد وأهلها ضربة لم تصب بمثلها منذ أزمان . أصله بشناق من جماعة علي بك امير مصر هرب الى الشام لما قُتل مولاه ، وأقام يخنأف الى لبنان فاطاع على أحواله وأحوال البلاد التي كانت تحت حكم الظاهر عمر من بلاد الجليل . ثم توجه الى الاستانة فمعين وزيراً على صيدا أولاً وحصن عكا ورفع عن بيروت حكم بيت شهاب وضبط أملاكهم . وكان احمد البشناق هذا جزاراً سفاكاً لانه لما كان كاشف البحيرة في مصر عهد اليه الانتقام من عربها لقتلهم عبد الله بك من ممالك

مصر فأسرف في القتل فلقب بالجزار . ولا غرو فالدم البشري في نظر احمد باشا الجزار ، كدم الخرفان في نظر القصاب والنجار . هاج المماليك على الجزار مرة يريدون قتله فيما يقال ولولا حذره الشديد لقتل ، وتحصنوا في برج داخل عسكاً فطلبوا الامان ، ولما علم ان خيانتهم كانت بالانفاق مع بعض سراريه غضب عليهم جميعاً وخنقهم بالماء الحار . حج الجزار مرة بالناس فلما عاد ترامي الى سمعه اتهام بماليكه بحريمه فسخط عليهم ، ولم يلبث ان أرسل المماليك في حملة على لبنان واوقد ناراً كبيرة في داره ، فكان خصيانه يأتونه بنسوته واحدة بعد أخرى فيقبض بنفسه على عنق الواحدة وي طرحها في النار على وجهها ، ويدوس على ظهرها ويضغط على رأسها ، حتى يتم شيئها في النار وتهلك فيرفعها ويحضر غيرها ، وعلى هذه الصورة الشنعاء أهلك الجزار سبعة وثلاثين امرأة ولم ينج غير فتاة في الثامنة من عمرها .

كان الجزار يقتل الكبير والصغير من وزراء وافندية وعلماء واغوات ، ويرضي السلطان بالمال ويداريه فيتغاضي عنه ، وكان اذا عامل احد المغضوب عليهم بالرفق وعزف عن قتله يجذم انفه ، ثم يعلم اذنه اليمنى ثم يقاع عينه اليمنى ولو كان من خواص خدامه . وكم من بيت خربه بسلب ماله ظلماً ، وكم من رجل قتله بعد ان صادره ، وكان لا ذمة له ولا زمام ، خدمه رجال من بهوت معروفه فلما بدا له قتالهم وصادهم واخلى لهم ذنوباً والقاهم في البحر . ولقد اكرمه كل الاكرام الامير يوسف الشهابي حاكم لبنان لما كان الجزار صعلوكاً متشرداً لاول امره في بر الشام وعاونه لما اصبح والياً ، فكانت النتيجة ان شنقه والقاه ثلاثة ايام معلقاً ، ولطانا اخذ النوتية والركاب في مراكب كانت قادمة من مصر قبل مجيئ الفرنسيين اليها ، وقتل جميع من فيها من ابناء مصر او الشام وصادر جميع ما يحملون من البضائع .

| | | |
|----------------------------|---|------------------------------------|
| نفن الجزار في إهراق الدماء | } | وكان من عادة الجزار بعد ان يصادر |
| وحكم المؤرخين عليه | | المصادر ان يقتلهم كما فعل سنة ١٢٠٥ |

فقبض في دمشق على اولاد السيد عبيد وأولاده ووضعهم في السجن واخذ منهم ستين

الف قرش ففروا الى حلب حالاً ثم قبض على ثلاثين من اتباعه وسجنهم في القلعة ففدوا انفسهم بمائتين وخمسين الف قرش ثم قتلهم ليلاً ، وقبض على خازن امواله واسبابه ونفاه الى مصر ، وقبض على مفتي عكا وامامها وعلى رئيس مينائها فقتلهم صبراً . وظلم جميع اكابر دمشق وسلب اموالهم .

وخرج ذات يوم سيف عكا قبل الشمس الى باب السراي وامر باغلاق ابواب المدينة وقبض على كثيرين من العمال والكتاب والاهالي فسجنهم ، وكانوا مائتين وثلاثين انساناً وقبض على النواب وسجنهم ، وكان كلما تقدم اليه انسان يكشف رأسه وينظر في وجهه فالذي يقول فيه نيشان يرجعونه الى السجن ، والذي يقول ما فيه نيشان يطلق ، ثم انه أحضر الفعلة ايضاً وصنع بهم كذلك وقبض منهم جملة وأحضر التجار وأرباب الصنائع والحمالين وعلى هذا المنوال عامل الجميع فامتلات السجناء ، ومن الغد أحضر المغاربة وأمر ان يخرجوا السجناء كلهم خارج البلد ويقتلوا الجميع ففعلوا ما أمرهم به قال مدّون وقائمه : وكان يوماً عصيباً لم تكن تسمع فيه الا صراخ المقتولين ظلماً وعويلهم وأنينهم ، وبقي القتلى كالغنم مطروحين خارج البلد ، ثم أمر ان ينادي المنادي في شوارع عكا ليخرج أهل القتلى لدفن موتاهم ، وأشار الى ان كل امرأة ترفع صوتها تقتل حالاً ، فخرج الناس ودفنوا القتلى وأصبح الناس في كرب عظيم وخوف زائد . ثم ابتداء يرسل جنوده يقبضون على الفلاحين ومشايخ البلاد وأصحاب المقاطعات فمنهم من يقتله ومنهم من يصلم أذنه ويجدع انفه ويطلقهم .

ولم يذكر المؤرخون علة استرسال الجزار في قتل الناس على هذه الصورة من غير سبب واعلمه أصيب بمس من الجنون او ان جنونه أطبق هذه المرة فأزهق الارواح ، وان امتاز في جميع أدوار حياته بالسفك والفتك . وذكر المؤرخون ان الجزار قهبل وفاته أمر ان يفرقوا من كان في سجنه في البحر فنفذ أمره . وفي التاريخ العام ان الجزار أوقد جذوة النعصب بين المسلمين في بيروت وأغرام بقتل الموارنة حتى يضمن حكمه على بيروت . ولم يكن يُعرف فيما اذا كان الجزار خادماً مخلصاً للسلطان او عاصياً

وختماً . وكانت كثيراً ما تجيئه رسل جاو يشية ^(١) من الاستانة تحمل اليه بعض الاوامر فيجيز رأس القادم و يبعث به الى ديوان الاستانة ، وهناك يصدق الذهب على الوزراء والخصيان ونساء الحرم السلطاني . وكثيراً ما كان يقول وهو في حال السكر للمسيو دي توليس : السلطان كالبنات يعطي نفسه ان يعطيه أكثر ، فاذا حاول ان يقاومني فأنا ارداه الى الصواب بان أهيج عليه مصر والشام وآسيا الصغرى ، وازحف على الاستانة في جيش « القابسز » واكون قادراً مثل لويس الكبير امبراطور فرنسا .

وقد وصف مشاققة الجزائر وصفاً معقولاً قال فيه : انه كان داهية ذابأس وحنكة واسعة ، سلمت اليه الدولة ادارة شؤون ابلتها وعولت عليه في اخضاع الشام وضمه تحت جناحها ، على طريقة الغدر والخذاع والقاء الفتن والحروب الاهلية بين امراء البلاد والمشايخ الذين كانوا يحكمون الرعية بالجور والعسف ويسومونهم الذل انواعاً والظلم اشكالاً ، وشريعة الرجل منهم ارادته السخيفة ، والحاكم يشنق و يقتل و يشوه اخلاق الشعب ، وكان الحال قيضت لهم رجلاً كالجزار ينقم منهم ، وكان هؤلاء العتاة لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الاهلية يكرهون العدل و يعشقون الظلم ، لا يرحمون ضعيفاً ولا قريباً ، ولم تكن معاملة الجزار للامير يوسف اقسى من معاملة هذا الامير لاخوانه وانسيائه وان ملحقه من الجزار هو مما يستحقه . وقس على الامير بقية المشايخ والامراء الذين كانوا يستبيحون اموال الرعية واعراضهم في سبيل اهوائهم .

قال : ان الجزار ظلم ولكنه خدم الدولة والشعب ، وعادت خدماته على الدولة بالنفع فاخضع البلاد لشوكيتها فاصبحت لها طائعة ، ورد عنها بثباته امام نابوليون خطراً كان يهددها يوم حصار عكا ، وافاد الرعية بان ازال عنهم ضغط المشايخ والامراء المستبدين فكان جوره بالنسبة لجور الامراء والمشايخ قبله اقل وطأة . ولما جاءهم وضع حداً لظلمهم وزعزع سلطتهم وارغم انوفهم واطلق الفلاح من عقالمهم . وعلى الجملة فانه

(١) الجاويشية في دولة آل عثمان عبارة عن رجل يركب امام السلطان وفي يده الدبوس ورتبته عظيمة لانه يخرج من الجاويشية الى ان يكون سنخفاً صاحب طبل وعلم ولواء (البوريني) .

عمل بما يوافق عصره و ينطبق على ابنائه ، فبموته سري عمن كان غضبه يهددهم و يوشك ان يوقع بهم . وقال : ان الجزار على قبح اعماله حفظ المساواة بين الرعية مع تفرق مذاهبها ، فيحبس علماء المسلمين و قسوس النصارى و حاخامي اليهود و عقال الدروز سوية ، و هكذا في اجراء العذابات الجهنمية عليهم لا يفرق بينهم ، و اكبر ما يحصى عليهم من الذنوب التوقف عن اداء الاموال التي يطلبها منهم و ربما نشأ تلكوهم من عجزهم .

وقال : ان الجزار كان يتأخر عن دفع الاموال الواجب عليه اداؤها للسلطنة و يعتذر عن الدفع بانه محتاج لتعيين العساكر لادخال لبنان في الطاعة ، فسئمت الدولة من تعللاته الطويلة و كتبوا له ان المدة طالت و يظهر انك غير قادر على تمهيده ، فلذلك صممت الدولة على ارسال وزير مقتدر بعساكر كافية لاختضاع لبنان لسلطوتها فكان جوابه اني بعد ايام قليلة ان شاء الله ابشركم بفتحته لانه ظهر عليهم الضعف عن المقاومة ، وقد منعنا وصول الذخائر اليهم من البقاع و السواحل و هم لا يقدررون على العيش بدونها ، لان اراضي الجبل قليلة بالنسبة لسكانه . و بعد مدة و جيزة كتب للدولة بشارة كاذبة مع الساعي بانه فتح الجبل فوجد فيه من السكان النصارى مائة و عشرين الف رجل و من الدروز ستين الفا و ثلاثين الفا من الشيعة و مثلهم من السنة فاتحفت الدولة بسيف مجوهر و مدحته على همته ، و ارسلت اليه بعد مدة أوراق جزية النصارى المعتادة و زادوا عليها مائة و عشرين الف ورقة برسم نصارى لبنان ، فسقط في يد الجزار و استدعى المعلم حبيب فارحي مدير خزائنه و استطلعاه طلع رأيه في هذه القضية فاجابه يجب الآن دفع هذه القيمة من خزانتك لما عرضته للدولة عن فتح الجبل و عن عدد النصارى فيه . ثم ننظر في هذه الزيادة فدفع ثمن هذه الاوراق . و بعد اشهر ارسل بشارة للدولة بان نصارى الجبل دخلوا في الاسلام . و لما دخلت السنة الثانية ارسلت الدولة للجزار اوراق جزية لبنان كالسنة الماضية فارجع الزيادة بقوله : ان نصارى لبنان تقدم العرض عن دخولهم في الاسلام و ارنفعت عنهم الجزية شرعاً . قال : و هكذا كانت امور الدولة في ذاك العهد تجري بلا تحقيق في صحة ما يعرضه عليها مأموروها .

ولما هلك الجزار ارسلت الدولة راغب افندي الذي صار والياً على حلب بعد

بعد ذلك لضبط متروكاته ، وكانت قوانين الدولة يومئذ تقضي بان يؤخذ كل ما يخلفه مستخدموها من اموال وامتعة ، فحررت التركة مع سندات الاموال التي كان يحورها على امراء البلاد ومشايخها عدا الاموال الاميرية ، وذلك حين توليتهم وعزلهم قبل استحقاقها ، فحسبت هذه الديون الظالمة من حقوق الدولة ، ولما رأوا انها وافرة وانه من المتعذر تحصيلها جعلوها مقسطة على رعايا بلاد اولئك الامراء والمشايخ على عدة سنين ، فكان لبنان يدفع المال مضاعفًا ، فالمال الواحد يبلغ اربعمائة كيس وكان يجبي من لبنان مال الجوالي على النصارى ومال فريضة على الدروز ، فكان القسط الواجب على اللبنانيين اداؤه من مطلوبات الجزار يبلغ مقدار ستة اموال اميرية وصار الاهالي يدفعون كل سنة مائتين .

ولم يعلم ما خلف الجزار من الاموال بعد حكم تسع وعشرين سنة ولكن الذي قاله المؤرخون ان احد رجاله الشيخ طه الكردي اخذ الف كيس وارسلت الدولة رجلين من الاستانة للبحث عن موجوده ، فما رأوا شيئًا مهيأً غير ما كانت ارسله اسمعيل باشا للدولة مع القبطان باشي في اول الامر من مال وتحف ، يقال انها بلغت ثمانية آلاف كيس بيد ان اسمعيل باشا صرف اموالاً كثيرة على العساكر والاغوات ، وعلى كل فهي قليلة بالنسبة لطول عهده ، والغالب انه كان معتدلاً في اخذ المال غير اعتداله في سفك دماء الرجال ، او انه ادخر كميات من الذهب غير ما عثر عليه منها فضاغت عند وكلائه وخواصه .

لنايات قاعدة المبالغة في الثروة والفقر ، والظلم والعدل ، والعلم والجهل ، والتقبح والجمال ، اعمال الجزار ايضاً ، ولو كان في قلبه بعض رحمة وعزوف عن سفك الدم الحرام الا بما تقضي به شريعة العقل والنقل ، لعد مصلحاً لعصره قياساً مع الصفات التي اوردها مشافة . لاجرم ان التبعة في بعض اعماله تعود على عماله ورجاله ، واكثرهم من ابناء البلاد الذين افسدتهم تلك العصور وباؤا بالنقص والقصور

| | |
|----------------------|--|
| المتغلبة على الاحكام | خرج الشام بعد هلاك الجزار مقلم الاظفار ، معروق |
| بعد الجزار | العظام بل مقطع الاوصال ، سيء الحال ، واحدث |

موته فراغاً ففقدت به الدولة اعظم قوة تمثلها في هذه الديار ونفس بهلاكه خناق ارباب المقاطعات المتغلبين من الاعيان وكان في سجن الجزائر في عكا رجل يقال له اسماعيل باشا ارناؤطي الاصل ، واصله من جملة عساكر الوزير الاعظم حين حضر الى مصر لاستخلاص مصر من الفرنسيين . ولما قام الفرنج على المسلمين واخرجوهم من مصر وتشتت العساكر في تلك الاقطار قصد اسماعيل باشا احمد باشا الجزائر ، فدعاه الى فتح يافا فظهرت منه خيانة مع محمد باشا ابو المرق فقبض عليه الجزائر وسجنه وعذبه ، كما كان يفعل بمن يقبض عليه وبقي في سجن الجزائر الى ان هلك هذا ، فخرج اسماعيل باشا من محبسه وجعل مكان الجزائر فاستولى على ممتلكاته حتى اضطرت الدولة الى قتاله لعصيانته في قلعة عكا وارسلت عليه حملة ودام الحصار اربعة اشهر حتى أخذ وقتل فاستراحت الامة من احمد الجزائر ومن خلفه

ان السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات الخلب السبع
وكان اهل وادي التيم عصوا فارسل عليهم اسماعيل باشا جنداً كبس القرى وقتلوا زهاء مائتي قتيل واخذوا مائتي اسير وكبس الامير بشير جنبلاط بعساكر الدروز بعض قرى عكا وقتل من عسكر ابراهيم باشا جماعة ، وابراهيم باشا هو ابراهيم الحلي الذي نصبته الدولة مرة ثانية على دمشق وكان والياً على حلب . وكانت حدث بموت الجزائر اضطراب وخلت دمشق من الاحكام ، فمهد الامور وعهدت اليه الدولة مع ولاية دمشق بصيدا وطرابلس واوعزت الى الامير بشير الشهابي حاكم الجبل ان يكون في طاعة ابراهيم باشا وعوناً له على اصلاح حال صيدا والساحل ، فصدع والي الجبل بالامر لانه كان داهية يراعي الدولة ولا يتأخر عن قضاء لباياتها ، ولا سيما الخراج والجزية يؤديهما في اوقاتها .

حاولت الدولة غير مرة القبض على مصطفى بربر متسلم طرابلس ولكنه ظل في منصبه يسوم الناس مظلماً ، وما لبث خصمه اللدود عبد الله باشا العظم ان تولى دمشق للمرة الثالثة بعد ان كانت الدولة غضبت عليه بوشايات الجزائر وشرده في البادية ولكنه دعاها الى الرضى عنه وداواها بما تداوى به في العادة باكياس من الذهب . وخرج عبد الله باشا من دمشق بالحمل (١٢٢٠) فحدث بينه وبين الوهايين امور

عظيمة ، وكانوا قد استولوا على الحجاز وتقدموا الى ارض الشام فهلك غالب عسكره . انتهب الحاج .

عين سليمان باشا الكرجي من ممالك الجزائر واليا على عكا فاقام حاكماً على يافا وعلى غزة محمد اغا ابو نبوت احد ممالك الجزائر ، وبقي حاكمها الى ان طمع بالاستقلال فيها ، وعندما تحقق سليمان باشا ذلك ركب عليه بالعسكر فهرب الى مصر ثم الى الاستانة وشفع فيه الشافعون فنال رتبة الوزارة . وسليمان باشا هو الذي اراد ان يرفع بعض المظالم عن الرعايا ويحميها على الاجانب كأن يبيع الغلات والقطن والزيت من الاجانب فقط ، وفي نفس عكا خاصة تبتاع الحكومة ما يفضل عن عوز الاملين وتخزنه في مخازن لها تبعه من التجار الاجانب القادمين في مراكبهم بالاسعار التي تريدها .

ومن الاحداث في سنة ١٢٢١ ما حدث من فتنه بين عسكر الوطنيين (اليرلية) و (القبوقول) في دمشق ، فحاصرت القلعة وأغلقت المدينة كلها ، ووضعت المتاريس داخل المدينة ، وجرت بين العسكرين حرب المتاريس في الأزقة والشوارع والسطوح والاسواق والمآذن فغلب اليرلية القبوقول وكسروهم وهزموهم الى مأذنة الشحم ثم ارتدوا عليهم واخذوا طالع الفضة ، ونهب الخلق تلك الجهة كلها ، وراح القبوقول مكسورين ثم عادوا وكسروا اليرلية عند الشيخ عمود فنال الفريقان احدهما من الآخر على غير طائل . ولم يقف شقاء دمشق عند حد القتال بين الجند بل أسرف الوالي كنج يوسف باشا (١٢٢٢) في ظلم الناس وأراد ستر ذنوبه فأرسل الى الدولة الف كيس من المال لانعامها عليه بآيالة الحج وإيالة طرابلس مع ولاية دمشق وذهب الى بلاد نابلس وقهر أهلها وجبى منهم أموالاً عظيمة ثم ذهب الى بلاد النصير بين وقائلهم وانتصر عليهم وسبي نساءهم وأولادهم ، وكان خيرهم بين الدخول في الاسلام والخروج من بلادهم فامتنعوا وحاربوا وخذلوا ، وبعت نساؤهم وأولادهم ، فلما شاع ذلك أظهروا الاسلام فعنا عنهم وتركهم في بلادهم بعد ان حاربهم شرين ونهب قراهم ، ثم رحل الى طرابلس ليقبض على مصطفى بربر متسلها ، فتحصن هذا في القلعة فوق القتال ، وكانت الحصار احد عشر شهراً وطرابلس خلال هذه المدة خالية من سكانها وقد جمعوا في الخانات سلعهم ومتاعهم وماعونهم ، ثم دخل يوسف باشا البلد

وأطلق لعسكره الاكراد والارناؤد وغيرهم النهب فلم يبقوا على شيء فيها وأنزل عسكره في الدور فحربوها باخذ خشبها للدفع والوقود . وتوسط سليمان باشا والي صيدا عند الدولة فعفت عن مصطفى بربر وتسلم يوسف باشا القلعة وأصل مصطفى بربر من قرية القملون من عمل طرابلس وكان لاول امره من خدام الامير حسن اخي الامير بشير فتوصل بذكائه وشجاعته الى المناصب العالية وحاز اعتبار الوزراء وخشية الرعية .

لولا زمان خون في تصرفه ودولة ظلمت ما كنت انسانا

قتل سليم الثالث ومصطفى الرابع وتولي محمود الثاني
 وخلع في غضون سنة ١٢٢١ السلطان سليم الثالث بيد الانكشارية وقتل لانه أراد ان ينفذ خطة في إصلاح الإدارة على الرغم من حربه مع روسيا والنمسا وغيرهما من دول الغرب ، وينشيء عسكراً جديداً يستعاض به عن الانكشارية ، وكان هذا السلطان واسع النظر اكن الدهر خانه فلم يقدر ان يطبق اصلاحه ، وكان أراد ان يخفق علم التمدن الاوربي فوق بلاده « فاستدعى اليه من فرنسا ضباطاً ومهندسين ورجالاً لهم اضطلاع عظيم في فن الصناعة فبعث اليه العدد الكثير من ذلك » وتولى مكانه السلطان مصطفى الرابع فألقى جميع خطط الاصلاح ، واكنه قتل كما قتل سلفه السلطان سليم ولم يطل عهده اكثر من اربعة عشر شهراً ، وخلفه السلطان محمود الثاني (١٢٢٣) متشبعاً بروح إصلاح السلطان سليم الثالث ، يريد اخراج الدولة من سباتها ، ومعقداً انه لا سبيل الى نجاتها الا بايجاد قوة لها من غير عسكر الانكشارية الذين عرام الانحلال منذ مئة سنة ، وأصبحوا يقتلون الملوك والوزراء ويخونون الدولة في ساحات الوغى ، ويعبثون بشعبهم وموارثهم بكيان الدولة ، وذاعباً الى ان من جملة الاسباب في بقاء الدولة ان يقلد الفرنج في مناحيهم وعاداتهم . وهو الذي لبس الطربوش والالبسة الغربية . واخذ يقيم الحفلات والمراقص وحفلات السماع على الطريقة الاوربية .

وفي سنة ١٢٢٣ مرة ببلاد النصير بين طيب انكليزي فقتله الرعاع هناك ،

فصدرت الاوامر بالقبض على القتلة فأرسل سليمان باشا والي صيدا عسكرياً بزعامة مصطفى بربر فاكسح بلادهم وقتل سبعين رجلاً من كبارهم ، وحشى رؤوسهم تبناً وبعث بها الى الباشا ، ثم اُمنع النصيرية عن اداء المال فأرسل عليهم مصطفى بربر فنكل بهم وقتل خمسة واربعين من رجالاتهم فأخلدوا الى الطاعة . وكان من مقتل الطيب وسيلة الى الغارة على ضعاف الرعايا في زمن اُصبح فيه شتى الغارات صناعة يحترفها أناس مخصوصون في خدمة متغلب من المتغلبين . واذا ظلمت من دونك فلا تأمن عذاب من فوقك .

وفي سنة ١٢٢٤ قوي الاختلاف بين والي دمشق وابن الشهابي وابن جنبلاط وكانا استوليا بالقرّة على املاك عظيمة من الفلاحين في البقاع فلم يزرع احد في تلك الارضاء . وكان الوهابيون جماعة ابن سعود قد استولوا خلال هذه المدة على الحجاز واخذوا يجاذبون عمال الدولة حبل السلطة في الجهات التي بين التجاز والشام . وذكر بعض المؤرخين واظنه بالغ في روايته انهم ارتكبوا في بلاد حوران سنة ١٢٢٥ أفعالا بربرية من سبي النساء وقتل الاطفال ونهب الاموال واحراق المنازل والغلال حتى قيل انهم أنلفوا في تلك البلاد نحو ثلاثة آلاف الف درهم . وساق والي دمشق يوسف باشا حملة على مصطفى بربر متسلم طرابلس واستنجد بالامير بشير الشهابي حاكم لبنان فلم ينجده معتذراً بفتن النصيرية والاسماعيلية وان الجند اللبناني مضطروا الى ان يرابط في الجبل فنال والي دمشق من متغلب طرابلس بالاجاعة وطول الحصار .

صدر الامر السلطاني في سنة ١٢٢٥ الى سليمان
 فئنة كنج يوسف باشا
 باشا والي صيدا ان يقتل والي دمشق كنج يوسف
 باشا ويصادر امواله . لان يوسف باشا عجز عن سوق قوة لقتال ابن سعود ورأى
 كما قال جودت ، اشتغال الدولة بمشاكلها الداخلية والخارجية فرصة لادخار المال ،
 واكثر من الاعتداء على الاهلين وظلمهم ، واختلس زيادة على هذا اموالاً كثيرة
 من مرتبات الحج . ومما قاله السلطان لوالي صيدا في امره الصادر بهذا الشأن : اني
 آمل منك صداقة وحسن خدمة لانك تربية الغازي الجزار احمد باشا حتى لا يقال

ان هذا راح ولم يخلف انساناً ! . ومعني ذلك ان الدولة كانت راضية عن الجزار اذا ذكرته تذكره بانه مثال رجالها الأثماء ، وما ذلك الا لانه كان يؤدي لها الخراج في الجلمة ويقاتل اعداءها ويرشي جماعة الاستانة بالمال على الدوام . اما سوء سيرته في الرعية وظلمهم ونقتيلهم فهذا لا ينقص بزعمها قدر الرجل ، بل يجب على العمال ان ينقلوا مثاله .

ولما جاء سليمان باشا في جند من الدروز وغيرهم لاختد دمشق من كنج يوسف باشا تعصب الدمشقيون لوالدهم القديم ، ووقع القتال في ارض الجديدة وداريا من ادنى قرى وادي الحج ، فانهزم الدمشقيون وظفر العسكر اللبناني والعكاوي وقتل كثير من الدمشقيين . وفي هذه الواقعة يقول المعلم نقولا اترك في مدح الامير بشير :

وخاض غمار الحرب تحمل خلفه ثلاثة آلاف تصول وتخطر
فلاقتهم فرسان المنايا مغيرة نادى على الباغين الله اكبر
وثار الوغى والسيوف قد قارع القما وغطى الفريقين الغبار المكدر
فولى على اعقابه كل ظالم وفي سهل داريا الاعادي نقهقروا
وكم من سراياهم ترامت جماجم كاوراق اشجار على الارض لنثر

وكان والي دمشق القديم قد جمع امواله فبلغت كما قيل اثني عشر صندوقاً من الذهب وعشرة احمال من الفضة ، فتعرض بعض الجند لجماعته اثناء خروجهم ليلاً من باب الهواء في السراي ، فأفلت هو ووقع المال في ايدي الجند والعامه ، فثنا سموه واغنى أناس من هذه الغارة على أموال الوالي التي سببت نكبته ، وجمعها من أموال الدولة ودماء الامة ، وتوجه يوسف باشا كنج الى مصر فتوسط له محمد علي الكبير بالعمفو ثم بعثت الدولة بعض رجالها فضبطوا ما خلفه الوالي السابق من الاموال في دمشق بعد ان نهب ما نهب ، فكانت نحو ثمانية آلاف كيس من صافي الصابون وبعض اشياء كان يتجر بها . من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً .

سليمان باشا وامراء اشيا وعدّ مشاقه من حسنات سليمان باشا ضمّه اقليم
وكوائن حلب البلان الى ولاية دمشق بعد ان كان مستقلاً

تحت لواء امراء راشيا الشهابيين قال: وذلك لان حكام ذلك الاقليم مستبدون وكانت الالهالي تقاسي عذاباً وجوراً لا يطاقان ، والامراء يدفعون عن الاقليم مالا معلوماً لحفظ استقلالهم به و براشيا معاً ، والحكومة مشطورة مع الالهالي الى شطرين حزب يناصر الامير فندي وآخر الامير منصوراً ، وكان كل واحد منها يراقب الآخر ويترصد الفرص ليفتك به ، فيحتاج كل منها بالطبع الى عصابة ومال وحاشية . وقد أثنى مشاققة على سليمان باشا وقال : انه خدم الدولة والرعية خمسة عشر عاماً بالعدل والامانة ، وكان الاسف عليه عاماً حتى شعرت الدولة بفقدته (١٨١٩ م) وقال : لما سلبت بلاد بشارة من ايدي مشايخها كثرت التعديات واضطرت حكومة صيدا الى وضع عساكر كثيرة ، فلما جاء سليمان باشا الكرجي والياً على عكا اقنصر على مائتي جندي من المشاة وخمسمائة فارس واربعمئة خيال من الهوارة يتبعهم مشاة ضبطية في باب السراي وجماعة المدفعين على اسوار المدينة وأقام في كل بلدة من المدفعين والضابطة كفايتها .

وسليمان باشا من ممالك الجزائر اشترك مع سليم باشا في حرب الجزائر ولما افسد هذا العسكر على باب عكا هرب سليم باشا وسليمان باشا ، الا ان هذا عاد الى مولاه تائباً فوجه عليه متسلمية صيدا . وكان سليمان باشا هذا لا يسمع وشاية ويحمي من بعينهم من جماعته ولا يسمع فيهم كلاماً ، واذا عين احدهم لا يرفعه معها وقعت عليه من الشكاوي ، واذا توفي احد خدامه مسلماً كان او مسيحياً يضع ولده مكانه ان كان له ولد ويجري عليه رزقه وان كان لا ولد له بدر راتباً على عياله ، وكان يعطي كل واحد من خدام بابيه على حسب حاله من القرش الى العشرة قروش كل يوم ، وهذا لا كبر ما يكون من ارباب الوظائف . قال العورا مدون وقائمه : وكان عنده لما مات ٢٢ «دعبولة» في كل دعبولة الف كيس ريال فرنسا (كل ريال باربعة قروش) عدا ما كان تحت يد صرافه حايم واخيه موسى وهو يربو على اثني عشر الف كيس وعدا الديون التي للتخزينه على تجار عكا وبيروت وما عند حريمه من الجواهر والتحف وخلا ما عنده من الغلات والكراع .

هذا الرجل الذي خلف هذه الثروة وما ذلك بالامر المستنكر على ولادة عصره ،

كان يتبع بكلام العاديين والمصلحين مع افراد من حاشيته ومن يفشون مجلسه ، ليدل على حبه لاحقاق الحق وزهده في حطام الدنيا . شنشنة معروفة في بعض من يتولون امور الناس في هذه الديار يبرؤن انفسهم من حب الدنيا وهم سراق منظمون ، ويستحلون في السر كل كبيرة وفي جهرم اعفة انقياء . هذا الرجل قال لو كي له وصرافه حابيم وكان به حنا العورا يوم استولى على دمشق وخلصها من يوسف كنج باشا : انا قضيت حياة رأيت فيها الحلو والمر ، فاذا اردتم ان تخدموني بالصدقة فانا اشتراط عليكم ان لا تظلموا احداً ، فلا أريد الظلم ولا اذية أحد ولا خراب بيت أحد . ولا عيني بمال أحد ، واريد ما امكن سد باب الظلم ، وليس لي حاجة في غير لقمة خبز طيبة وحصان مليح و«جوبق» دخان والتكسوة الاعتيادية وامرأة واحدة ولست آذن ولا ارخص لاحد منكم ان يجمع لي مال عباد الله بالظلم ولا بالخطف ولا بالحيلة ولا بوجه من الوجوه ، ولا اريد الا اخذ الاموال المرتبة بامر السلطان فقط ولا اشكر من يسعى لي يجلب الاموال من غير حلها بل اغضب عليه ، وهاءنذا اشهد الله وملائكته ورسوله عليّ وعليكم بهذا جميعه ، وانا بريء الذمة من كل ما نفعلونه في هذه الدنيا وفي الآخرة ، فهل تقبلون بشرطي هذا كي اسلمكم زمام اموري واريح فكري ، فاجابوه : نعم قبلنا وسمعنا واطعنا فحينئذ قال لهم : وانا سلمتكم مصلحتي بتمامها تصرفوا بها بحسب صداقتكم ، وقد توكلت على الله وهو نعم الوكيل . كلام اشبه بكلام عمر بن عبد العزيز لاناس من حاشيته من زهاد التابعين وتابعي التابعين !

وفي سنة ١٢٢٦ حدثت فتنة بين الدروز القاطنين في الجبل الاعلى من عمل حلب وبين اهالي تلك البلاد وجرت بينهم وقائع كثيرة فانفق جميع اهل تلك الاطراف فارسوا يستشفعون بالامير بشير فكتب الى حكام حلب ، وارسل مباشرين لاحضار الدروز من هناك وكانوا اربعمائة بيت واعطاهم مئة الف درهم لمعاشهم ، وفيها زاد ظلم محمد سعيد متولي جبل ريحا من عمل حلب ، والطبل علي ضابط جسر الشغرة ، وافسد النظام فارسلت عليهما الدولة جيشاً لقاتلها فانهزما .

وكثيراً ما كان يجري الخلاف في دمشق بين اغا القلعة والوالي فيعتصم الاغا وجماعته في القلعة ويشرع باطلاق الرصاص والبارود والمدافع على جماعة الوالي ويصيب

الاهالي من ذلك خطوب جسيمة كما وقع سنة ١٢٢٧ فاخذ عسكر الوالي يحيط بالقلعة ويطلق من المآذن المجاورة النار عليها والجنود يطلقون النيران ، ودام ضرب المدافع والحصار الشديد ليلاً ونهاراً بلا فتور ، وقتل اناس خارج القلعة واحترقت بعض الاماكن ، ثم وضع عسكر الوالي سلام ودخلوا القلعة من سورها وجرت المذبحة بين المحاصرين والمحصورين ونهب عسكر الوالي القلعة ، وكان من يذهب قتلاً من الجند على نسبة من يقتل من الرعية . والقلاع آية البلاء على الرعية ولا ينفع بها عند الاقتضاء الا الوالي او المتغلب انتفاعاً مؤقتاً .

ومن الولاة الذين ملأوا حلب وارجاءها ظلاماً جبار زاده جلال الدين باشا (١٢٢٧) كان مثلاً في المصادرات وقتل من يأبى اعطاء المال ولا يكاد يمضي يوم الا ويقتل انساناً وقد احتال على ثمانية عشر شخصاً من رؤساء الانكشارية في حلب وأهلكهم فسكنت الفتن قليلاً وقطع من اوصال الانكشارية وقبض على القيادة بشدته وقلة ذمته في اهراق الدماء . وروى في اعلام النبلاء ان ابن جبار او (جبان) هذا عين اثنين يتجسسان اخبار الناس الذين تجب مصادرتهم فكان يرسل من طرفه اثنين حاملين بلطة يأتیان بمن يجب مصادرتهم ، فيزج في الحبس ويوضع في رقبتهم سلسلة لها شوك ، ثم يطالب بما قرر عليه وهو جرم او جرمان ، والجرم اربعون كيساً والكيس خمسمائة قرش ، فمن لم يدفع الجرم في ثلاثة ايام يخنق ويرمى تجاه باب القلعة ، وكلما خنقوا واحداً أطلقوا مدفعاً فكان يعلم عدد الخنوقين في الليلة من عدد المدافع ، وكان الوالي اذا أراد النزول الى السوق امر فزينت له الاسواق نهاراً فينزل ومعه « البلطجية » والعساكر عن يمينه وشماله فيدور في الأسواق ، ومتى ادار وجهه الى رجل فان البلطجية يأتون ويضربون رقبة صاحب ذلك الخانوت ، يفعل ذلك بثلاثة او اربعة اشخاص ثم يعود ، ولما تكرر منه هذا العمل الفظيع سأله وجوه البلد عن سبب قتل هؤلاء وما ذنبهم فكان يقول : لا ذنب لهم غير اني اقصد إرهاب الناس . وتمذبه الناس واخذهم بالتهمة الباطلة من المأثور عنه المشهور به .

وجاء بعده خورشيد باشا وكان يصلي و يصوم لكن اتباعه يفعلون كل كبيرة وهو

عنهم ساكت ، وحدث ان الاهالي هجموا على دار رئيس دائرته سليمان بك وقتلوه وحملوا سائر اتباعه بما عندهم من ادوات الفحش والخمر الى القاضي فعد الوالي ذلك نشوزاً على السلطنة من اهل حلب فاستدعى عسكرياً فجاءته جملة مستكثرة منهم ، فوقعت وقعة بين العسكر والعصاة في محلة قسطل الحرامي (١٢٣٥) فانكسر العصاة وهاجم العسكر البلدة واخذوا يطلقون المدافع على اسوارها فغربوا جانباً منه ودام الحصار ١١١ يوماً وجرى القتال داخل البلد في الشوارع والاسواق ، وكان القتال سجالاً بينهم الى ان فر العصاة من الاهالي ودخل الولاية مع ما معهم من العسكر واحتلوا البلدة وقتلوا سبعة من كبار العصاة وارسلوا برؤوسهم الى الاستانة . وقد قال الاهالي : انهم ثاروا لشدة ما كانوا يلقونه من العنف وما كانوا ينوون تحته من ضريبة الدور التي ضربت عليهم في سنة قحط وغلاء ، وقد قتل بالطبع من الثائرين والاهالي والجند مئات . والشاة المذبوحة لا تألم السليخ .

تولى دمشق سنة ١٢٣٢ صالح الكوسا باشا « وكان عادلاً حليماً فحماً » وراقت البلاد في ايامه ولم يحدث فيها الا نشوز عرب فليحان فارسل عليهم جنداً فتحصنوا في اللجاة فقتلهم العرب ولم يسلم من الجند الا القليل ، وبعد سنين تولى دمشق سليمان باشا وكان عادلاً الا انه محب للمال . وذكر جودت ان جماعة من الحشاشين والاشقياء (١٢٣٥) اخلوا بالامن في مدينة حلب حتى كان الولاية يضطرون ان ينزلوا خارج البلد في مكان اسمه الشيخ بكير وانه لم يمض على الثانية عشر شقياً الذين كانت قتلهم بالخدمة جلال الدين باشا جبار واليها ، حتى عاد الاشقياء فكثروا وارادوا القيام بشورة ، فتدارك الوالي الامر باستدعاء الجنود الكثيرة ، وحسم هذه النازلة قال بعد ان ذكر اربعة ابرياء قتلوا في حلب بدلاً من اربعة مجرمين بواسطة احد الاعيان : كان على ذلك العهد بين اعيان البلاد ووجوهها كثير من الاردياء الاشرار ، وهذه الحلة لم تكن خاصة بالاستانة ولا بالولايات ، وكان قتل الانسان في سهولته كقطع لحم الدجاج ، حتى حدث مرة ان الراجيف كثرت في الاستانة وبيننا كان مجلس الوكلاء ينظر في طريقة لحسم مادتها قال حالت افندي على ما اشتهر : ان احسن طريقة ان يقطع رأس الجلاق المقيم في « او قجبلر باشي » وبذلك يحدث للناس خوف ودهشة

ونقطع مادة الاراجيف فقال له احد الحضور : عفواً ان هذا حلاقي فقال — حالت افندي : ليس هذا الذي اردت ان اضرب عنقه بل الخلاق الذي يسكن في الطرف الآخر وبذلك يحصل انقصاد . قال — وبالجمله فقد كثر في تلك الايام في الاستانة وخارجها من اسودت قلوبهم وقست افئدتهم من الناس ، وكانت الادارة من كل وجه مخنلة بحيث لا يتيسر وصفها ولم يبق من وسيلة الا تجديد الاصول واصلاح امور الدولة وتنظيمها ، وقد نال هذا الشرف والي مصر محمد علي باشا والنفل للمقدم اه . وهذا كلام مؤرخ رسمي يكتب للسلطنة والحقيقة ان حالة البلاد كانت اسوأ مما وصفها به .

* * *

وقعة المزة واستسلام
الدولة لوالي عكا } تولى دمشق سنة ١٢٣٥ درويش باشا ، وفي ايامه
اعتدى جماعته على مزارع ابن شهاب وابن جنبلات
في البقاع فاضطر والي الجبل الى ارسال جند لمحاربته ، وارسل والي عكا جنداً
لمعارنته على والي دمشق ، وجمع هذا عسكره ووقع القتال فانصر والي الجبل على والي
دمشق ، ربشت الدولة والي حلب لا يظفر في هذه الفتنه بين الولاة ، فرأى ان السبب في
ذلك عبد الله باشا والي عكا ، فحاصره والي حلب في عكا على غير طائل ، ثم عزل
درويش باشا عن ايلاني دمشق وصيدا وعني عن عبد الله باشا ، وهلك جمهور من
الجند والباس في هذه الفتن التي كان منشأوها فيما قيل دسيسة من بعض الاسرائيليين
هلك احد انسابهم وتقرّبوا من درويش باشا فأثروا فيه . وذكر الشهابي في هذه الوقعة
المعروفة بوقعة المزة لان هذه القرية — رقت فيها ، ان عبد الله باشا استمال بعض
مشايخ جبل نابلس ووقعت الفتنه بين اوالي تلك البلاد فانقسموا فقتلوا بعضهم ،
وقالوا ان سبب هذه الفتنه ان درويش باشا كان يريد استلام عكا من عبد الله باشا
واليها بامر الدولة فتشيع الامير بشير الشهابي لوالي عكا ، وسار في عسكره من المشاة والفرسان
من اهل الشوف والمناصف والمتن ، وعسكر عبد الله باشا في الدالاتية والحوارة ، وجعلوا
مصافهم من كوكب الى المعظمية من ادنى قرى وادي العجم ، وخرج درويش باشا
الى المزة فاقبل الامير بشير ، فلما علم عسكر درويش باشا بقدومه تحصنوا للحصار ،

وانتشب القتال بين الطرفين واطلقت عساكر دمشق المدافع والزنبركات اسي
المدافع الصغيرة ، فهجم الامير بعسكره هجمة واحدة وهدم اسوار البلدة ، وكانت مبنية
باللبن وامتلكها ، ففرت عساكر دمشق وقد قتل منهم نحو مائتين وخمسين رجلاً
واخذوا منهم خمسمائة اسير ، وغنم عسكر الامير خياماً وذخائر وخيلاً وسلاحاً ،
ورجع الى المعظمية وبلغت اسرى عسكر دمشق من اهليها ٣٧٤ رجلاً عدا من
قطعوا رؤوسهم . ومضت عدة ايام وفي نهر بردى تطفو النرقى من عسكر درو يش
باشا حتى بلغ عددهم الف رجل ومائتي رجل بين قتيل وجريح ، وقتل من عسكر عكا
نحو سبعين رجلاً . وانتشب القتال بين الامير خليل بن الامير بشير وبين فيزو باشا
احد اتباع والي دمشق وهو قادم من نابلس في قرية مرجانة فقبض عسكر عبد الله
باشا على مائة وخمسين اسيراً وقطعوا خمسة وعشرين رأساً وانهمزم فيزو باشا
الى دمشق .

وأرادت الدولة ان تضرب على يد عبد الله باشا (١٢٣٧) والي عكا فأمدت
والي دمشق بوالي حلب واذنة ليتعاونوا على ضرب والي عكا وقد تحصن فيها بالفي
جندي ، فحاصره الولاية المذكورة تسعة أشهر فلم يستطيعوا الاستيلاء على عكا
مع انهم كانوا في ستة عشر الف جندي . ولما عجزت الدولة عن أخذ عكا من
عبد الله باشا واصبح في يده معظم القطر الشامي حقيقة رتبت عليه خمسة وعشرين
الف كيس وهي تساوي نحو نصف مليون ليرة ، وذلك بدل تنقات عسكرها في حصار
عكا ، وكان عبد الله باشا يوقع كتاباته هكذا « امير الحاج السيد عبد الله والي الشام
وصيدا وطرابلس ومتصرف الوية غزة ويافا ونابلس وسنجا القدام الشريف حالا » .

| | |
|--|--|
| تولى دمشق مصطفى باشا (١٢٣٧) وفي أيامه حدثت فتنة بين الامير بشير وابن جنبلات ووالي العماد وكتبت النصره فيها | } سياسة الامير بشير مع ارباب الكلمة في لبنان وتقاتل الولاية وارتباك الدولة |
| | |

للامير ، وهرب المشايخ المذكورون الى حوران فأمسكوا وقتلوا ، واضطر الامير
بشير الشهابي بعد ذلك الى التغيب في دمشق وحوران ، ثم عاد بعد مدة الى لبنان

واستلم زمام الامر وطلب الاموال المتأخرة من اللبنانيين فثاروا عليه في اثني عشر الف فارس وقيل في ثلاثة عشر الف مقاتل وليس معه فيما قيل سوى ثلاثمائة ، فقتل منهم على قلة عديده وأخضعهم لسلطانه ، وعاونه الشيخ بشير جنبلاط على كبح جماحهم وكذلك والي عكا ارسل اليه عساكر الارناؤد والحوارة والمغاربة والاكراد فنشب القتال بين الفريقين فقتل من جماعة الامير بشير ارجلًا وأحضروا ٢٩ رأسًا من رؤوس محاربيهم . ثم قلب الامير بشير الشهابي ظهر المجن للشيخ بشير جنبلاط وسعى بقتله ، كما قتل أناسًا من اهله وحاشيته وسمل عيونهم ليأمن شرهم بزعمه ، وذلك لان ابن جنبلاط قويت شوكة واثرى وكثر مشايعوه ، فما كان من امير الجبل الا ان سعى باهلاكه والقي الدثنة بين الحزب اليزبيكي والجنبلاطي ليحلوا له الجوّ وسلم معظم لبنيان لأناس من مشايخ الموارنة يحكمونه ويأثرونه بالجزية والخراج ليدفع هو المقرر عليه لوالي صيدا او عكا ، و يأمن جانب الدولة فتصفو الولاية له . وكان من سياسته ان يظاهر صاحب الظهور والقوة شأن الامراء اللبنانيين في معظم أدوار تاريخهم .

وكثر الخلاف بين والي طرابلس ووالي دمشق ووالي صيدا ووالي عكا والناس يقتلون بسبب هذا الاختلاف بينهم وحاكم دمشق يحاصر حاكم عكا ، والدولة ترضى عن هذا وتغضب على ذاك ، وتسلب ولاية زيد لتعطيتها لعمرو ، تلاحظ في ذلك التوازن بين القوات ، وتنتاشى رجوع الذين يعصون أمرها من الولاية . وأعقل الولاية وأدهام من كانت تدوم ولايته سنين وكانت الوظائف الحسابية في هذا الدور على الأكثر بيد الاسرائيليين والكتابة بيد المسيحيين في كل إيلات الشام ، وكان الولاية يصادرون بعض الاسرائيليين ويحبسونهم وربما يقتلونهم لاستئصال المال فيخمال هؤلاء اتمشية امورهم ، وحدث ان معظم الحامية والموظفين في دمشق كانوا مرة من اهل بغداد الموصل وكركوك فغضب الوالي عليهم فأمر بترحيلهم فهلك بعضهم في الطرق .

كانت الشام تحتبط بأيدي الولاية وارباب الاقطاعات ، والدولة غير مستريحة في داخليتها وخارجيتها ، فاستنقات اليونان (١٨٣٠ م) بعد حرب هائلة فقدت فيها الدولة اسطولها وذهب قسم من الاسطول المصري ، وكانت الاسطول اليوناني ضرب

بيروت (١٢٤١-١٨٢٥) ، وتوسعت اختصاصات إمارتي الافلاق والبغداد (رومانيا) حتى بلغت الاستقلال او كادت ، وفتحت بروسيا لها طريق البحر الاسود ، وما زالت حال الدولة على ذلك حتى نشأت ثورة الانكشارية في الاستانة (١٢٤٢) وكانت الدولة أخذت تنظم جنداً جديداً على الاصول الحديثة ، فاستراحت الدولة بعض الشيء بعد إهلاك الانكشارية وكذلك حال الامة المسكينة التي قاست الاهوال من اعتداءاتهم ، وكان الفضل الاكبر في ذلك لمصلح الدولة السلطان محمود الثاني الذي أظهر من الثبات وقوة الارادة في هذا الشأن ما لم يعرف به اجداده الذين قتلوا بأيدي الانكشارية ، واستناموا لما يأمرؤن به مخافة ان تزهق أرواحهم . وقضى ايضاً على اهل الطريقة البكداشية في الاستانة وما اليها مما ذكره له التاريخ بالاعجاب ، وعاب بعضهم عليه شدته واعجب باعماله معاصروه من الاعاظم . فقد قال سفير روسيا في الاستانة بعد سنتين من قرض جيش الانكشارية : ان السلطان محموداً بقضائه على هذا الجند المخذل الذي تصعب ادارته قد ظفر بنور من النبوغ بمثله نخبو الممالك من الممالك . وقال دي لاجونكبير : اذا كان السلطان محمود أقل سعادة من بطرس الاكبر — امبراطور روسيا الذي أصلح بلاده على الطريقة الاوربية — في ارادة التجدد فان منشأ ذلك بان بطرس الاكبر قد وجدامة لا تزال في حالة العجيبة اي جديدة ، وكان من الاسهل ان ننظم وتصاغ ، وعلى العكس في محمود فانه صادفته عقبات من الاوضاع القديمة ، اوضاع نشأت وكبرت مع المملكة وكان منها فيما مضى قوتها وقدرتها ، اوضاع وضعها السيف وأيدها الظفر وقدمها الدين .

ما كل من طلب المعالي نافذاً فيها ولا كل الرجال فحولا

تولى دمشق صالح باشا ثلاث سنين وثلاث مرات كل مرة سنة وأظهر شدة زائدة ثم تولاه ولي الدين باشا (١٢٤٢) وكان أحق مغفلاً مهملاً ثم عزل ونصب عبد الرؤف باشا (١٢٤٣) وكان عادلاً لطيفاً وطمعت الشام به لعدله وفي سنة ١٢٤٣ أحدث وزير دمشق مظلمة على سبع عشرة قرية من البقاع فأمر الامير أهل تلك القرى اللبنانيين ان يرجعوا بهم الى بلادهم فرجعوا فخرّب البقاع فارتضى وزير دمشق

حينئذ باخذ عشرين الف قرش من تلك القرى وكتب الى الامير انه رتب العشرين الف قرش عوضاً عن المال الميري والقسم اي الثلث .

محاربة الدولة قتل النصارى } وأرادت الدولة ان تنتقم من مسيحي الشام بل
وفتنة بلاد نابلس } من المسيحيين في انحاء المملكة لثورة اليونان
عليها ومطالبتها بالاستقلال يوم ثورة المورة (١٢٤٤) وجزائر البحر الابيض ، فأمرت
والي دمشق ان يقتل المفسدين من كبراء طائفة الروم ، فعقد مجلساً من أعيان دمشق
وتلا امر الاستانة على مسامعهم ، فكان جوابهم انه لا يوجد من النصارى عندنا
المفسدون وجميعهم ذميون سالكون بشروط الذمة فلا تجوز اذيتهم بل لهم ما لنا
وعليهم ما علينا وان الرسول عليه السلام اوصى بالذميين وقال : من آذى ذمياً كنت
خصمه يوم القيامة . ونحن لا نقدر ان نحمل هذه التبعة وكتبوا محضراً للدولة بحسن
سلوك نصارى الایالة وطاعتهم ودفعتهم المرتبات الاميرية وانهم يستحقون حسن
الرعاية والمرحمة من السلطنة السنية . ولعمري اي علاقة للثائرين في جزائر البحر
والمورة مع الآمنين من الرعايا في الشام ، فقد ابان عقلاء دمشق اذ ذاك عن رأي
سديد ، ولكن لا ندري اذا كان رأيهم راق لدى ولاية الامر في الاستانة . واي
امر جائر اكثر من هذا كأن النزاع الى الاستقلال من اليونان كانوا يصدرون عن
آراء مسيحي الشام او آسيا الصغرى ، او ان هؤلاء يبحثونهم على نزع ايديهم من ايدي
الدولة ، ولو استطاع المسلمون انفسهم في ذلك الوقت ان يستقلوا عن الدولة لينجوا من
خلل ادارتها لما تأخروا عن ذلك ساعة .

وفي سنة ١٢٤٦ (١٨٢٩) طلب والي عكا من الامير بشير الشهابي ان يفتح قلعة
صانور بين جينين نابلس وكان اهل نابلس عصوا عليه وتحصنوا في قاعة صفد واعجزوه
فلم يقدر عليهم لان معظم اهالي البلاد انضموا الى الثائرين ، وكانت صانور منذ القرن
الماضي تشغل بال رجال الدولة في عكا وصيدا والقدس ، فنشبت بينه وبينهم عدة
وقائع وبعد حصار ثلاثة اشهر وتخریب عدة قرى ، امر الوزير بهدم القلعة ودكها
الى الاساس ودك مغائرها وهدم آبارها ، وسبب هذه الثورة الضريبة التي فرضها

والي دمشق على الثائرين ولما عجز عن جمعها أحييت الى عبد الله باشا فتعهد للدولة بدفع الف كيس وامر بجمعها من اهل نابلس وكانت من زعماء النابلسيين اذ ذاك اسعد بك طوقان والشيخ القاسم الاحمد ، وفشل النابلسيون ولم يبق في القلعة عند تسليمها كما قال مغلوب سوى ٣٦٧ وكان فيها اكثر من الف ومائتي نسمة قتل بعضهم وضرب الآخرون وقتل من عسكر الامير بشير ٣٧ وجرح ١١ وذكر مشاقة ابن سبب عصيان بلاد نابلس سلخ عبد الله باشا لها بامر الدولة عن اياه الشام ، لان والي الشام ادعى ان المطلوب منها ستمائة كيس لا تحصل الا بسوق حملة تستغرق المبلغ المتحصل منهم ، فتعهد عبد الله باشا بان تضم اليه ويدفع النفي كيس عنها ، وان عسكر امير الجبل الذي جاء نجدة لعبد الله باشا كان نحو خمسة آلاف رجل ، وان النابلسيين نزلوا على حكم الامير بشير الشهابي فعفا عنهم جميعاً وهدم القلعة وحصل الاموال الاميرية بعد مناوشات طفيفة .

مقتل سليم باشا | انقضى النصف الاول من هذا القرن او كاد والقطر نهب
والي دمشق | ايدي الطامعين من الولاة والمتسلمين ، يسيئون في
الرعية الاستعمال ، ويعبثون بما خولتهم دار الملك من السلطة فيمثلون اعظم مظهر
من مظاهر الحكم الاستبدادي الردي الجاهل ولم يكن يخطر في بال الدولة ان
رعاياها يقوون على الانتقام من اعظم عمالها وهم الموصوفون في معظم ادوارهم بالطاعة
للملوك والازعماء ، والرضى بما تقضي به الاقدار ، ولو صحت عزيمية المظلومين مرة او مرات
ان يهلكوا من يحاول اهلاكهم وخراب ارضهم وديارهم ، لما ساءت الحال وبلغت البلاد
ما بلغت من الاختلال والاعتلال ، نريد ان نقول ان الرعايا طالت ايديهم فقتلوا والياً
عظيماً من ولاة السلطنة ونعني به سليم باشا الصدر السابق مبيد جيش الانكشارية .
نصبت الدولة هذا الشيخ والياً على حلب ثم على دمشق سنة ١٢٤٧ ، وكانت
ظاهرة شجاعاً مهيباً وباطنه جبناً ، فهم ان يقتال بعض اعيان المدينة فبدأ بذلك من
حماة ، وقتل بعضهم فايقن القوم ان هذا القاتل لا يصعب عليه ان يهلك انساناً في
دمشق ليصفو للدولة الحال بزعمه ، فلما جاء عاصمة الشام اراد ان يضع على كل سكرة

اي عقار في دمشق « مصريتين » كما هو الحال في الاستانة فتارت باشارة الاعيان وكانوا عند المصائب الشديدة تتحد على الاغلب كتبهم انقاء شر عظيم يتعمون فيه او تقع البلاد ، وكثيراً ما كانوا يدخلون الاوهام على الولاة لئلا يسترسل هؤلاء ويستطوا في مطالبهم وتكون المغام مناصفة بين الاعيان المتلغبة والحاكم المنصوب — فضرب الوالي العامة من ابراج القلعة بالقنابل حتي اذا ضاق عليه الخناق جاء في بعض رجاله الى دار قرب باب البريد فتأثره العامة وهدموا على رأسه سقف المخدع واحرقوه .

وذكر بعضهم ان هذا الوالي تحصن برجاله في جامع المعلق اولاً والسكان بالقلعة فبدأ الحريق من باب الهواء واخذ يمتد ، فلما رأى ذلك داخله الوهم لقلّة رجاله وكثرة الدماشقة فتحصن بالقلعة ، واخذ يحرق دار الحكومة ليشغل الناس ويفوز بنفسه وكان الحريق هائلاً خرب كثيراً ، ثم اعتمدوا على حصار القلعة واخذ الوالي يطلق المدافع على البلد ، واقام الناس مناريس حول القلعة ثم في الحارات وحاصروا العسكر المربط في جامع المعلق ، وقتل في هذه المناوشات اناس كثيرون من الاهالي وجماعة الوالي ، وطال المطال وتلب الناس على الوالي حتى ان والي عكا اخذ يقوي اهل دمشق عليه ولما ضاق به الحصار خرج الى بيت القاضي بجانب دار المشورة فجاء سبعة رجال كسروا الباب والنافذة عليه والقوا النار بعد ان اخرجوا من عنده ابن اخيه والكيخية ثم قطعوا اعناقها افتراء وعدوانا كما قال مدون هذه الواقعة اذ ليس لهما ذنب يوجب القتل حتى ان الباشا نفعه افتروا عليه لانه لم يظهر منه ادنى اليهم غير تمسكه باقلام الاوامر التي يهده من الاستانة ، وربما كان ينحمر للاعيان شراً لانعابه واما في الظاهر فليس لهم عذر سوى انهم افتروا عليه وعلى جماعته على نوع مستغرب مناف للشرائع كلها ثم اخذوه عرياناً الى القلعة ، مع الاثنين خاصة بعد ان داروا برؤوسهم اغلب البلاد ودفنوه داخل القلعة وتولى الشرجبي الداراني ورشيد نسيب الشوملي امر البلد ، وبات الناس يتوجسون خينة من رجال الاستانة ، ولو كان ما اتوه في حالة راحة الدولة لارسلت عليهم جنودها يفعلون بالابرياء والجناة الافاعيل المنكرة ، ولكن الدولة كانت لتوجس خينة من محمد علي والي مصر وما بلغه من القوة بجنده وبحريته

واستعداده ، ولها مشاكل في اوربا تخاف ان تتجزأ قوتها اذا ارادت تأديب الدمشقيين ولذلك لم تحب ان تناقش الاهالي الحساب ولم تسوئها فجميعها بشيخ هم قاتل ، والقاتل مبشر بالقتل ، ومن عادة الدول على الاغلب ان تفتك بعد حين فيمن استعملته آلة للفتك ولذلك نرى مؤرخي الترك قد نطقوا بلسان الحكومة ولم يحركوا ساكناً كأنهم رأوا لعمل الدمشقيين مبرراً من حسن نيتهم .

وقال مشافة : لما قتل الدمشقيون سليم باشا اجتمع اعيانهم ورتبوا حكومة مؤقتة واخذوا يترقبون ورود عسكر الدولة للانتقام منهم ، فورد الخبر بخروج عساكر مصر لتأتي الشام فسكن روعهم بعض الشيء ولما خرجت عساكر مصر صرفت الدولة النظر عما عمله اهالي دمشق وارسلت والياً عليهم اسمه علي باشا . واخذت الدولة تؤول عمل اهل دمشق واصبحت كالحامية عنهم تخنلق لهم الاعذار عما بدر منهم لان السياسة اضطرتها الى ذلك . فقد جاء في تاريخ لطفي نقلاً عن جريدة نقويم الوفائع الرسمية ان سليم باشا لم يعمل بحسب الوقت لما جاء دمشق ، وقد عين الحاج علي باشا والي قره مان لاستئصال الفتن التي كان شهبوها يتراعى الى المسامع ، بيد ان سليم باشا قتل قبل وصول خلفه ، وتبين ان للغرباء يداً في هذه الفتن وان تأديب المشاغبيين بسوق قوة على دمشق يضر باهاليها .

وقال المؤرخ : ان سبب عصيان الدمشقيين ان سليم باشا مر بجماة عند شخوصه الى دمشق وقتل بضعة رجال من عرب عنزة وقيد البرازي في القيود واتى به معه الى دمشق فدهش اهاليها وكان اقتراحه وضع ضريبة مما اوقد جذوة الفتن . وذكر ان الاهالي هجموا على السراي اولاً واغلاقوا دكاكينهم واصبح الامر فوضى . وقد كتب السلطان على محضر قدمه بهذا الشأن عاطف بك ابن خليل شقيق سليم باشا قال فيه ما تعريبه : قد يتبادر الى الذهن ان لبعض الاطراف يداً في حادثة دمشق ومن الجائز ان يكون ذلك بصنع والي صيدا لان هؤلاء ليسوا على ثقة تامة من دولتنا العلية وهم ينفرون منها على الدوام ، وعلى هذا فان امور ايلة الشام اذا دخلت في النظام على ما يجب يحدث ذلك ضرراً لهم وقد عرفوا هذا حق المعرفة فيجوز ان يكونوا سبب هذه الفتن لا يصل الحال الى تلك الصورة .

وقد ظهر من الاوراق الرسمية الاخرى التي نشرها لطفي في تاريخه ان السلطان ذهب مذهبين في هذه الفتن فكان يقول في بعض اوامره قبل مقتل سليم باشا القائم بتطبيق قانون رسوم الاحتساب سداً لنفقة الجند ان اهالي دمشق وحواليها وان كانت ارضهم مباركة ، لا يستنكف اكثرهم عن عار ولا يعرفون الحياء ، وظاهر انهم اشرار وسيرون بحول الله وقوته من اسباب التأديب ما يقفون به عند حدهم . وقال في كتاب آخر : ان وقوع هذه الحادثة في دمشق ليست منبعثة من جسارة الاهالي فقط ، بل نشأت بلا ريب من اغواء الاطراف وتحريكها . وذكر المؤرخ ان السبب في فتنه سليم باشا تحريك محمد علي والي مصر ليجعل مقدمة لدخوله الشام وفي رواية اخرى ان والي عكا عبد الله باشا كان هو السبب في ذلك .

وقصارى القول ان سليم ياتسا مبهذ جيش الانكشارية الذي عجننت طينته بالدماء فقتله اعيان دمشق مخافة ان يبطش بهم كما بطش في حماة خافوه ووجدوا فرصة للنيل منه لما جاء يطبق قانون الاحتساب ، فأتاروا الرأي العام عليه ففعلوا وربما كانوا يريدون الاكتفاء بتهديده ليحملوه على الحرب ولكن الامر خرج من ايديهم الى ايدي العامة فقتلوه غير حاسبين للعاقبة حساباً فكان قتله على غير رضى العقلاء من الاعيان بهد ان قتله كان مخيفاً لمن يأتي بعده من الولاة .

الحكم على موقف البلاد } ويجوز لنا بعد نقل حوادث نصف قرن ان
في نصف قرن } نلخصها ونستخرج منها على الصورة التالية (١) كان
الظلم يقع على المسلمين والمسيحيين والاسرائيليين على السواء ولما كان المسلمون هم السواد
الاعظم من السكان كان تأثير الظلم في مجموعهم اقل من تأثيره في مجموع الاسرائيليين
مثلاً . (٢) أوغل ار باب الاقطاعات في الظلم فقلّم الجزار من أظافرهم ليستأثروا وحده
بالظلم والقتل ، فخالفه التوفيق بطول المدة الى الضرب على أيديهم بعض الشيء ، فلما
هلك عادت الحالة الاولى الى سابق تعاستها من ظلم المستضعفين والفلاحين . (٣)
مرّت حملة نابوليون بوناپرت على جنوبي الشام كاستجابة ، وكان من الجزار ان ضمّ
قوى البلاد برأي انكثرت التي نوات حربه بجرأ باسطوطها وساعدت حكومة

الدير كتوار في باريز استدعت نابوليون فعاد أدراجه مسرعاً لا يلوي على شيء كما رجع ريشاردس قلب الاسد ملك انكترا في الحروب الصليبية بعد ان عقد مع صلاح الدين يوسف ميثاقاً أنقذ به الصليبيين ومحاربهم من اهل البلاد من القتل والقتال . (٤) الظلم الواقع على النصرانية وارادتهم على تغيير معتقداتهم واتخاذ مقتل رجل غريب يمت بنسبه الى دولة اجنبية قوة ذريعة الى تخريب بلادهم وقتل زعمائهم بدون تحقيق ، على حين كان زعماء الارجاء الاخرى من القطر يفعلون فعلهم وزيادة ، ولا من يرد عنهم او يقوى على نزع سلطانهم وتخفيف وطأتهم ، مثل محمد باشا ابو مرق الذي عجت الارض الى السماء في فلسطين من مظالمه حتى اخذ الناس يبيعون اولادهم كما تباع الجواري والاماء فراراً من ظلمه وقياماً بما يفرضه عليهم من المفارم . (٥) قيام مصطفى اغا بربر متسلم طرابلس واستعانته بكافل عسكاً على كافل دمشق وظلمه الرعية ومحاوله الدولة غير مرة ان تستريح من تسلطه فلم نستطع ذلك الى ان هلك حنف انفه . (٦) انقضاء دولة بني العظم بهلاك عبد الله باشا آخر من ولي منهم سنة ١٢٢٣ ولم يبق بعده أحد من ذريتهم لتولي الاحكام . (٧) اشتغال الدولة بالغوائل التي أصابتها ولا سيما استقلال اليونان ومحاولاتها لما نال اليونان ما أرادوا ان تنتقم ممن يدينون بدينهم في الشام ، فرد حزم الحازمين إرادة المخلين من ولاية الامر الظالمين بحجة دينية ايضاً . (٨) عدم توفيق السلطان سليم الثالث في تطبيق خطط الاصلاح وكذلك مصطفى الرابع حتى تولى السلطنة محمود الثاني فبدأ في انفاذ اصلاحه بمقياس واسع كان اوله مقتل جيش الانكشارية في العاصمة اولايات ، فعدّ مصلح عصره الذي ادخل دولته في المدنية الغربية طوعاً وكرهاً ، وجعل لها مقاماً بين الدول لم يكن لها من قبل على اتساع أقاليمها ، وخروج اكثر القاصية من حكمها فتبين لها ان عظمة الممالك بحسن إدارتها وكثرة مدنياتها لا بعظم رقعتها وخصب بقعتها ، وان دولة غناماها في عنفوانها وبذخها كما هي في ضعفها وشيخوختها ، تولى رقاب الامة ولو بالصورة الظاهرة ، وجبوة خراجها ولو بالغااضي عن بعضه للجباة لا للرعية لا تصلح وبصلح أهلها .

وان الجرح ينفر بعد حين اذا كان البناء على فساد

دور الحكومة المصرية

« من سنة ١٢٤٧ الى سنة ١٢٥٦ »

— ٥٥٥ —

حالة الدولة العثمانية عند اذلال جيش محمد علي الكبير لها كانت الدولة العثمانية الى اواخر منتصف القرن الثالث عشر جسماً كبيراً تعرفه نوبات عصبية من حين الى آخر فيردها بقوته ، او يطول زمنها عليه حتى تنتهي بطبيعتها . وصاحب المرض اذا طال عليه . معاناة النوبات قد يألها و يظن انه بريء من كل خطر ، على حين كثرت آلامه ، والادوار العصبية أشد ظهوراً في ألم الجسم ، واذا تكررت على المصاب يصير الى العجز فلا يستطيع ان يدفع ضرراً ولا يجلب خيراً . فكانت الدولة العثمانية اذا نظر الى ظواهرها يظن معها قوة ، وفي الحقيقة هي الى الضعف لكثرة ما استحكمت فيها من أمراض عضالة ، وساورها من أوجاع ، غفلت الدولة عن تعمد قوتها الحقيقية منذ وضع مؤسسوها بنيانها ، فكانت تعلو وتسفل وتطفو وترسب ، بحسب مقدرة القائمين عليها من الصدور والسلاطين ، تقوم بالفرد ولا شأن للجماة في معالجة ما يصلحها من تقنين وأصول إدارة ، واهم ما امتاز به جندها الطاعة للرؤساء فأصبحت في حروبها تستهلك اكثر مما تستحصل ، لان جيش الانكشارية وهم مستندوها في قوتها عراه الانحلال ففدت الواقعة التي كان يكتفي فيها بعشرة آلاف مقاتل تسوق اليها ثلاثين الفاً ثم يشغب ولا يعمل عملاً . ولا عبرة بالعدد اذا كان المجموع أقرب الى النقص ، ومعنويات المقاتلين الى الضعف . ان بعض الفوائل التي أصيبت بها المملكة والشام من حملتها في هذا القرن والذي

قبله كانت بصنع جيش الانكشارية وتورده على رؤسائه ، وبضعف الزعماء واختلافاتهم المتصلة مع الولاية في الخارج ، والوزراء والملوك في دار الملك ، فكان وضع السيف فيهم على عهد محمود الثاني وصدور الامر بقتلهم في الولايات مما نفس خناق الامة من عربدتهم . وان كانت العقوبة التي نزلت بهم بالشام أخف ، لآب بعضهم وفيهم الرؤساء كانوا من أبناء البلاد فاعتصموا بهم وغيروا القابهم وبدلوا طرازهم وثيابهم ، وبعد ان تحلصت الدولة والامة منهم صعب على العثمانية في بضع سنين ان تصلح ما فسد في عشرات بل في مئات ، وهل من سبيل الى ارتجال جيش منظم الا اذا ساد السلام اعواماً طوالاً ، وانتشر العلم وتعلم القواد على الاقل ، وكيف يتسأني ذلك وطالع الدولة الحرب على الدوام لا انفتاً مثقلة من أزمة الى أزمة ، وكانت في هذه الحقبة خرجت من حرب الوهابية في الحجاز ودخلت في حرب اليونان .

ولم يخطر ببال الدولة يوم قام محمد علي في مصر — ومصر لعمرى أم كل عجيبة — ان يتدرج بعد قتل المليك في مراتب القوة والسيادة ، حتى يقبض على زمام الامر (١٨٠٤ م) وينظم قوته البرية والبحرية ، وينشط الزراعة والتجارة وتسمو به الهمة ، ان لا يكتفي بما يملك بل ينزع الى التوسع في فتوحه ، اذ أيقن ان الدولة وان كانت في صدد ادخال الاصلاح على اوضاعها بفضل محمود الثاني سلطانها العاقل ، لا تستطيع ان تلحق غبار مصر التي جرت على الاصول في تنظيم جيشها وإدارتها ، ونشر المعارف بين افرادها ، وسلطان العثمانيين على اتساع مملكته وكثرة خيراتها ، يتعذر عليه ان يقوم في بلاده بما قام به محمد علي في ولايته ، لان الاصلاح في الجسم الثقيل الخلف الامراض ، أصعب من مداواة جسم له مرض واحد ، اذا عولج كان أقرب الى الصحة والاستمتاع بالسلامة .

كان الغرب في هذا القرن يسير الى الارتقاء بخطى واسعة سريعة ، والدولة العثمانية تنظر الى هذه المظاهر باهتة ، وقلما يبدو لرجالها ان يتحدثوا في سر هذا الارتقاء وعواقبه عليهم وعلى جيرانهم ، ان لم يجاروهم في هذا المضمار . فأصبحت دولة ابن عثمان لا تكفي عادية دولة من دول الغرب الا اذا استعانت بأخرى عليها ، واستنادت من تخالفهم وتباين أغراضهم ، بعد ان كانت أيام شبابها تنال من دولها بمجتمعات

ومنفردات بعدادها وعددها . ولكن الجيش الذي يصل الى أسوار فينا على عجالات البقر ، ويقا تل المحاربين والمسلمين بالسيف والنشاب ، غدا يحتاج الى أسباب في القل أسرع ، وسلاح في الفتك أقطع ، غدا يحتاج الى علم وعُدَد ، أكثر من احتياجه الى اسماء ضخمة وعَدَد ، وأصبحت السياسة والادارة والحرب علوماً عملية ، والدرية والتنظيم رأس كل أمر ، والجيش بنظامها وقيادتها وعددها وذخيرتها وبالفكرة المتشبع بها أفرادها ، فكيف ننجح بعد الآن دولة تعد الجهل من مظاهر القوة وكيف لا تُجلى الفروق بين دولة جمدت ولم تعمل ، ودول تحركت ونمت وربت ، وبين أمة فتحت بلاداً واسعة منذ قرون وبقيت طول حياتها الطويلة تصارع عناصرها وبصارعونها ، وهي عنهم غريبة وهم عنها غرباء لم نتمثلهم ولم نتمثل فيهم كما فعل محمد علي فتمثل في مصر والمصريين .

لما ذا تراجعت
الدولة العثمانية
نسب ميسو انحطاط الدولة العثمانية وإخفاقها في حكم البلاد التي افتحتها الى عدة أسباب أهمها الجهل والجهود والغرور قال : « ومن حسن طالع النصرانية انه لما فترت الهممة في الحروب الصليبية التي يراد بها حماية اوربا ، أخذ الاتراك يضيعون شيئاً من قوتهم العسكرية التي أخضعوا لسلطانها الشعوب النصرانية ، فكان العثمانيون باديء بدء الامة الوحيدة التي كان لها تحت السلاح جيش دائم منظم ، وبه أحرزت الدولة التفوق على الامم التي تريد إخضاعها لسلطوتها . وغدت اوربا في القرن السادس عشر ، ولمعظم ممالكها جيوش يقاومون بها اعداءهم ، وانتشر النظام والتربية العسكرية بسرعة بين شعوب النصرانية . وأخذت المدفعية والبحرية تزيد كل يوم نظاماً ورقياً في الغرب ، على حين كانت الاتراك يزهدون في التجارب التي وصلت اليها الجيوش البرية والبحرية ، ولا يستفيدون بتاتاً من العلوم التي انتشرت بين أعدائهم وجيرانهم ، ويزاد على ذلك ما عبث بكيان الاتراك من الخرافات وقلة التسامح ، فحال ذلك دون فتوحهم . فكانوا اذا استولوا على ولاية يحاولون ان يحكموها بنظاماتهم ، ويفرسوا فيها عاداتهم وعباداتهم ، فانفضى لهم من ثم ان يبدلوا وجه كل شيء ويقضوا على حياة كل شيء في البلاد التي ينزلونها ،

وان يقضوا على اهلها او يضعوهم بحيث لا يستطيعون ان يناجزوهم الشر ، ويرفعوا رؤوسهم فيهم ، ولذلك يلاحظ ان الاتراك استولوا مراراً على بلاد الحجر ، فكانوا يرحلون عنها بعد كل حملة يحملونها عليها ، ولم يستطيعوا بحال ان يؤسسوا فيها مستعمرة او موطناً ثابتاً . وهم في انتصار يتلوه انتصار . والشعب العثماني الذي كفى لاحتلال ولايات مملكة الروم واستعبادها لم يكف لسكنى اقطار ابعد والاحتفاظ بها ، وبهذا نجت المانيا وايطاليا من غارات الاتراك ، وربما استطاع العثمانيون ان يفتحوا العالم لو قدر لهم ان يخلقوا البلاد التي ينزلونها باخلاقهم و ينزلوا فيها كثيراً من ابنائهم .

قال : « من الاسباب الرئيسة التي اضعفت القوة الجندية في الاتراك ، الحروب التي كانوا اعلنوها على اوربا وفارس . فقد صدم جهادهم الفرس عن حملاتهم على النصارى وجهادهم في النصارى اضر بنجاحهم في حروبهم في آسيا . وكانت طريقة الاتراك في حربهم الفرس والشعوب المسيحية مختلفة متباينة ، فبعد ان قاتلوا زمناً مقاتلة ماوراء النهر وقفقاسيا ، اصبحوا عاجزين عن قتال اوربا فضعفوا عن قتال الفرس وعن قتال النصارى من ام الغرب . وظلوا بعدئذ بين عدوين نقر بياً بعمهما زوالهم و يتحسمان بالحماسة الدينية . حمل الاتراك معهم مثل جميع البرابرة الذين اتوا من شمال آسيا نظام حكومة الاقطاعات ، وكان اول عمل يأتية اولئك الشعوب الرحالة تقسيم الاراضي بوضع بعض القيود والشروط لمقتطعها ، ومن هذا التقسيم نشأ نظام الاقطاعات . والفرق بين الاتراك وسائر البرابرة الذين فتحوا المغرب هو ان استبداد السلاطين المبني على الحسد والغيرة لم يترك مجالاً قط للاقطاعات ان تكون وراثية ليكون بجانبهم طبقة من الاشراف كما هو الحال في الحكومات الاوربية المطلقة ، وهكذا لم تكن تشهد في المملكة العثمانية سوى سلطة رئيس مطلق الى جانبها ديمقراطية عسكرية .

« شبهوا الاتراك بالرومان . وكانت بداءة عذنين الشعبين واحدة ، وما اشبه اشباع روملوس باتباع عثمان . و ينفاتو الشعبان في نظر التاريخ . وذلك لان العثمانيين ظلوا كما كانوا في الاصل ، اما الرومان ايام فتوحهم فلم يزهّدوا في معارف من فتحوا بلادهم . ولم يستكفوا من الاخذ بعباداتهم ومعبوداتهم ولم يقتبس الاتراك من الام المغلوبة شيئاً ، وتشددوا في ان يظلو على بربريتهم . ولم لناصل الارستقراطية

الوراثية في جانب الاستبداد المطلق ، وربما كان ذلك احد الاسباب التي قضى بها على الامة العثمانية ان تبقى في حالة الهمجية . وكل من درسوا سير المجتمعات يدركون ان بالارستوقراطية نتهذب الاخلاق ونثقف عادات الشعوب ، وبواسطة الطبقة المتوسطة ننشر المعارف وتبدأ المدنية .

« ان فقدان الطبقة الارستوقراطية في الحكومات الشرقية لم يبين لنا سرعة انحلال هذه الحكومات فقط ، بل انه حل لنا معنى جمود الفكر الانساني في هذا الضرب من الحكومات ، وكيف لم يقدم قيد غلوة . وما كان في المساواة المطلقة ، ومن حكومة تغار من كل ما لا تكون هي منشأ ومصدره شيء من المنافسة والقودة وحب الجهد ، وبدون هذه الاسباب يقضى على كل مجتمع ان يبقى في الجهل الاعمى الذي كان عليه لاول امره ، وان يفقد معظم مزاياه ومصلحه . وبالنظر لزهد الاتراك في العلوم والآداب ظلت اعمال الصناعة والزراعة والملاحة في ايدي واليهم وكانوا في الحقيقة اعداءهم ، وذلك لانهم كانوا يشتمزون من كل جديد ، ومن كل ما لم يحملوه معهم من آسيا ، فاضطروا ان يلجأوا الى الاجانب في كل ما اخترع ونظم في اوربا ، وهكذا لم يكن لهم نقض ولا إبرام في مصادر سعادتهم وقوتهم ، وفي مائة جيوشهم واساطيلهم . ولا يخفى ما اضاعه الاتراك بوفائهم عن السير في معارج الرقي العسكري الذي اصاب منه الاوروبيون قسطاً موفوراً ، ولما كان الشأن في حروبهم بجيوش متحمسة بالتعصب كانت الغلبة لهم ، فلما جاء دور العلوم البشرية وما ابرزته عقول الناس من المخترعات والمكتشفات ، كان العقل المساعد هو الخيف للشجاعة .

شبه بعضهم جيش الانكشارية العثمانية بطوائف البرتوريان من الرومان ، في حين كان هؤلاء منتخبين وما جرى قط على خاطر الاتراك ان يختاروا اميرهم سواء في ذلك شعوبهم وجيوشهم . وكانت مصلحة الانكشارية تقضي ان يلقوا الاضطراب في المملكة لئلا يخلو لها الجو فتستفيد شيئاً من الجديد . اما الاتراك الذين توطنوا في يونان فكانوا يحترمون العادات القديمة اكثر من غيرهم ، كما يحترمون الاوهام وحب البلاد التي ينزلونها . ولما استولوا على مدينة الاستانة كانوا يوجهون انظارهم على الدوام الى البلاد التي انشأتهم وناسلوا فيها ، فكانوا اشبه بسياح وفاتحين عابري سبيل في

اوربا : من ورائهم قبور اجدادهم ، ومهاد عبادتهم وكل ما يقدسونه و يحترمونه ، وامامهم شعوب يكرهونها ، وادبان يريدون القضاء عليها ، وبلاد يتراءى لهم ان الباري تعالى ، يلعنها . واهم ما اخر الاتراك وقادهم الى انحطاطهم ، ذكرى مجد سالف ، واعمجاف وطني لا تناسب بينه وبين ثروتهم وقوتهم ، فكانوا يستهينون ، ولم القوة ، بالاخطار التي تهددهم فاذا كتب لهم النصر سكرروا وقربوا القرايين واذا غلبوا حملوا على رؤسائهم .

هذا رأي المؤرخ الافرنسي في العثمانيين وعلة انحطاطهم وقال غيره واغرق : ان شأن الاتراك العثمانيين في البلاد التي يفتحونها اذا رحلوا عنها شأن جماعة من البدو نزلوا منزلاً مؤقتاً ضربوا خيامهم فيه ، اذا ترحلوا عنه من الغد لا تشاهد بعدهم سيف الارض التي نزلوها سوى آثار اطنابهم ، وعمد خيامهم فقط .

حملة محمد علي على الشام } اظهر محمد علي الكبير للدولة العثمانية وهو بعض
وهزيمة الاتراك } عمالها مثلاً مجسماً من التجدد في المالك ، وبدت
امارات قوته بعد ان قرض المالك من مصر ، فلم يسع الباب العالي الا الاعتراف
بسلطته ومراعاته ومحاسنته ، شأنه مع كل عامل احرزه قوة ، على شرط ان يؤدي
الجباية في اوقاتها ، ويعرف كيف يصانع رجال الدولة وسلطانهم . وكان محمد علي
أسعد طالعا من سلطانه ، لانه لم يصطدم يوم قام باصلاحه بما اصطدم به السلطان
محمود في تطبيق الاصلاحات ، ورأى من المصريين قبولاً لدعوته ، واستعداداً
لمدنية ، وهو لم يقاوم الطبيعة كما قاومها الترك العثمانيون في السياسة التي استخدموها
للقضاء على العناصر ، بل استعرب وتمصر وألف بطانته من كل من يخدم مصر بدون
تعصب لقومية ولا عصبية شعوبية .

فقام بما أراد في مملكته الصغيرة أحسن قيام ، وفتح صدره لكل جديد ، بل
فتحت مصر بفضل صدرها لذلك . بيد ان محمد علي لم يقف عند الحد الذي بلغه من
الاستئثار بوادي النيل ، وطمح الى التوسع في الملك ، شأن عظماء الفاتحين المدوخين
للمالك الطامعين في بسطة السلطان ، ولكن اي البلاد بفتح ؟ هل يتوسع في افريقية ؟

في صحراء ليبيا وصحراء النوبة وهي أصقاع لا توازي العناء . وربما صدمته دول الاستعمار عن التوغل في شمالي افريقية او في أواسطها ، ام يقصد الشام وهي مفتاح كل فتح ، وفيها من العمران ما يوازي العناء في استصفائها ، وبينها وبين سكان مصر من وجه الشبه ما لا ينكر محله ، ثم لا يصعب عليه اذا خفقت عليها أعلامه ، ان يتقدم الى الامام ، ويملك من بلاد العرب والترك ما طاب له ، ولا يعلم ما تحدثه الايام .

بحث محمد علي عن وسيلة لذلك فلم يلبث طالعه السعيد ان خلق له سبباً معقولاً لفتح الشام ، وذلك ان بعض فلاحي الشرقية بمصر ضاقت نفوسهم من إعانات عماله بالجندية والضرائب ، فلم يسعهم الا ان يهاجروا الى جهات غرة ملتجئين الى والي عكا ، وكان عددهم ستة آلاف ، فطلب منه محمد علي إرجاعهم خوفاً من كثرة عدد من يتبعهم الى الشام ، فامتنع الوالي من ذلك بدعوى ان الاقليمين تابعان لسلطان واحد ، فاستشاط محمد علي غضباً خصوصاً وهو الذي استرضى خاطر الدولة على والي عكا وكانت غضبت عليه ، ودفع عنه ستين الف كيس غرامة اقتضتها منه لترضى عنه ، فاتخذ عزيز مصر من ذلك حجة لفتح الشام فأمر سنة ١٢٤٧ هـ باعداد جيش للسفر اليها عن طريق العريش وطريق البحر في آن واحد ، وذلك لمحاصرة عكا من جهتين ، وعين ولده ابراهيم باشا قائداً عاماً للجيش ، وسليمان بك الفرنساوي قائم مقام له ، وجند ستة الاليات من المشاة واربعة من الفرسان ، ومعهم اربعون مدفعاً وكثير من مدافع الحصار الضخمة ، وما يلزم ذلك من الأعتاد والمؤن . فوصل ابراهيم باشا مع الاسطول الى حيفا وفتح له غرة ويافا والقدس ونابلس ، وكانت أهل حيفا بلغوف اذ ذاك ثلاثة آلاف نسمة ، وعكا اشهر مدن الشام بمحصانتها وفيها خمسة آلاف مقاتل ، فدام حصارها سبعة أشهر تحاصرها من البحر بوارج حربية مسلحة المدافع الكبيرة ، ومن البر ثلاثون الف جندي ، وبريطانيا سلطنة البحار متغاضية عنه طوعاً او كرهاً ، اذ كان لمحمد علي من فرنسا نصيرة وظهرية ، وليست بريطانيا حرة مطلقة في البحر المتوسط لتضرب اسطول محمد علي منذ أقبل من الموانئ المصرية الى السواحل الشامية .

وبعد فترة قليلة تمكنت الدولة من تجنيد عشرين ألف مقاتل بقيادة عثمان باشا والي حلب ، فترك ابراهيم باشا قسماً من الجيش على عكا ، والنقي في ضواحي حمص مع القسم الآخر بالجيش العثماني الذي كان كأخلاق الزمر لا نظام له ولا دربة . فأبلى المصريون بلاءً حسناً حتى أوصلوا العثمانيين الى العاصي وغرق كثير منهم فيه ، واخفى عثمان باشا في حماة ، ثم احتل ابراهيم باشا بعلبك وعاد الى عكا وشدد الحصار عليها ففتحها بمعاونة العرب والدروز والموارنة الذين أتوه بانفسهم طوعاً بعد ان ظهر على الاتراك في أرض حمص ، وأتاه الامير بشير الشهابي الى المعسكر يريد الدخول في طاعته . فتحت عكا بضرب المدافع ثلاث ثغرات من سورها واستمر القتال بالسلاح الابيض فاستسلمت الحامية ، وأخذ عبد الله باشا واليها اسيراً وحمل الى مصر مكرماً ، ثم فتح الاسطول المصري سواحل الشام كاللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور . وبعد ان فتح ابراهيم باشا عكا قصد دمشق ومعه الامير بشير وأمرأه حاصبها وراشيا فجمع علي باشا والي المدينة عسكرياً من الاكراد وأحداث البلد قدر بعشرة آلاف ، وكشف ابراهيم باشا بمنظاره خيول الاكراد ومقاتلة الدماشقة فوجه خيل الهنادي لمقاتلة الاكراد ، ونبه على العسكر النظامي ان يقاقلوا الدمشقيين ولا يؤذوهم ، بل يطلقون البنادق في الفضاء ، فلما سمع الدمشقيون أصوات النار تهاربوا وقاتل الاكراد جهلهم حتى غلبوا ، وفي أثرهم خيل الهنادي تقتل من تلحقه منهم .

| | | |
|---|---|--|
| <p>يؤخذ مما قاله البيطار ان ابراهيم باشا قد ساعده الامير بشير الشهابي ورؤساء جبل نابلس ، لان عبد الله</p> | } | <p>تقدير مؤرخين وشاعر لغلبة محمد علي</p> |
|---|---|--|

والي عكا كان حاصر قلعة صانور وهدمها ، وحصل منه ضرر لاهل نابلس وكان ذلك من اسباب الغلاء الذي وقع في الديار الشامية ، وان ابراهيم باشا بينا كان جيشه على عكا يقامي الأهل ويتجندل منه الرجال اثر الرجال ، جاء عباس باشا بن محمد علي باشا الى البقاع وحصر بعض القلاع هناك ليقطع الطريق على العساكر العثمانية الآتية لقتالهم ، واقترب اهل جبل لبنان وتلك النواحي فرقتين ، فتابع النصاري

منهم الامير بشيراً المتفق مع ابراهيم باشا ، وخالفهم الدروز وأظهروا الطاعة للسلطان ، ثم قصد ابراهيم باشا الى طرابلس وحمص ودخلها بلا قتال .

قال ونوجه ابراهيم باشا الى بعلبك وجاءه المدد من العساكر والذخائر ، وعاونه اهل الجبل من المسيحيين والدروز ، وكان قبل ذلك وقعت بين هاتين الطائفتين قتل فرجع اليهم ابراهيم باشا وكسر شوكتهم فأطاعوه ، ثم دخل عسكر ابراهيم باشا عكا من الابراج على السلام . وذكر بعضهم ان من جملة من قتل من عسكر ابراهيم باشا اثنا عشر الفا ومن عساكر عكا نحو خمسة آلاف قال : وفي ثالث المحرم ١٢٤٨ أرسل ابراهيم باشا الى دمشق يطلب منهم ان يمكنوه من الدخول اليها فلم يرسلوا اليه جواباً ثم طلب ثانياً فأرسلوا اليه انا لا نممكنك من الدخول اصلاً ، وفي رابع عشر المحرم وصل بعض جيوشه الى قرب قرية داريا فخرج الى لقائهم خلق كثير من اهل دمشق فقاتلهم قتالاً يسيراً ولم يقصد كل من الفريقين إضرار الآخر وقتل من كل فريق رجل او رجلان ، ثم دخل ابراهيم باشا دمشق وقد فر منها واليها علي باشا وعسكره والقاضي والمفتي والنقيب ومحمد شوريجي الداراني وجميع أبناء الترك الموظفين وغالب أعيان دمشق ، ثم عزم على قتال حمص فحصل بينه وبين العسكر السلطاني قتال قتل منهم نحو خمسة آلاف وأسر نحو اربعة آلاف وفر باقي العسكر والباشوات وكانوا نحو ثلاثين الفا وغنم أموالهم وعتادهم وسار بعد ذلك الى حماة فحلب فملكها بلا قتال ، ثم جاء انطاكية وعينتاب واللاذقية واستولى على حصن الاسكندرونة وعلى حصن بانياس وبيلان وكان فيه حسين باشا فحدثت بينها مقتلة عظيمة .

وفي البهجة التوفيقية ان الدولة جيشت جيشاً آخر بلغ عدده ستين الف مقاتل بقيادة حسين باشا فالتقى الجيشان أمام حمص وانهمزم الجيش التركي وبلغ عدد القتلى من الترك ٢٠٠٠ والاسرى ٣٠٠٠ ونهزم الجيش التركي الى حلب ، وحاول حسين باشا الدخول الى حلب فمنعه اهلها خوفاً من انتقام ابراهيم باشا فنقهقر الى بيلان فنقدم الجيش المصري ودخل حلب وتأثر الجيش التركي فهزمه وغنم منه خمسة وعشرين مدفعاً وكان غنم منه اولاً اثني عشر مدفعاً ثم غنم اربعة عشر مدفعاً آخر وقتل من العثمانيين اربعة آلاف وقتل من المصريين خمسمائة وخمسون ووقع في يد ابراهيم باشا

الفان من العساكر النظامية امسى من الارناؤد والموارة فأعطاهم الامان وأدخلهم في جملة جنده ، واخفى حسين باشا ولم يعرف له اثر ، واجتاز ابراهيم جبال طوروس وكان السلطان في هذه المدة جيش ستين الف مقاتل آخر — وفي رواية أخرى مئة وخمسين الف عسكري بالمدافع والمهمات — ولم يكن مع ابراهيم باشا سوى ثلاثين ألفاً فالتقى الجيشان في سهول قونية ووقع القائد رشيد باشا اسيراً في ايدي المصريين وانهزم الاتراك وغنم المصريون منهم في هذه الوقعة نيفاً ومائة مدفع وكثيراً من الذخائر واسروا عشرة آلاف عسكري بينهم كثير من الضباط والقواد وقتل منهم ثلاثون ألفاً .

ويقول مشافة : ان جيش حسين باشا لم يكن سوى اربعين ألفاً من الترك ، على حين لم يكن مع ابراهيم باشا سوى اثني عشر ألفاً وكانت ابقى من عسكره جانباً للمحافظة في البلاد المفتحة وهلك الآخر في الحرب او الوباء فغلب وهذا اقرب الى المعقول . وقد استغرب كامل باشا لم تستطع الدولة ان تجهش في الحال نحو عشرين الى ثلاثين الف جندي من حلب ودمشق وترسل اسطولاً الى عكا يصد عنها اسطول محمد علي او يقيم العثرات في سبيله ، كما انه استغرب كيف ان العثمانيين لم يحفظوا خط رجعتهم ولم يقفوا موقفاً يردون به عادية اعدائهم وانهزموا تحت نيرانهم الى الاسكندرونة تاركين خمسة وعشرين مدفعاً والفي اسير على حين لم يفقد من المصريين سوى عشرين جندياً .

وقد وصف الشيخ امين الجندي الشاعر صاحب الديوان فعال الاتراك وهناً عزيز مصر وولديه ابراهيم وعباس بفتح الشام فقال من قصيدة :

| | |
|--------------------------------|------------------------------|
| والله غيّر ما بهم من نعمة | لما تغير حالهم وتبدلا |
| وقد استباحوا المنكرات فلا تسلم | عما توقع منهم وتحصلا |
| وقضائهم للسحت قد اكلوا فهل | أبصرت حياً من مفرتهم خلا |
| نبذوا الشريعة من وراء ظهورهم | وطغوا وزادوا في الضلال توغلا |
| وتمسكوا بالبدعة السوداء لا | بالسنة الغراء فارتدوا على |
| ومشايع الاسلام اصبح علم | جهلاً فلم تر قط منهم اجهلاً |

وقال في وصف وقائع المصريين مع الترك :

قترى الحكمة مبددين على الثرى
أضحت طعاماً للطيور لحومهم
واختلَّ عقد نظامهم رعباً وقد
وقال : واتى بهم للربستن المشهور اذ
حيث الجهاديون حل وزيرهم
قامت بخدمته وطاعة امره
لما رأى سيف الاله أحد من
الى السلاح تأديباً وتواضعاً
حتى اذا نفدت ذخائره وما
امضى الى ارض القصير ركابه
وهناك حاربهم وفرَّق جمعهم
وقال : هل يغلب الاسد المجرب ثعلب
والى حماة الشام سار وبعدها
حتى اذا اقتحم المضيق بيأسه
تركوا الذخائر والخيام وكلها
من يخبر الاتراك ان جيوشهم
والعز بالعرب استنار مناره
يا حبذا جرثومة الفضل الذي

والخيل من وقع القناير جفلاً
ودماؤهم للمشرفية منهلاً
غطوا الرؤوس ولم يغطوا الاسفلا
بين المقابر قد تستر واخفلا
في باب حمص وقداى ان يدخلوا
حمص اذ امثلت ولم تبد القلا
كل السيوف مدى الزمان واطولا
عند المزار وللضريح استقبلا
الفى يحمص للعساكر مأكلا
يبغى العساكر ان تقوم وترحلا
في صولة والبر بالقتلى امتلا
مها استعانت بمكره وتحبلا
لمعة النعمان يخترق الفلا
وعلى الجبال سما واشرف واعتلى
يخشون منه لدى الفرار ثقلوا
كسرت وان حسينهم ولّى الى
ببزوغ شمس مراحم لن تأفلا
طابت فروعاً حسبها قد اصلا

وما زال الجيش المصري يتقدم في الاناضول
حتى وصل الى كوتاهية واراد ان ينزل بورصة
بحجة ان ليس له في اواسط الاناضول حطب

سقوط الاناضول وتضاؤل
السلطان العثماني امام الجيش
المصري

ومؤنة في الشتاء ، وكانت الطريقى الى الاستانة امامه مهيباً لا يقف فيها ما يوقف سيره ،
واهل الاناضول والاستانة راضون عنه واشاع ابراهيم باشا ان مقصده من غزوته هذه

توطيد دعائم السلطنة . وكانت حاشيته من الاوربيين تحته كل الحث على ان يواصل السير ويفتح الاستانة ، وان لا يقتصر على فتح الشام وعلى ما اخذه من آسيا الصغرى ولو استمع اليهم لقامت الدولة المصرية في القسطنطينية بدلاً من دولة الاتراك ، فاعاد محمد علي بذلك الدولة العربية . قال دي لاجونكبير : ولم يكن لمحمد علي هذا النظر البعيد ، وهذا الطموح ، بل لم يكن يطلب غير الاستقلال والتوسع في الملك . وبقيت هذه المشكلة التي كان يتأقن ان يكون منها عراك بين قوميتين العربية والتركية ، مقصورة في دائرة معينة من الحرب ، لم تعد حد القتال بين ملك واحد وعمله الناشزين عليه .

ولما رأى السلطان محمود ما آلت اليه حاله ، عرته الدهشة وداخله الفزع ، فطلب معاونة الدول العظمى علناً لتعينه على محمد علي ، وحرص خصوصاً على معاونة روسيا التي اصبحت بعد معاهدة ادرنة ترى نفسها حامية الدولة العثمانية ، وليس من مصلحتها ان تكون هذه الدولة قوية مقاومة ، فاخرجت روسيا الى الاستانة اثني عشر الف جندي ، واستدعي فيلق البغدان وهو مؤلف من اربعة وعشرين الف مقاتل لياقي الى الاستانة ، وعقدت معاهدة في كوتاهية على ان تبقى الشام واذنة وجزيرة كريت لمحمد علي و يرحل عن الاناضول على مال معلوم يدفعه كل سنة قيل انه ستون الف كيس وذلك لمدة خمس سنين والسلطان لا يسأل محمد علي غير ذلك ، والخطبة تلى في المساجد باسم السلطان . وعقدت روسيا معاهدة سرية مع الدولة العثمانية مدتها ثمان سنين ، دعيت معاهدة « خنكاراسكله سي » وهي دفاعية هجومية كان القصد منها جعل المضائق في قبضتها فهلعت قلوب اوربا لذلك واخذت انكثرتا تحسب لهذه المعاهدة الف حساب .

ولما انتهت شؤون الفتح جعل ابراهيم باشا مقرة في انطاكية ، فكان يحضر احياناً الى حلب ودمشق وعكا ثم يرجع حتى يرقب عن أم حالة بلاد الاكراد ، وكانت منقضة على الدولة العثمانية اذذاك . وكان ابراهيم باشا يوقع على كتاباته الرسمية (الحاج ابراهيم والي جدة والحبشة وسرعسكر حالاً) وبعد فتوح عكا صار توقيعها هكذا (سرعسكر عربستان) اي قائد جيوش بلاد العرب وفوض محمد علي ولاية دمشق الى شريف باشا نسيب ابراهيم باشا وماليتها الى حنابك البهري وكان هذا من المقربين جداً من محمد

علي ، ثم رأت الحكومة المصرية فصل حلب عن ولاية دمشق (١٨٣٨ م) واقامت والياً عليها اسمعيل بك ابن عم ابراهيم باشا حاكماً مستقلاً ، ورجح مشاققة ان السبب في ذلك الثورات التي حدثت في البلاد والقلاقل التي ذهبت براحة الاهالي والتعدي والحروب التي افنت معظم الرجال لانها كانت كلها محصورة بادارة واحدة وهي دمشق ، ولذلك حصل للحاكم العام عثرات جمة في تنفيذ اوامره في انحاء البلاد للبعد . وعهد لتنظيم مالية حلب لجرمانوس البحري شقيق حنا البحري ، وقيل ان حكومة محمد علي كانت الى الرفق بدمشق اكثر منها في حلب ، لان الحليبين قاوموا ابراهيم باشا بعض المقاومة ، ولم ينزلوا عن القلعة حالاً ، وقال مشاققة : بل دخل بدون معارض فوضع عليهم غرامات حربية وغرمهم مالا لاحتكار بعض الاصناف حتى يستفيد من ذلك اعوانه .

* * *

اعمال ابراهيم باشا } وكان من اول اعمال ابراهيم باشا الجليلة في بلاد الشام
في اصلاح الشام } ترتيب المجالس الملكية والعسكرية ، واقامة مجلس
الشورى وغيرها من النظم الحديثة ، و ترتيب المالية ، فجعل نظاماً لجباية الخراج ومعاملة
الرعايا بالمساواة والعدل لا تفتاوت في طبقاتهم ومذاهبهم ، ولذلك لم يلبث الامراء
والمشايخ وارباب النفوذ ان استنقلوا ظل الدولة المصرية ، وتمنوا رجوع العثمانيين
ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء وينالهم من ذلك مصة الوشل ، مع
ان البلاد رأت في ايام ابراهيم باشا ابطال المصادرات وتقرير حق التملك وتوطد الامن
في ربوعها ، وأُحييت الزراعة والتجارة والصناعة ، وعممت تربية دور الحرير ودود القز
واستخرجت بعض المعادن ولا سيما معدن الفحم الحجري في قرنايل (لبنان) وفرض
على لبنان ٦٧٨٢ كيساً ينقضى الامير ضعفيها ويدخر في خزائنه الخاصة المال الزائد
على المفروض .

واكد كثيرون ان بعمله هذا استعادت اكثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص
وغیرها من اعمال الشام عمرانها القديم . واخرب بعض القلاع التي كان يعتصم فيها
الثائرون احياناً مثل قلاع جبل اللكام وقلعة القدموس ، وقرب العلماء والشعراء ،
ورخص للاجانب في ارسال معتمديهم الى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها قبله فينزل

وكلاؤهم السواحل مثل صيدا وعكا وبيروت وطرابلس . و يقال على الجملة ان الناس حمدوا دولة محمد علي في الشام ولم يتبرموا بها لو لم يقيم ابنه ابراهيم عملاً بايماز ابيه لتجنيد الشبان ولو لم يثقل كاهل الاهلين بالضرائب — واقل الضرائب الشخصية ١٥ قرشاً واعظمها خمسمائة قرش — فان هذا مما نفرت منه بعض القلوب ولا سيما من كان يقع عليهم عبء معظمها مثل اهل حلب واهل دمشق .

فتوق وفتن وحصار } لم تقع حوادث مهمة في السنين الاولى التي قضاها
الفلستينيين لـ ابراهيم } ابراهيم باشا في الشام اللهم الا ما وقع في القدس سنة ١٢٤٩ من فتنه بين المسيحيين قتل فيها خلق كثير وما كان من عصيات النصيرية فانتدب الامير بشير الشهابي لتأديبهم فأرسل عليهم عسكرياً خيم في البهلوية فهرب النصيرية بقضهم وقضيضهم وتركوا مواشيهم وغلالهم وامتعنتهم ففتقها العسكر واحرق لهم خمس عشرة قرية وقطع اشجارها ثم احرق لهم ثلاثين قرية أخرى ثم خمسين أخرى من مطل حمد ودارت مناوشات بين عسكر الامير والنصيرية . وعلل مشاققة هذه الوقائع بان المصريين لما شرعوا بتغيير عوائد العشائر ، وطلبوا زيادة على ما اعتادوا دفعه ، نفرت قلوب الاهالي منهم وصاروا يمتنون رجوع حكم الاتراك وابتدأ الناس ينلقضون عليهم ، واضطر المصريون الى الاستكثار من الجند لحفظ مراكزهم الجديد فعصت عليهم طائفة النصيرية في جبال اللاذقية فأرسل الحاكم عسكرياً لقتالهم من لبنان وحاصبها وراشيا فتوغلوا في تلك الجبال وامتلكوا عدة محال ولعدم العناية واستغفاهم بالخصم آتت الحال الي تراجعهم وقتل كثير من رجالهم وآبوا الى اللاذقية يتعثرون باذيال الخجل الى ان جردت الحكومة على الجبال المذكورة عسكرياً كثيراً وقهرت اهلها .

واوعز ابراهيم باشا الى الامير بشير ان يرسل ولده بالنفي مقاتل الى طرابلس سنة ١٨٣٣ م ١٢٤٩ يجتمع هناك بسليم بك احد قواد المصريين لتأديب العكاريين والحصنيين والصافيتين فذهب وقبض على كثير من العصاة في طرابلس وعكار وكثير من الاعيان وجرت بينهم عدة وقائع . والغالب ان وقائع جبال النصيرية امتدت منها الى

صافيتا وعكار والحصن او امتدت من هذه الى تلك . وفي سنة ١٢٥٠ حدث هياج في حلب ثم في بيروت وانطاكية ، واشتغل ابراهيم باشا بادخال من وقع في يديه من الرجال في سلك الجندية ، فهرب الناس وتشتتوا وتوقفت الاعمال ، وطلب من نابلس انفاذ قانون الجندية فخرج اهلها عن الطاعة وحاصروا ابراهيم باشا في القدس نحو شهرين وكان لبيت ابي غوش بين القدس ويافا يد طولى في هذه الدنة ورئيسها الشيخ قاسم الاحمد حاكم نابلس فلما ضاق الحصار بابراهيم باشا حتى اضطر محمد علي ان يجيء بالذات الى يافا ارسل الى قاسم الاحمد كتاباً يتلطف فيه مصحوباً بمال جسيم ويقول انه لا يأخذ منه عسكرياً ولا مالاً فرضي قاسم الاحمد وفك الحصار وخرج ابراهيم باشا حتى وصل الى يافا فوجد العساكر قد وصلت لنجدته فرجع على عقبه في الحماة واشتغل بالقتل والنهب والسلب فهرب قاسم الاحمد الى الخليل فلحقه ابراهيم باشا بعسكره واشتغل بالنهب والقتل حتى لم يبق ولم يذر ثم دار على الساحل فأدب العصاة من اهله ولم يزل يتبع آثار قاسم الاحمد حتى قبض عليه وقتله في دمشق وقتل اربعة من اولاده بالسيف وامر بجمع السلاح من جميع البلدان .

وفي تاريخ فلسطين ان ابراهيم باشا لما قضى باخذ اموال ورجال من فلسطين ندم اصحاب الاقطاعات على سكوتهم واجتمعوا في قرية بيت وزن (غربي نابلس) وانفقوا على محاربه فنكت جماعة منهم مالوا معه ودلوه على الطريق والمياه فعاجل المخالفين قبل ان ينظموا حركتهم وفتح طريق طول كرم ثم نابلس وعطف على القدس فاحتلها وقد تنهات الاهالي على قتاله من كل جانب فهاجمهم وكسر جمهور القبائل الشمالية عند شعفاط ولكن اهالي الخليل هزموه عندهم برك سليمان وحصروه في القدس فاستعاد نشاطه وقارعهم ثانية وظفر بهم .

| | | |
|---|---|-------------------------|
| لا جرم ان ابراهيم باشا أخطأ في تطبيق قانون | } | خطأ اداري لابراهيم باشا |
| التجنيد في الشام على نحو ما فعل ابوه في مصر | | ووقائمه في اللجاة ووادي |
| وكان عليه ان يقنع والده بالعدول عنه الى حين ، | | التي مع الدروز |

لان صاحب البلاد الاصيل لم يقطع آماله من استرجاعها وهو يسعى بكل ممكن الى

استخلاصها من غاصبها ، وكل ما نثر منه قلوب الرعية يفرح به لانه يخدم مصلحته .
 فمسألة التجنيد قللت من انصار الحكومة المصرية في البلاد لقلة اعتياد الناس الجندية
 في ذاك العصر ، اذ أصبح الناس يعدون التجند من باب القاء النفس في التهلكة ،
 وزال من الافكار معنى الدفاع عن الوطن والذب عن مقصد شريف ، وهذا الروح
 كان قد ضعف في الامة بعد ان حكمها الغرباء قروناً بالعنف والقهر . قال في
 العملة الاسلامية : ان تجنيد الشعب في الشام ادى الى هجرة عدد عظيم من اهلها الى
 آسيا الصغرى والعراق . ووضع اليد على الحيوانات للاعمال العسكرية ، نتج منه
 انحطاط الزراعة والتجارة ، ولئن كان الامن قد استتب في أنحاء البلاد فان الغضب
 العام لم يكن اقل منه : وجاء في تاريخ حماة ان ابراهيم باشا كان يحشر الناس لبناء
 الثكنة العسكرية في حماة ويقبض على كل من يجده في البلد فكانوا يثرون منه الى
 رؤوس الجبال وتارة يختبئون في الانهار وربما قلع الانسان عين نفسه او قطع اصبغه
 ليعفى من الخدمة العسكرية .

ولقد اتفق دروز وادي التيم مع دروز حوران وعرب تلك الجهات وابوا تجنيد
 اولادهم ، فأرسل والي دمشق (١٢٥١) عليهم جنداً فاللقوا به في جنوبي اللجاة في
 وعرة هناك كتبت فيها الهزيمة على المصريين ، ثم أرسل عليهم قائداً اسمه محمد باشا
 فقاتلوه وقتلوه وقتلوا خلقاً كثيراً ، ثم أنفذ ابراهيم باشا احد رجاله شريف باشا الى
 قريه ام الزيتون في وادي اللوى في اربعمائة فارس فقتلهم الشيخ حمدان الدرزي
 عن آخرهم ولم يبق الا على مقدمهم . وذكروا ان سبب هذه الوقائع ان ابراهيم باشا
 طلب ١٨٠ نفرأ للجندية من جبل الدروز الشرقي كما طلب ١٢٠٠ من دروز لبنان
 وأرسلهم الى عكا ، فطلب المشايخ ابدال ذلك بالمال وأوهموه الطاعة فلما عادوا الى
 بلادهم قلبوا له ظهير الحجن ، فتوجه اليهم الجند بقيادة علي اغا البصلي كبير طائفة
 الهوارة والصعايدة ومعه عبد القادر اغا ابو جيب فعقدوا هناك مع كبراء الدروز
 مجلساً للمشاورة في هذا الامر فامتنع الدروز من تسليم الانفار وأرادوا الاستعاضة عن
 الاشخاص بالبدلات العسكرية . فقال البصلي : اني أرسل مراسلة استشير بها افندينا .
 وعلى ذلك قرأ القرار . وفي تلك الليلة كبست الدروز العساكر وأذاقتهم كدوس المنية ،

وقتل ابو جيب وكان المتسلم في حوران وجبل الدروز، ولم يسلم من القتل سوى البصلي وخمسة عشر نفراً ثم جمع الدروز أمتعتهم ودخلوا اللجاة فجاءهم عسكر ابراهيم باشا وقتلوه وهذه هي الواقعة التي قتل فيها الفريق محمد باشا . وقد بلغ عدد المقاتلة من الدروز والعرب عشرة آلاف . وفي مدونات مشايخ الدروز أنفسهم ان المقاتلة منهم لم يتجاوزوا الثمانمائة مقاتل ومعهم مائتان من عرب السلوط أحلافهم . وكانوا يربطون الطرق وينهبون القوافل بين بيروت ودمشق ويقتلون كل من وجدوه منفرداً من العسكر النظامي .

وروى مشاققة ان العسكر المصري الذي أرسل لأول مرة على دروز حوران كانوا ٤٥٠ مقاتلاً من الحوارة قتلوا الا قليلاً ، فأرسل إبراهيم باشا عليهم نحو ستة آلاف من العسكر النظامي مجهزين بالمدافع مع ان الدروز يومئذ لم يكونوا اكثر من ١٦٠٠ مقاتل . ولما عجز شريف باشا والي دمشق عن كبح جماح الدروز جاء ابراهيم باشا من شمالي الشام وكان هناك يرقب حركة الاتراك فساق قوة أخرى ، فرأى الرعب قد دبّ في قلوب عسكره من رهبة الدروز فعمد الى ضربهم من جهة صرخد بفرسان الاكراد . ودارت رحى الحرب بينهم وتهارب الدروز من وجه ابراهيم باشا ورجاله الى ان قادوهم الى سهل دامة ، وهناك رجعوا عليهم واعملوا السيف فيهم وفتكوا بجمعهم ، ولما عرف ابراهيم باشا ان عسكره ذُعر من شجاعة الدروز عمد الى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه فأرسل الى الدكتور كلوت بك يستحضر منه محلولاً قاتلاً فرفض هذا إجابة طلبه وحاول ان يمنعه من استعمال تلك الواسطة لما فيها من القسوة التي تشمل الحريم والاطفال معاً ، اما ابراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة أولاً والرعية ثانياً ، ولما عجز عن اخضاع العصاة الزم علماء الكيمياء بصنع محلول سليمان في القاه في المياه وأعلم الدروز بذلك ، فاضطر الدروز الى ترك المكان بعد ان مات منهم عدد كبير عطشاً وأتوا الى اقليم البلان .

وكان دروز وادي التيم واطليم البلان ينجدون دروز حوران بقيادة شبلي العريان ولما ضاق بهم ذرع ابراهيم باشا استدعى من مصر عسكراً من الارناؤد فأمدّه ابوه باربعة آلاف جندي بقيادة مصطفى باشا وهم الذين حارب الدروز بهم في الوعة

ايضاً فلم يظفروا بهم . وكانت دروز البلاد لنجد دروز حوران سرّاً اولاً ثم أخذت
لنجدهم علناً . اما نصارى لبنان فتجنّدوا اولاً مع العساكر المصرية وحضروا الوقائع
التي حدثت بين المصريين والدروز في حوران ووادي التيم . وتجمع العصاة في قرية
حينة من اقليم البلان ، فأطلق الامير مجيد شهاب الغارة عليهم فانهزموا وقتل منهم
١٥٠ رجلاً وبلغ شبلي الريان ذلك فحضر بعسكره من الوعة وحاصر العسكر
المصري في سراي حاصبيا فقتل من امراء حاصبيا الامير علي ثم أرسل العريان الى
الامير محمود خليل ان يخرج من السراي ولا يشارك العسكر النظامي فخرج بجماعته
اللبنانيين ، واضطربت نار الحرب بين العسكر المصري والعريان ، ففر الجند المصري
منهزمين نحو البقاع فتبعهم العريان بن معه وأعمل في أقيمتهم السلاح فقتل منهم
نحو ثلاثمائة رجل وتشنت الباقون في البقاع فظفر بهم العريان والبقاعيون ، ثم جمع
ابراهيم باشا ما تشنت من عسكره في البقاع وعاد فخيم في قرية عيما قرب راشيا ، فأثنه
الدروز وتحصنوا قبالة في غابة هناك ، وانتشب الحرب بينه وبينهم فلم يظفروا بهم ، ثم
اشتبك الدروز مع عسكر ابراهيم باشا في وادي بكا فهجم عليهم ابراهيم باشا بعسكره
وأطلق عليهم النار وأطبقت العساكر من كل جانب ، فقتلوا من الجندي المصري
وقتل منهم مقتلة عظيمة اضطروا عقيبتها الى الفرار . قيل انه قتل من الدروز في
الوقعة الاولى ٦٢٠ عدا من تأثرهم ابراهيم باشا وقتلهم ، ثم حدثت وقعة في قلعة صخور
وانفرق الدروز ، وطلب العريان الامان من ابراهيم باشا فأجابه اليه وجعله قائداً على
الف فارس هواره . وفي سنة ١٢٥٢ توجه الامير مسعود الشهابي لحرب العرب
العصاة في الصفا فاستسلموا له ومات من عسكره خمسون جندياً دنقاً .

نعم بدأ الاشتمزاز من حكومة محمد علي سنة ١٢٥٠ لما صدر امره الى ابنه ابراهيم
باشا باحتكار أصناف الحرير للحكومة ، وبضرب ضريبة جديدة على الاهالي ، وبتهيز
عدة الايات من سكان الشام ، وزاد الخنق لنزع السلاح من الشاميين ، فابتدأت
الثورة بجوار بحيرة لوط وعلى شواطئ الاردن ، وفي هذه الوقعة التي انتهت بقتل
قاسم الاحمد حاكم نابلس بدمشق ، قتل ابراهيم باشا كثيراً من زعماء الاتراك
من كانوا ساعدوا العصاة عليه ، واخذ الدروز والنصيرية والموارنة يستعدون للثورة

يهيئهم عليها عمال الدولة العثمانية ، و برطانيا تحرض العثمانيين وتعلمهم كيف يسلكون . وقد روى كامل في تاريخه ان ابراهيم باشا فقد من جيشه في السنين التاليتين لامر التجنيد نحو عشرين الفا . ومن انقضى على ابراهيم باشا اهالي الكرك فانه لما فتح بلادهم ونظم ادارتها وجعل لها حامية من جنده ، فلم يمس الا قليل حتى تمرد السكان وذبحوا الحامية والموظفين على بكرة ابيهم ، وقتلوا كتيبة من جنده كانت آية الى مصر ، فأضلوها الطريق وأهلكوها الا قليلاً .

سياسة الاتراك والدول
مع محمد علي
وكانت الدولة العثمانية بمعاونة برطانيا العظمى لا تفتأ منذ دخول المصريين الى الشام تدس الدسائس في البلاد ، وتستميل رؤساء العشائر وارباب الزعامات والاعيان ، بالمال تارة والوعود الخلافة أخرى ، وبعد ان عقد محمد علي مع سلطان العثمانيين العقد الثاني وهو خمس سنين ايضاً ومضى اكثره وأدى المقرر عليه من المال ، ارتأى العثمانيون بايعاز برطانيا ان يستخلصوا الشام وأذنة من محمد علي ، فأرسل السلطان محمود سنة ١٢٥٥ حافظ باشا في سبعين الف مقاتل وفي رواية مئة الف مجهزين بمدفعية مهمة ومعها من كبار طائفة من ضباط روسيا وبروسيا وزحف ابراهيم باشا في اربعين الفا حتى انتهى الجيشان الى سهل نزيب من عمل البيرة على الفرات ، واشتبك القتال بين الجيشين ثماني ساعات ونصفاً فراجع الجيش العثماني بعد ان قتل منه ستة آلاف وقيل اربعة وأسر اثنا عشر الفا ، وغنم المصريون من العثمانيين في هذه الواقعة ١٦٦ مدفعاً و ٢٠ الف بندقية ، وقتل من المصريين اربعة آلاف وقتل المصريون من الاتراك في حال انهزامهم ما يبلغ خمسة أسداسهم .

انتهى خبر الهزيمة الى الاستانة بعد ثمانية ايام من وفاة السلطان محمود الثاني وجلس ابنه السلطان عبد المجيد وهو فتى في السادسة عشرة من عمره . جلس السلطان الجديد وسلطنته مهددة بجيوش محمد علي ، وليس للدولة جيش وقد فقدت اسطولها في لاسكندرية ، سلمه لمحمد علي امير البحر احمد فوزي باشا ، فرأى السلطان ان يسدد ويقارب ، فارادته الدول علي ان يتربص ريثما يتوفق الى حل مرضية

باجماع الآراء بينهم ، فكان من ذلك حل المسألة المصرية العثمانية بالطرق السلمية الحربية ، فانفقت الدول العظمى ما خلا فرنسا ان لا تُجدد معاهدة « خنكار اسكلهسي » بين العثمانية والروسية ، وان السلطان اذا اقتضت له معاونة لسلامة السلطنة تعاونه الدول على ان تبقى المضائق والدردنيل تحت اشرافهم ، وكان محمد علي يتذرع لدى الباب العالي ان تكون مصر والشام واذنة ملكاً وراثياً له ولاولاده من بعده فأرضته الدول بمصر فقط ولم تنفعه معاضدة فرنسا ، وقضي على محمد علي ان يخرج من اذنة والشام في عشرة ايام ، وان لا تبقى له مع مصر سوى باشاوية عكا اي فلسطين من ارض الشام . نقرر ذلك في مؤتمر لندرا (١٨٤٠) بين انكلترا وروسيا وبروسيا والنمسا بيد ان محمد علي ابى ان يخرج من الشام ، فبعثت انكلترا باسطولها الى سواحل هذا القطر بقيادة روبرت ستونفورد فضربت بيروت واستسلمت باقي الثغور كطرابلس وصيدا وصور وقاومت عكا ، وبعد ان اطلقت عليها البوارج الانكليزية قذائفها ثلاث ساعات اصاب مستودع البارود فانفجر وقتل عدداً كثيراً من الرجال ، ثم اضطرت العساكر المصرية الى العودة من طريق البر الذي كانت جاءت منه . وكانت فرنسا مناهضة هذه المرة للدول وهي الى جنب محمد علي تبرر عمله ، وتناصره برأيها ومعاونتها الادبية .

وكان السلطان عبد المجيد (١٢٥٥-١٨٣٩) نشر خلال هذه المدة خط كلخانه او البراءة السلطانية وهي اول قانون اصلاحي في السلطنة العثمانية يقضي باعطاء العناصر العثمانية حقها وحربتها ، ويضع نظاماً لاستيفاء الضرائب على نظام واحد ، ونطبق القانون العسكري وغير ذلك من الامور الادارية ، فصفت اوروبا لقانونه ورجت الارثقاء لمملكته . وكان هذا القانون مما اوحى به بريطانيك واملاء عقلاء الساسة من الاتراك في العاصمة .

اترواط عقد } ولما احس اهل لبنان بواسطة دعاة البريطانيين ان الدول
الحكم المصري } ازمعت اجلاء الجيش المصري عن الشام بالقوة ان لم ينجل
مخبراً ، اخذوا بناوشون الحامية المصرية وقتلوا بعض المسلمين من المصريين ، وكان

الامراء الشهابيون واللمعيون يقوون العامة سرآو يحشونهم على الثبات ، والافرنج يخبرون الناس بانفاق الدول الاربع النمسا وبريطانيا وروسيا وبروسيا مع الدولة العثمانية على استخلاص الشام من محمد علي ، ويحرضونهم على الدولة المصرية ، وان المراكب الحربية قادمة اليهم ، واشتدت الفتنه بين اهل الجبل والامير بشير واخذت البلاد بالخراب المتصل ، وحرقت ابراهيم باشا بعض قرى الجبل وقتل رهباناً وسبي حريمًا .

وكان امير لبنان في ظاهره مع ابراهيم باشا خوفاً منه ، وفي الباطن مع من يضمن له ولايته ، وقبض المصريون على ٥٧ رجلاً من اعيان لبنان بينهم اربعون من امراء الشهابيين كانوا يدعون اهل بلادهم لخلع طاعة المصريين ، فنفاهم ابراهيم باشا الى مصر ومنها الى السودان ، واخذ اعوان امير لبنان ينتقمون من الرعايا بجمع السلاح والخيول وطرح المغارم ، وجاء على الاثر الاسطول العثماني والاوربي في اربعين قطعة صغيرة وكبيرة ، تحمل خمسة آلاف وخمسمائة جندي عثماني والفي جندي اوربي ، فاخذ ابراهيم باشا يجمع شمله في داخلية البلاد ، ويستدعي جنوده من الساحل ، وبحسب تقارير ضباط الانكليز ان المقتول والمجروح والضائع من العسكر المصري لم يكن اقل من عشرين الف جندي .

وخرج ابراهيم باشا من دمشق (١٢٥٦) بعد ان فرق ذخائره ومتاعه على المساجد والجوامع وبهوت الارامل والايتم ، واخذ معه جميع الحبوب والمواشي خارجاً من باب الله ونزل في سهل القدم ، ومنها قصد الى مصر عن طريق البر . وقبل دخوله عن دمشق ارسل خالد باشا التركي من الساحل احمد اغا اليوسف في سرذمة من الجيش فخرج اليه ابراهيم باشا بجند قليل وهزمه شر هزيمة ، فرجع ابراهيم باشا بالغنائم والذخيرة الوافرة ، اما احمد اغا فنزل بعسكره بعيداً عن دمشق في احدي قرى الزبداني ينظر اخلاء ابراهيم باشا المدينة ، ثم خرج ابراهيم باشا صادعاً بالامر الذي جاءه من والده بالجلاء عن الشام فخرج اهل دمشق لوداعه وخطبهم وحرصهم على الاخلاص الى الطاعة والسكينة ، ريثما تعود الحكومة العثمانية ، وعينت الدولة علي باشا الذي كان والياً على الشام يوم دخول ابراهيم باشا ، وكان اشد الاتراك تعصباً ، وبقي قنصل بريطانيا المسترودد الذي اثار الموارنة على ابراهيم باشا مفوضاً من الدولة

التركية بمراقبة اعمال عمالها ، وكان كثيراً ما يشير على الدولة بعزل هذا فتعزله ونصب ذاك فننصبه ، وكان الموظفون العثمانيون معه كموظفين صغار في خدمة أمر مطلق .

اراد محمد علي ان يقاوم دول اوربا ويظل في الشام ، ولكنه علم ببعد نظره ان ذلك متعذر ، وان اسطولاً ضرب بيروت واحرق الاسطول المصري ونزل تسعة آلاف جندي الى سواحل الشام ، وان المواردية بعد ان كانوا عضد ابنه ابراهيم اصبحوا يعاونون الاوربيين على طرده من الشام ، وتقدم ايرالجر بابيه امام الاسكندرية واخذ من محمد علي معاهدة لم يترك له بها سوى مصر ، وانه من مقتضى معاهدة الدولة العثمانية مع الدول ترك الحق لبريطانيا بالاتفاق مع النمسا في محاصرة فرض الشام . ومساعدة كل من اراد خلع طاعة المصريين ، والرجوع الى الدولة العلية ، وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لاشغال الجيوش المصرية في الداخل ، كي لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والبريطانية ، وان يكون لمراكب روسيا والنمسا وبريطانيا معاً حق الدخول في البوسفور لوقاية القسطنطينية متى تقدمت الجيوش المصرية نحوها .

فضل حكم محمد علي } كانت حسنات محمد علي في الشام اكثر من سيئاتها ، لانها
وضعت اصول الادارة والجبائية ورفعت ايدي ارباب الاقطاعات
واعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ، ولم يخلص من ذلك الا الامير
بشير الشهابي والي لبنان ، فانه نال ولايته مباشرة من محمد علي في مصر ، وظل يتصرف
بلبنان ، وبذلك رفعت سلطة المشايخ والامراء المستبدين . قال مشافقة : وكانت
الدولة التركية خبيرة باحوال الشعب اكثر من الدولة المصرية فبعثت تدس الدسائس
الى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة . ثم
بارجاع نفوذهم وكان النصيرية اول من شق عصا الطاعة وتبعهم الدروز في حوران
ووادي التيمر فقضى المصريون معظم ايام دولتهم في الشام بالحروب والقتال .
ومن آثار الحكومة المصرية التي عددها مشافقة تخفيفها المستنقعات وتصريف

الافذار في مجار خاصة وتحديد اسعار المحوم ، والعدل بين الرعايا على اختلاف اديانهم وطبقاتهم ، لا تكلف صاحب الحق نفقة لتحويل حقوقه وانفاق كل مال سيفه وجهه المخصص له ، ومع ذلك ظل الشعب يسومها العداوة و يناقشها الحساب ، لانه اعتاد ان يكون محكوماً لا حاكماً نفسه ، عبداً لا حراً . واكد ان البريطانيين استخدموا رجلاً من رجالهم السياسيين اسمه المستر ودد بجاء كسروان بدعوى انه يريد تعلم اللغة العربية واخذ يبت الدسائس حتى اعلن الكسروانيون العصيان وقاتلوا جيشاً من جيوش ابراهيم باشا وجيوش الامير بشير فدام القتال اياماً وتغلب العصاة على جند ابراهيم باشا مراراً وهي المرة الاولى التي ذاق بها ابراهيم باشا طعم الانكسار .

ومدح مشاققة الامير بشيراً الشهابي الذي كان عضداً قوياً لاراهيم باشا ، وقد تولى حكومة الجبل من سنة ١٧٨٥ الى سنة ١٨٤٠ وأرسلته الدولة لما استولت على الساحل الى مالطة وبقي منفيًا فيها زمناً ولم يستطع ان يعود الى امارته . وقال : انه كان شجاعاً مقداماً ، وفائداً محنكاً ، وسياسياً داهية ، خدم الجزائر بكل امانة ونشاط ، وخدم خلفه وحفيده مثله ، وخدم الدولة التركية والدولة المصرية ، وكان يعطي لكل خدمة ودولة حقوقها ، وكان صادقاً اذا وعد اميناً على واجبه ، ولكنه لم يخدم لبنان خدمة تذكر . وانتقد مشاققة على حكومة محمد علي نقاعسها عن اسهار استقلالها عن الدولة التركية ، مع انه كان من اسهل الامور بعد ان اكتسحت البلاد ، فلو نادى محمد علي بنفسه ملكاً مستقلاً وأرسل سفراء الى عواصم الدول الاجنبية وعقد معها المعاهدات الدوائية لاعترفت له بالملك على الرغم من مقاومة دولة بني عثمان ، ولو طلب منها الاعتراف بملكه واستقلاله عن الدولة التركية عقيب حادثة قونية ، لاجبرتها على الاعتراف بسيادته لانه استحال عليها اخراج جنوده من الشام ، او صد هجمات ابراهيم باشا وتقدمه الى قلب عاصمتها ، ولو فعل لكانت المملكة العثمانية عربية اليوم او لكانت على الاقل اُضيفت الشام الى مصر وأصبح حظ القطرين واحداً . ولم يظهر سر امتناع محمد علي من الاقدام على هذا الامر الخطير ولو فعل لغير حالة هذا الشرق القريب لا محالة .

رأي الغرباء في حكومة محمد علي

اثبتت حكومة محمد علي في فتوحها ان المصريين بل العربي اذا تهيأ له زعيم عاقل لا يقل عن الغربين في سيرته وجلادته ، وانه لم يضره في القرون الماضية الا فناؤه في الحكومة التركية ، بدعوى ان الاسلام لا يفرق بين الاجناس والعربي والتركي أخوان وان الظلم اذا جاء من مسلم كان مقبولا ! . وكانت حكومة محمد علي من أفضل ما رأت الشام من الحكومات منذ ثلاثة او اربعة قرون ، بل ان الشام في القرون الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلاً عما يمانها . كتب المستر برانت فنصل بريطانيا في دمشق الى سفير دولته في الاستانة سنة ١٨٥٨ م ما تعريبه : لما كانت الالة تحت حكم محمد علي باشا عاد كثير الى سكنى المدن والقرى المهجورة ، والى حراثة الاراضي المهيمة ، وهذا ما حدث خاصة في حوران وفي الارحاء الواقعة حوالى حمص وفي كل الجهات الواقعة على حدود البادية وفي هذه الاماكن أكره العرب على احترام ساطة الحكومة ، وجعل السكان بآمن من اعتداءاتهم . وكان الشام باسره تحت ادارة شريف باشا وقيادة الجيش الذي يبلغ عدده زهاء ٤٠ الف جندي من منظم وغير منظم بامر ابراهيم باشا ، فبحسن ادارة الاول تضاعف نجاح الاهلين وحسنت المالية في هذه النواحي ، كما ان نشاط ابراهيم وحزمه وطد الامن ومد رواق الثقة ، وقد عدت الحكومة ظالمة اكبتها في الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك ، اذ كان عليها ان تصلح عدة امور مخنلة ، وان تبدل الفوضى والتعصب والقلق التي كانت سائدة بالعدل .

« فأصحاب المقامات العالية والافندية والاغوات امتعضوا كثيراً من ذلك لانهم كانوا يثرون من ابتزاز اصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة . وقد سر هؤلاء كثيراً لخلاصهم من الظلم الذي أنوا تحت عبئه طويلاً ، واغضب المسيحيون خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذي أوصلهم الى درجة من الذل لا تطاق . ولو لم يكن الفلاحون أقل سروراً منهم لانه وان كانت الضرائب المقررة تستوفي بكل شدة فلم يكن يستوفي منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغالاهم ولا يؤخذ منهم شيء دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل ، وقد فرضت الخدمة

العسكرية على المسلمين وهذا الامر الجديد كان ينبوع استياء عظيم . أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فأعفوا من الخدمة العسكرية والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة أسلفوا مالا لاصلاح بيوتهم وتموينها وأعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين .

« وقصارى القول ان جميع هذه المساعدات بذلت لزيادة الحاصلات وكم من مرة ذهبت الجنود بامر ابراهيم باشا لانتلاف بهوض الجراد وما نقف منها وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تترقى في مدارج النجاح والنماء ، فلو طال عليها الحكم المصري لاستعادت الشام قسماً عظيماً من وفرة سكانها القدماء ، وأصابت شطراً كبيراً من الثروة التي كانت في الماضي وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان في القرى والمدن العديدة في جهات حوران . وفيما وجد في البادية حيث ترى فيها الطرق التي اختطها الرومانيون .

قال : « ولم يكدم المصريون يطردون من البلاد وينقلص ظل سطوتهم --- وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد حتى عاد القوم الى نبذ الطاعة وخلفت الرشوة والتبذير في ادارة المالية النزاهة والاقتصاد ومنيت المداخليل بالنقص ، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان فحلت القرى والمزارع المأهولة جديداً بالندريج حتى أمكن القول انه لا يوجد شئ ظل للأمن على الحياة والاملاك وكل شيء يدل على عودة حالة الفوضى الى هذه البلاد التي تركها المصريون » .

هذه أجمل صفحة في وصف حكم محمد علي في الشام كتبها انكليزي . وقال برنيه لافرنسي في كتابه الشام على عهد حكومة محمد علي ما تعريبه : « ما من بلدة نالت ما نالته الشام من العمران والمجد في كل مظير من مظاهر الحياة ، وليس مثلبا في البلاد قضت الشقاء من ثقلبات الزمان ، وسقي أديمها بالدماء ، فان خصبها المدهش وجمال اقليمها وتنوعه ، ومركزها المهم الذي يقرب اليه جميع الاجزاء القديمة التجارية من الارض ، كان يجعل منها في القديم النقطة المتوسطة للعلوم والتجارة في العالم ، ولكن هذا المركز وهذه المنافع قد نهبت أطماع الفاتحين وجلبت غير مرة على الشام ويلات الحروب . » وكانت الشام على عهد الاتراك العثمانيين مقسمة الى اربع إيالات حلب وطرابلس

وعكا ودمشق ، وقبل مجيء ابراهيم باشا الى الشام كانت حكومة هذه البلاد من الممالك العثمانية التي تعب السلطنة فلا يمكن حصر السلطة في يد واحدة لان معنى ذلك تسليم سلطة كبرى لرجل واحد وجعله بحيث يستطيع العصيان ، وكثيراً ما كانت السلطان سلطاناً بالاسم مع ان الشام كانت مقسمة الى اربع ايات كما حدث في زمن عبد الله باشا وغيره ممن شقوا عصا الطاعة وكثيراً ما كان الباشوات 'يشنقون' كما حدث في حلب على جدران قصر الشيخ يابران ولطالما شنقت عليه باشاوات بيد الاهالي كما أحرقوا باشا دمشق .

« وكان الدم يجري لأقل شبهة والعذاب الاليم يحل فيُشنق الباشاوات وتستل أرواحهم من أسفلهم ويحملون العصاة على الحديد ويحزون الرؤوس وبذلك كانت يتمكن الباشاوات من توطيد سلطانهم على الرعايا والا أصبحوا عرضة للحرق والشنق . قال : ومن المحقق انه ليس الا طريقة الارهاب والقوة التي تؤثر الاثر المطلوب في شعوب الشام وتردهم الى الطاعة وقد عرف ابراهيم باشا كيف يؤثر في الشاميين وذلك بان استمال اليه قلوب أشرفهم وأعيانهم والقي بينهم الشقاق ضمناً عند الاقتضاء وبذلك تيسر له حكم البلاد ووضع خرائب شديدة عليها ما كان القوم يتحملونها ولم يكونوا من عناصر وأديان مخنماة وكن شريف باشا حاكماً على الشام كله وتحت يده الحكام وكان طماعاً في المال اه » .

حكمتنا على انفسنا } هذا هو الانصاف في الحكم على حكومة ابراهيم باشا
وعلى غيرنا } وما هي في الحقيقة الا روح محمد علي الكبير التي كان يستمد منه ابنه ، ولا يصدر الا عنه في الخطوب ولا يتقطع امراً دون الرجوع الى رأيه ، حتى جاءت احكام المصر بين نموذجاً في الادارة ، ولو ارادت الدولة العثمانية ان تستفيد من هذا الدرس لارادت عمالها على تطبيق خطط ابراهيم باشا في الاصلاحات التي قام بها خلال التسع السنين التي قضاها في هذا القطر ، ولكن العثمانيين ابتلوا بالاهمال والغرور ، لا يعمدون الى حسن الادارة ويتظاهرون بالاحسان الا يوم الشدائد ، فاذا زالت عادوا الى طبائعهم في إعنات الرعية والقاء الحبل على الغارب ونسوا ما اعطوا

من عهود وما وضعوا من القوانين . وهذا مادعا الى ظهور الفروق الكثيرة بين الادارتين المصرية والعثمانية بعد رحيل جيش ابراهيم باشا عن هذه الديار ، وهو الجلاء الذي اقتضته الدول الكبرى بل الدولة البريطانية التي حملت الدول على موافقتها على رأيها لآمال لها تريد تحقيقها في مصر والشام ، لتكون هي الحاكمة المحكمة في مصالحها لا الدولة المصرية الفتية التي تحب فرنسا وتساهمها سياستها احيانا . وما مصر والشام الا طريق الهند الاقرب بل مفتاحها من البحر المتوسط واذا اردنا ان ننظر بعين المؤرخ المنصف نرى بريطانيا العظمى هي التي اقتضت سياستها القضاء على امانى محمد علي بل امانى العرب من انشاء دولة عربية كما اوجبت سياستها قبل ثلاثين سنة ان تدعو الدولة العثمانية الى حرب الوهابيين في نجد والحجاز حرباً عواناً لانه كان يخشى ان يؤسسوا ايضاً دولة عربية جديدة ربما كانت عثرة في سبيل امانى تلك الحكومة في شبه جزيرة العرب . ولو نظرنا الى ما وقع لابراهيم باشا في الشام لاول الفتح ، لم نره الا قتالاً مع العثمانيين اي قتال الجيش المصري مع الجيش العثماني ، واذا كان في الجيش الذي دافع عن عكا او عن دمشق او يوم حمص مثلاً اناس من الاكراد والحوارة فهؤلاء ليسوا من ابناء البلاد وهم مستأجرون يحاربون مع كل من يعولهم ويرزقهم ، على نحو ما وقع لابراهيم باشا من هذه الفئة أسرهم من صفوف الدولة ثم حولهم الى صفوفه فاخذوا يقاتلون معه ، ولم يلتو القصد على ابراهيم باشا الا لما دخلت اصابع الاجانب واخذوا يشيرون عربان نابلس وسكان كسروان وجبال النصيرية ودروز لبنان ووادي التيمر وجبل حوران وكل من عرفوا بالمضاء من سكان الجبال ، واما المدن والسواد الاعظم من الناس فقد استقبلوه واخلصوا له وشعروا بحسن ادارته ولا سيما المسيحيون والاسرائيليون وكلهم ادر كوا الفرق بين حكومته وحكومة الترك .

وقد قال السيد محمد نسيب بن حمزة من علماء دمشق وساداتها قصيدة يقرظ بها محمد علي الكبير وابنه ابراهيم باشا ويذكر وقائعه بها ننقل منها ما يدل على مبلغ اعجاب القوم بصاحب مصر والشام :

بينماك يمين الوعايا وحبذا ويسراك يسر للبرايا وحسبما
جمعت شتات المجد في كفك التي تعودت الحسنى وحازت تقدما

ففي ظهرها للحاسدين مقبل
فسبحان من أعطاك عزاً مؤبداً
وسماك باسمي مصطفىا وحيدر
وأهداك رداء النصر شبلاً مظفراً
وقام بامر الله في فتح بيته
وحطت ركاباه الى المورة التي
فلاحت صعود الفتح عند قدومه
ومذ بزغت في الشام أقمار سعيده
وفي الحفظ جد السير منها مجيلاً
فأوردتهم كأس المنون بهيمة
وعاجلهم يقفون منازل ظعنهم
ومن بعدها جرت الخميس مقابلاً
فلما رأوا ان لا تنال لأمهم
تبادر ربط الصلح صاحب رأيهم
على ان حكم العرب تحت لواء من
وقد ألحقت بالعرب آونة التي
وعاد ابو الفرسان تزهو بنوده
وعن له من حمص اذ كثر راجعاً
ومن يك ذا مجد فتلك فعالة
أيا كعبية الراجين فاقبل هدية
وقال نسيب أرخوا بمدائحني
(١٢٤١)

وفي بطنها ما بيننا الارض والسماء
تصول به بين الخلائق قدر ما
فحزت بهذا حمداً وفزت بهذا سما
به دُم قرير العين دهرأ مسلماً
فسير نار الحرب فيهم وأضرما
عصت قبل سبعا لا ثنيل الميما
وقد عقدوا صلحاً وعاد مكرما
تباشرت الأهلون والعدل نجما
الى العسكر الجرار عند حمي حما
يرى دونها رأس الشوامخ منسما
الى ان اتى بيلان وانقض قشما
بقونية الصدر الوزير الذي سما
وان كلما شادوا بناء تهديما
وساد ولما عاين الامر مبرما
له صولة الأقيال والله سلما
تجاوزهم والجار بالجار أكرما
الى الشام في تاج الفخار معما
الى الساحل المعمور كيما يهنديما
ومن لا فدعه في الفلاة مهوماً
من العاجز المقلال ان يتسكماً
وجودك في أفق السما كين خيما

ولقد تجلّى في وقائع محمد علي في الشام تجلياً لا مجال للريب فيه ، ان اختلاف
المذاهب وتباين التربية ، كان من العوامل القوية في لقاء الفئنة بين ابناء هذا الوطن
وان دول اوربا عند اغراضها تستعمل بث بذور الشقاق بين المتآلفين وتستخدم وسائل

غربية في تكدير صفاء الآمنين ، وتعبث بعقول السذج المساكين ، وانها قلما اهتمت لمصلحة أمة من امم الشرق ، بل تهمها . مصلحتها فقط ، ولو كانت تريد الخير للشام لتركته يسعد ويرقى بحكم محمد علي الذي كان باقرار رجالها من ارقى ما عهدته البلاد منذ قرون ، ولعل ابناء الشام ايقنوا بخطأهم في الانقراض على الحكومة المصرية التي هي مثابهم عنصراً ولغة وعادات انهم كانوا على ضلال في الحنين الى حكم العثمانيين ، وما كان من حقهم ان ينسوا في سنين قليلة كيف كان حكامهم يسارعون في الاثم والعدوان . وكان على الشاميين منذ عهد المصريين ان يدركوا ان الدولة دب فيها ديب الفساد وان من الفساد رياضة الهرم وان الهرم اذا نزل في الدول لا يرتفع .



العهد العثماني

من سنة ١٢٥٦ الى ١٢٧٧

« من خروج المصر بين الى مذايح لبنان ودمشق »

رجوع الشام الى سالف
بؤسها على العهد العثماني
وفتن الدروز والنصارى
اشبه الشام بعد الحكومة المصرية حال من كان
في محنة مستديمة وشظف عيش ، ثم حسنت
حالته بان 'علم النظام والسكون ، وتمع بيمض
الراحة ، وغذي بالاطايب ، فتغيرت طبيعته وتبدلت نفيسته ، وبجأولة ارجاعه الى
سابق مألوفه ، 'عب من يحاول ذلك جانباً عليه . وما كان يحلم اولاً بان يستمتع بغير ما
كان له ، و يرجوعه سيرته الاولى تجلى له الفرق وثغص عيشه .

تبين الفرق بين الادارتين المصرية والعثمانية ولو طال عهد المصر بين اكثر —
وكانوا في صدد الفتح يتتوفون بادرة العثمانيين كل حين — لسعدت البلاد حقيقة
وايقن حتى من كانوا ينهمون من دماء الامة على العهد العثماني ان طريقة المصر بين في
المساواة بين الطبقات والمذاهب المختلفة ، والشدة في انفاذ القوانين وتقليد الغرب في
كل امر جوهري افضل طريقة لراحة البلاد وكان يرجى ان يألفوا في مدة قصيرة ما
تأصل في فطرتهم على توالي القرون وتعودوه من حكم ارباب الاقطاعات الذين صدم
المصريون عن تجارتهم الشائنة التي افوها زمن العثمانيين ، وهي الاتجار بالجباية يجبونها
اضعافاً ، ويسلبون الباقي من دم الامة بمرأى من الحكومة ومسمع
وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف اذا الرعاة لها ذئاب

لم تكذب تخلي الجنود المصرية بلاد الشام حتى رجعت الى حالتها قبل المصريين وثارَت العداوات القديمة في الصدور ، وزادت الدسائس الاجنبية ، واخذت فرنسا تساعد الموارنة وبريطانيا تعاون الدروز ، فتعدى هؤلاء على الموارنة في سنة ١٢٥٧ ودخلوا دير القمر وارتكبوا فيه الفظائع المنكرة وزحف الدروز (١٢٥٧) على زحلة بثمانية آلاف ، وانتشب القتال بينهم وبين اهل زحلة ، ومعهم اهل بعلبك فانهمزم الدروز شر هزيمة ولولا تدخل الجيوش بشدة لامتدت الثورة وانجلت حادثة دير القمر عن مائة وتسعة قتلى من المسيحيين ، وعدد كبير من الدروز قدره مشاققة باكثر من خمسمائة لانهم كانوا مهاجمين قال : ولما ظهر للنصارى غدر مشايخ الدروز بهم في هذه الحادثة نفرأ منهم نفوراً تاماً ، وطلبوا من الوزير حاكماً عليهم ورفع سلطة المشايخ عنهم فاجابهم الى ذلك ، لان هذا ما كان يرغب فيه ، ولولاه لما كان الاتراك يخنمون العروض طعماً على امراء الجبل ويحضون اهلهم على الفتن .

عاملت الدولة العثمانية بعد عودتها الى البلاد كل من ساعدها على مقاصدها وخدمها او تظاهر بخدمتها وتجنس لها زمن الحكومة المصرية المعاملة التي ترضيه ، فرجع ارباب النفوذ والاقطاعات الى سالف مجدهم ، المبني على تقطيع اوصال الشعب والتغذي بلحمه . واقامت بدلاً من الامير بشير الشهابي الامير بشير قاسم الشهابي حاكماً على لبنان . وكان دون سلفه ادارة ومعرفة ، واقصت الامراء الشهابيين عن حاصبيا حاضرة وادي التيم ، واقامت شبلي العريان متسلماً لها لانه خدم الاتراك في حرب المصريين فاخذ ينزع من المسيحيين سلاحهم ويقدم للدروز باروداً وذخائر ، وكان يرى سلب القرى المسيحية واحراقها من عوامل الخدمة لطائفته ودواته ونبي ما قيل « من اكل مرقعة السلطان ، احترقت شفتاه ولو بعد حين »

ولم يكن من مصلحة الدولة ان تسود الألفة بين الطوائف ، وان يتعامل اهل الوطن الواحد بالحسنى ، فكان اكثر رجالها يوقدون جذوة التعصب الديني ويساعدون الدروز على المسيحيين في لبنان ، حتى يتيسر للدولة ان تنزع الحكم من ارباب الاقطاعات ونقيم له والياً كما لطرابلس وصيدا والقدس وحلب ودمشق ، ولذلك كثرت الفتن والمناوشات بل الاحن والحن بين المسيحيين والدروز ، فقد اثار الامير قاسم الشهابي الدروز

على المواردنة (١٨٤١م) فارتكبوا فيهم القتل والنهب فتدخلت الدولة وعزلت الامير قاسماً الشهابي لتقيم مكانه والياً عثمانياً فنصبت عمر باشا النمساوي ثم عزلته ، وجعل الجبل قائم مقاميتين الاولى نصرانية والثانية درزية فلم ترتض الطائفتان ذلك ، وأصبحت الاولى بيد فرنسا والثانية بيد انكلترا واختل الأمن في أرجاء الشام لان الدولة حاولت ان تنزع السلاح من فئة او أهل ناحية وتبقيه في ايدي آخرين ، فكتب قنصل انكلترا في دمشق سنة ١٨٤١م (١٢٥٧ هـ) الى نجيب باشا كتاباً قال له فيه : « فاذا كانت الحكومة ترغب حقيقة في استئباب الأمن ففي وسعها ان تبدأ باظهار حسن نيتها فتمنع تخريب القرى وتدمير اماكن العبادة الكائنة على بضع خطوات من دمشق . ان نزع السلاح من يد السوريين عامة امر مرغوب فيه لو تسنى انما . دون التخوف من حدوث ثورة عامة ، بيد انا رأينا هذه الوسيلة مقصورة على مسيحيي لبنان الغربي ولبنان الشرقي على حين سمح لساير اتباع السلطنة بحفظ أسلحتهم ، ومع ذلك لا ينبغي ان يغرب عن البال ان الباب العالي اعترف بصدق رعاياه المسيحيين وأمانتهم في هذه النواحي اذ لجأ اليهم قبل الجميع فوزع عليهم أسلحة الطرد عدو الطرفين (يريد ابراهيم باشا المصري) كما ان احتلال جنود حضرة السلطان الآن للشام هو نتيجة مساعدة اللبنانيين » .

قبض عمر باشا النمساوي (١٨٤٢) على زعماء الدروز فاجتمع اتباعهم وهجموا على سراي بيت الدين وكان هناك فتهددهم ، وحضر تبلي العريان بجنده المنظم واجتمع في الطريق بفرقة من الارناؤد قادمة الى عمر باشا ليرسلها لتأديب الدروز فوقع بين الفريقين موقعة فهزمهم جند عمر باشا في أقل من ساعة .

فتن أهلية في الجبال | وظلت تغلي سراجل الأحقاد في لبنان والحكومة
والمدن | تجهل او تتجاهل السبيل لقطع شأفة الفتن من الجبل
وغيره من الأصقاع الشامية وقد عينت سنة ١٢٦٠ هـ رجلاً اسمه علي بك لجباية
الأموال الاميرية من جبل النصيرية ومطاردة بعض الاشقياء فلما بلغ ناحية البهلوية
طلب مقدمي الكليية ورؤساءهم فارسلوا اليه رجلين وهما اسماعيل عثمان وحيب

مخلوف فارساها في الحال الى اللاذقية مقيدين وأخذ في تعذيبهما ، وانتهى الخبر الى الجبل فتجمع نحو خمسمائة رجل من أهله ومضوا الى اللاذقية وهاجموا دار الحكومة ثم كسروا السجن . وأخذوا السجينين ومن معها من المأمورين ، فصدر الامر بان تجهز المساكن التي معه مع جميع الاهالي النازلين بين انطاكية وصافيتا ، وعسكر الجيش في الفرداحة ، فأرسل النصيرية بعض نسايتهم الى القائد علي بك يحملن اعلام الامان ويطلبن العفو ، وان يضمن لمن سلامة الانفس والأموال والعيال ، فأبى الا إنزال العقوبة بالثائرين ، وكان عددهم نحو ستمائة وعدد العسكر النظامي والمقاتلة من الاهلين نحو عشرين ألفاً وقيل ثلاثين ألفاً ، وكان في قرية المران شيخ من أهل الدين والصلاح يعتمد العلويون عليه وكان يعرف علم الفلك فأخذ الطالع وقال لهم : انه لن يفقد منهم الا رجل يصاب برجله ولا يموت وسألوه عن موعد الهجوم فقال : غداً الظهر فنزلت الطمأنينة على قلوب الثائرين خصوصاً وقد وعدهم انهم لا يصابون بأذى ، ولما حان وقت الظهر تجتمع الثائرون وانقسموا ثلاث فرق وهاجموا العسكر ، ولم تلبث ان دارت الدائرة على الجيش وقتل علي بك وقتل من عسكره على ما قيل نحو ألفي رجل وغنم النصيرية جميع الذخائر فأرسلت الحكومة على الثائرين وفداً يدعوهم الى الطاعة بصورة لطيفة ويضمن لهم سلامتهم فأطاعوا وسلموا الذخائر بأسرها الى الحكومة على ما جاء من مصدر علوي .

وفي سنة ١٢٦١ (١٨٤٥) قام الدروز ثانية في لبنان وقتلوا المسيحيين واستمرت الفتن الى سنة ١٢٧٧ (١٨٦٠) . وفي سنة ١٨٤٥ أرسل والي دمشق الى دروز حاصبيا يحضهم على رواية مشاقة على قتل النصاري ويمدهم بالسلاح والذخيرة ، وأوعز الى دروز حوران ان يقدموا لمساعدتهم ، وسأل مثل ذلك سلمي البقاع فيهرب نصاري حاصبيا قبل الايقاع بهم فاقض عليهم الدروز في جهات راشيا وفتكوا بمعظمهم وتشتتوا في تلك الارحاء ومنهم من سلم فجاء زحلة ومنهم من عاد الى حاصبيا ومنهم من قتل ، وعينت الحكومة احد امراء الشهابيين حاكماً على حاصبيا لكنها لم تسمح له بمعاينة المعتدين وزعماء هذه الفتن .

وفي غرة المحرم سنة ١٢٦٧ وقعت فتنة مجلب سرت الى حي باب النيرب وهي

قراق و بانقوسا فنهبت احياء النصارى وأحرقت ثلاث كنائس وقتل نحو خمسة عشر مسيحياً ودام النهب ثلاثة أيام ، ثم قام الاهالي على الوالي وطلبوا منه رفع « الفردة والنظام » فامتنع من ذلك فضر به الاوباش ، ثم انكسر سكان الحارات وانتشر الحريق في الاحياء المذكورة والنهب والقتل فقتل من الملبين نحو خمسمائة رجل كلهم من الرعايا ومن العسكر نحو ذلك وقبض على مثل هذا المقدار من الناس ، ثم بحثوا عن أمتعة المسيحيين المسلوحة فأرجع اليهم غالب ما نهب منهم .

وفي هذه السنة عصى الامير محمد الحرفوش امير بعلبك وجمع عسكراً من بلاد بعلبك ووادي العجم ، فأرسلت عليه الدولة قوة بقيادة مصطفى باشا فانهمزم أمامه الى قرية معلولا في جبل قلمون وتحصن بها مع اخوته وأولاد عمه فحصرهم الجنود الى ان دخلوا عليهم بدلالة أهل القرية ، فأخذ الامير محمد وأسر . وطوّق القائد العثماني بعلبك بثلاثة آلاف جندي فاستسلم امرأوها فقيض عليهم وأرسلهم الى دمشق فنموا الى كريت ، وقضي بذلك على عامل من عوامل حكومة الاقطاعات .

وفي نكبات الشام ان الحروب الأهلية التي حدثت في دير القمر وزحلة وغيرهما من انحاء البلاد سنة ١٨٤٨ (١٢٦٥) انتهت بقتل ثلاثة آلاف رجل من النصارى قتلوا في لبنان والبقاع وبعضهم في المدن ونحو اربعمائة رجل من الدروز ، ولولا محاربة الدروز المسيحيين بالخيانة ومساعدة الحكومة لهم في كل مكان على نزع السلاح اكثر عدد القتلى وزاد على هذا القدر ، واما الخسائر المالية فلم تقدر في ذلك الحين .

وفي سنة ١٢٦٨ (١٨٥١) امتنع دروز حوران عن دفع الخراج فندبت الحكومة لاختصاصهم والي دمشق محمد باشا القبرصي بفرقة من الجند فوقعت بينه وبينهم معركة دامت بضع ساعات فانهمزم والي دمشق ووضع الدروز أيديهم على مهات الجند والمدافع ثم توسط قنصل بريطانيا فأرجع الدروز مسلوبات العسكر ، وتعرف هذه الواقعة بوقعة صاري عسكر (مر عسكر) انتهت سنة ١٢٦٩ .

وفي سنة ١٢٦٨ حدثت في القدس امور تألف منها الاسباب لنشوب الحرب العظمى

حرب القريم منشأوها في الشام وكواثن درزية ونصيرية

بين الدولة العثمانية وروسيا وهي الحرب المعروفة بحرب القريم (١٢٧٠) وذلك لاختلافات قديمة بين الروم واللاتين بسبب كنيسة القيامة وبعض الاماكن المقدسة فكانت كل من الطائفتين تدعي حق الرياسة والتقدم على الاخرى باستلام مفاتيحها ، واذ كانت روسيا قد جعلت الشرق مطمح انظارها وقامت تطالب بحماية الروم الارثوذكس ابناء مذهبها كما كان لفرنسا حق المطالبة بحماية موارنة لبنان ونصارى الشرق من الكاثوليك منذ منتصف القرن الثامن عشر ، حاولت الدولة ان تغفل عن مطالبة قيصر روسيا ، فاتخذ من ذلك حجة وقام يريدا نفاذ وصية بطرس الاكبر القاضية بافتتاح الارض العثمانية والاستيلاء على الاستانة .

فهم الاسطول الروسي في البحر الاسود على الاسطول العثماني وحطمه ، فنشبت الحرب بين الروس والعثمانيين فانصر الروس وكادوا يبلغون الاستانة ، فارسلت انكترا وفرنسا جيشاً واساطيل الى ارجاء البحر الاسود ، وقاتلت الروس وانتصروا عليهم في سواستبول — وكذلك بعثت ساردينيا فرقاً من الجند الايطالي ولم يكن قد انظم عقد الوحدة الايطالية — وقد دفع الدول الى ذلك امر غير حب المحافظة على الدولة العثمانية وهو الخوف من خروج روسيا الى البحر المتوسط وبخروجها خطر على اوربا بل خطر على بريطانيا العظمى وطريق هندها ، وبعد حرب ثلاث سنين (١٨٥٦) ظفرت الدولة مع الدول بالروس ودفعت بريطانيا نفقات الحرب ، وحصلت الدولة الروسية على مطالبيها وامتيازاتها ، ومن شروط المعاهدة ضمان استقلال المملكة العثمانية وسلامتها ، والحظر على اية دولة ان تدخل في شؤون تركيا الداخلية ومساواة المسيحيين مع المسلمين في الحقوق . ولما رأى رجال الدولة ان الطريقة البالية القديمة في ادارة الملك العثماني تودي بها للاحالة اقنعوا السلطان بنشر الخط الهمايوني وبه قبلت الدولة (١٨٥٦) في عداد الدول الاوربية . فكان هذا العامل النافع من نتائج حرب القريم فبان للدولة وجه خطأها في اعتزالها عن السياسة الدولية .

وفي سنة ١٢٧٣ وقعت فتنة بين الدروز والحوارنة في اللجاة فاز فيها الدروز وتعرف بوقعة امسيكي . وفي سنة ١٢٧٥ (١٨٥٨) قبرت الدولة بلاد النصيرية بقهر زعيمهم اسمعيل هوش وجردتهم من كل رعاية وخصوصية ، والسبب في هذه

الفننة ان طائفة الكليبة عصت اوامر الحكومة فارسلت هذه خمسمائة فارس وضربوا قري الساحل ، واتصلت الاخبار بالنصيرية فهاجموا الجند فقتلوا منهم اثني عشر جندياً فجهزت الحكومة بعد ايام عسكرياً عظيماً وهاجمت الطائفة وجعلت قوة لها في الساحل وزحف العلويون (النصيرية) ولم يلبثوا ان احاطت بهم العساكر من كل جهة فدافع العلويون حتى فقدوا خمسة وعشرين رجلاً وفي اليوم التالي اتهم القتال ودامت المناوشات والمقاومات اربع سنين حتى ارسلت الدولة عسكرياً جراراً ، وندبت كامل باشا لاجراء الصلح بين الدولة والعلويين فتم ذلك على يده .

* * *

| | | |
|---|---|---|
| استطال المسيحيون بعد حرب القرم في هذه الديار ولا سيما في لبنان ، واخذت الدولة تثير الدروز على المسيحيين على | } | مبدأ مذابح النصارى المعروفة بحادثة سنة الستين وحادثة بيت مري ودير القمر |
|---|---|---|

ما يؤكد الغريبون والمسيحيون من ابناء هذه البلاد ، وبقيت الحوادث ثلثا الى الاصابع العثمانية والاجنبية تعبت بعقول المغفلين ، وكانت الثورات على ما سيأتي تاريخ زحلة ثلثا الى الخضم يزداد اتساعاً ، وعوامل الحقد تسكن القلوب فتحر كها على جر الويل واهراق الدماء ، وكان ذلك من اهم ذرائع التنافس والتناوب بين المسيحيين والدروز ، وكان البلاد ألقت التعصب فتوالى عليها من العصبية القيسية واليمانية واليزيدية والجنبلاطية والمعلوفية والمكارمية والزحلية والقنطارية ، ثم بدأت العصبية المسيحية والدروزية ، فكانت الاخيرة اشر من الاولى ، وتحفز الدروز للتشكيل بالمسيحيين ولا سيما سكان زحلة ودير القمر الذين اوغروا صدورهم ببسالتهم ونفوذ كلمتهم لدى ابراهيم باشا والامير بشير ولما ضدتهم اياهما .

بدأت الفننة العظمى بهجوم سرازم من الدروز على قرية بيت مري في لبنان يوم ٣٠ آب ١٨٥٩ فانهمزم الدروز واحرقوا ثلاث قري مسيحية وقتل بعض رجالها ، وفي اربع التالي بدأت الدروز نفد على الخثارة مركز آل جنبلاط كبار مشايخ الدروز . قال مشافة : وفي شهر نيسان من تلك السنة ورد امر الى خورشيد باشا من السلطان باهلاك المسيحيين واطلاق ايدي الاوباش وذبح النصارى عن آخرهم ، فألح خورشيد

باشا على سعيد بك جنبلاط ان يصدع بالامر فأوعز الى رجاله بالهجوم على النصارى ، فقتل الدروز بضعة عشر من النصارى في الطرق ، ثم وقعت مناوشة في دير القمر عادوا منها مخذولين ، وأرغم طاهر باشا قائد الحامية في دير القمر نصارى الدير على تسليم سلاحهم له ، وبعد ان جمع سلاح المسيحيين سمح للدروز بالهجوم على المدينة فسالت الدماء انهاراً ثلاثة ايام فلم ينج من المسيحيين الا عدد قليل ، ثم احرقوا المساكن وارتكبت الجنود التركية مع النساء على عاداتها ما ارتكبت ، وبلغ عدد قتلى الدير على رواية مشاقة ما يقارب النفي نفس من الرجال البالغين والنساء والاطفال ثم اعمل الدروز سيوفهم في اهل جزين . فحوادث الشام سنة ١٨٦٠ بدأت اذاً بيوت مري في السنة الماضية وثبت بدير القمر ومن هناك انتشرت في الاطراف .

| | |
|--|--|
| وطلب والي دمشق الخراج المتأخر من دروز حاصبيا | } مذابح حاصبيا وراشيا ورأي انكليز بين في اصل المذابح |
| وعين احد الشهابيين في فرقة من العساكر لشد | |
| ازره ، فتألب دروز وادي التيم واقليم البلان على | |

الشهابيين في حاصبيا وهاجموها ولم يلاقوا مقاومة شديدة من النصارى لقلة عددهم ، وكان عدد القتلى متساوياً بين الفريقين ثم نزع من النصارى سلاحهم ، واخذ الدروز يفتكون بهم ويحرقون مساكنهم ، ثم نفخ العسكر التركي وترك الدروز وشأنهم مع النصارى فقتلوا منهم ٧٢٤ مسيحياً وقتل من الدروز والأتراك اربعون رجلاً . وفي اليوم الذي جرت فيه مذبحه حاصبيا باغت دروز حوران نصارى راشيا الوادي في بيوتهم وفي السراي على مرأى من الجنود التركية وبمساعدهتهم فاجهزوا على جموعهم وقتلواهم مع امراء الشهابيين ولم ينج منهم سوى اميرين ثم نهبوا بيوتهم ، وبلغ عدد قتلى راشيا الوادي خمسمائة رجل وطفل وامرأة .

وهاجم دروز حوران بقيادة اسمعيل الاطرش مدينة زحلة فردم اهلها مراراً ، وطال القتال يومين فاضطر الدروز الى الرجوع عنها ، ثم عاد الدروز ومعهم الجند العثماني واحرقوا جانباً من المدينة واخذ الجند يرتكب الفلاحة واغتصبوا الراهبات ونهبوا الكنائس والاديار ، فلم يبق لدى قناصل الدول شك في ان الدولة العثمانية

هي التي تريد هذه المذابح وتديرها حتى لا تطالبها الدول بحماية المسيحيين وتجد سبيلاً الى مراقبة اعمالها الجزئية والكلية مما يسقط من منزلتها ، وقد هلك من الزحابين نحو مئة انسان لانهم لم يمكنوا الدولة من ادخال جندها الى بلدهم . واستاعيل الاطرش هذا قتل يوم جاء لمعاونة ابناء مذهبه في وقعتي راشيا وزحلة ١٣٥ مسيحياً التجأوا من اقليم البلان الى شيخ المسلمين في قرية كئناكر من عمل وادي العجم .

قال اللورد دوفرين : « لم يبق ادنى ريب يحول دون نسبة المذابح الاخيرة وجميع الحروب والاضطرابات والمنازعات التي انثابت لبنان في مدى الخمس عشرة سنة الاخيرة الى استياء الحكومة العثمانية من الاستقلال النوعي الممنوح للجيل ، فجعلت مرمى سياستها أن تبرهن على انه يتعذر العمل بطريقة الحكم التي منحتها الدول لبنان في سنة ١٨٤٥ ، ولهذا كان الاتراك بغثمنون الفرصة لاثارة دفاثن الاحقاد القديمة بين الدروز والموارنة ولما ازداد تعجرف المسيحيين وتعصبهم بقوة المساعدات الاجنبية التي فازوا بها ، ثقل على الاتراك احتمال وطأة استقلالهم ، فعقدوا العزم على اتخاذ الدروز آلة لاهوقعوا بهم و يضر بهم ضربة اشد بلاماً مما تقدمها ، بيد أن ما حدث في حاصبيا وراشيا ودير القمر قد جاء مجاوزاً الحد المتوي لعدم توفر شروط اللباقة في خورشيد باشا واعوانه لانفاذ سياسة دهاء كهذه ، فافرطوا فيها بحيث افتضح سر سياستهم وكان له دوي هائل في الاندية الاوربية »

وقال أيضاً : « لما زرت هذه البلاد (لبنان) قبل استيقاظ الفتنه ببضعة أشهر شاهدت أماراتها بادية في عواطف الفريقين ، فالدروز كانوا مستعدين للقتال والوارنة كانوا يعتقدون ان قد آذنت ساعة فوزهم ، كما أن دخل الجمارك يثبت أن قد أدخل الى لبنان من كانون الثاني ١٨٥٧ الى ربيع ١٨٦٠ أكثر من ١٢٠ الف بندقية و ٢٠ الف مسدس وكان من المشتهر انصراف المطران طوبيا وشركائه الى ايقاظ الفتنه ٠٠ الى أن يقول : فمن العبث وصف المسية بهين بانهم شهداء قديسون فهم يضاهون جيرانهم الدروز في حروبهم دحجية وظلاء الى الدماء ، فكثيراً ما كانوا يقتلون بعضهم مع بعض ولا يعنون عن النساء . يؤيد ذلك ارتكابهم الفظائع مع المشايخ الخازنبيين منذ سنين ، ومثل هذه الممايب كثيرة في تاريخهم ، بيد ان الدروز هم من هذا القبيل أكثر شفقة من

غيرهم فلا يقتلون بعضهم مع بعض ويحترمون النساء ، وعليه فمن الخطاء وصف القتال الذي جرّ بين الدروز والموارنة بمثابة اعتداء وتهيئ برابرة على اتساع دين المسيح الودعاء ، بل هو نتيجة تباغض طائفتين متساويتين في الهجيبة ، انزل الفائزوف في اعدائهم ذات البلية التي كانوا مهددين بها فيما لو تغلب هؤلاء ، واذا كان الدروز ارتكبوا في هذه الحروب فظائع اكثر بربرية من المعتاد فالسبب فيه تدخل الاتراك وشدة حنقهم على المسيحيين وقد أثاروه بتهديدهم وعجفهم .

وقال قنصل انكلترا في دمشق على ذاك العهد : « لقد بقي من كل ما رتبته المصربون شيء واحد سالماً وهو عتق المسيحيين من رقهم على ان هذا ربما يصير عاملاً جديداً لاستئناف الاضطرابات لضعف الادارة العثمانية وقلتها ، لان الظلم يدفع الى المقاومة والضعف يزيد في التمرد ، والسكان مؤلفون من طوائف مختلفة المذاهب معادية للسنة ومن طوائف مسيحية متعصبة يعادي بعضها بعضاً والحكومة عاجزة عن بسط سيطرتها على الجميع ولهذا أمست مضطرة الى إثارة طائفة على أخرى بايقاد جذوة التحاسد والبغضاء بينهما ، وبمثل هذه الوسائل يتمكن من حفظ بعض السيطرة لنفسها بيد انها تخسر ثقة الرعايا بها وتعكر كاس الوئام بين العناصر المختلفة ، فتحول دون كل تقدم ونجاح » .

مذابح دمشق ورأي الغريب } وبعمده هذ النصوص المعتبرة لم يبق شك في
والوطني في تعليلها } ان الدولة هي التي وضعت الخطة العوجاء .
لذبح المسيحيين ليتيسر لها ان تمتلكهم وتضعف من غلواء المسلمين أيضاً شأنها في معظم
أحوالها في كل بلاد نزلتها .

لا يحكم الصياد أشراكه الا اذا عكر بطن الغدير

وان الموارنة كالدروز لا يخلون من المؤاخذة الشديدة ، اغتر كل فريق بمن كان يزين له الشر ويحسن له العاقبة بعد ارتكابه فأتى ما أمر به ، فكان ذلك وبالاً عليه وعلى جاره ، ولم يخسر الدافع لها شيئاً . وما كان يخطر بالبال ان هذه الشرارة

تسري الى دمشق مدينة التسامح واللطف ويقوم رعاي المسلمين بمعاونة الدروز يؤذون من أمروا بالاحسان اليهم بعد ان عاشوا و إياهم ثلاثة عشر قرناً في صفاء وهناك .

ويؤخذ مما قاله مشاققة : ان مذبحة دمشق لا علاقة لها بحوادث لبنان على ما قيل ولا تعزى لها الاسباب التي عزيت لتلك وان من أسبابها الاولى عبث النصارى بالشريعة التي أحدثتها الدولة على أثر حرب القريم مكرهة من دولة الروس ، وهي مساواة الرعايا بالحقوق المدنية واعفاء النصارى من الخدمة العسكرية ، وقيل ان الدولة رغبت في وضع هذه الشريعة التي يقال عنها المساواة وهي ليست على شيء منه لنثير خواطر شعبها على النصارى وتجعل لهم سبيلاً الى بغضهم ومقتهم ولو كان النصارى وقتئذ على شيء من الحكمة لرفضوا إعفاءهم من الخدمة العسكرية التي جردتهم من الوطنية وأبكت لسانهم عن المطالبة بمقتهم .

قال : وكان مسلمو دمشق عامة وسورية خاصة يسفهون عمل الدولة التركية الذي قامت به مضطرة عقب حرب القريم وكثير تذر المسلمين من الدولة مع التقريع ، فأجابتهم انها لم تفعل ذلك الا مضطرة وبلغ من حقد المتعصبين انهم تأمررا وألفوا الجمعيات السرية يطلبون بها خلع الدولة التركية وإبدالها بدولة تعيد مجد الاسلام ولا تخضع للمسيحيين وبلغ الاتراك أمرهم فأوغروا صدورهم على النصارى ليلهمهم ويتخلصوا من شرهم .

وبعد ان فصل هجوم النصارى على مطران الروم بدمشق يريدونه على ان يرفع عنهم حيف الحكومة وطلبها بدل الخدمة العسكرية منهم ، وذكر كيف عرض المطران على الوالي بان النصارى تجميروا جمهرة العصاة وأرادوا الايقاع به قال : ان الوالي لم يشأ ان يردع النصارى رأساً وأناط بتأديبهم رعاي المسلمين الذين كانت الحكومة تحشى بطشهم ولا تتجاسر على مطالبتهم بدفع الضرائب ، وكانت الحكومة غير راضية عنهم لفتكهم ببعض وزرائها وامتناعهم عن اجابة مطالبها ، ورغبة احمد باشا (والي دمشق) باثارتهم على النصارى كي يتخلص منهم او من بعضهم فيقل عددهم وتضعف شوكتهم وبصبح إخضاعهم لاوامر الحكومة مكفولاً فيرد عن دولته

الخطر الذي كان يتهدد بها به مسلمو دمشق الذين جاهدوا بجلم دولة الاتراك عنهم وراسلوا دولة مصر لتأتي لمجدهم ولم يفلحوا .

« فرأى والي دمشق للوصول الى هذا الغرض ان ينصب المدافع على أبواب الجامع الاموي وقاية للمسلمين الداخلين اليه في أوقات الصلاة من غدر النصارى ! وأمر في عصر اليوم التاسع من تموز ١٨٦٠ باخراج الرعايا المسيحيين من المسلمين بقصد تطوافهم في الشوارع وهم مكبلون بالقيود إرهاباً للشوار من المسلمين والدروز معاً ، فلما وصلوا الى باب البر يد هجم بضعة من المسلمين على الحفر وبطشوا به وخلصوا رفاقهم ونادوا بالجهاد ، فهجم الالوباش على المسيحيين في بيوتهم ومحلاتهم ووضعوا السيف فيهم ، قتلوا الرجال وسبوا العيال وهتكوا الاعراض وراحوا بالعروض والأموال وقتلوا بعض الرهبان الفرنسيين » .

وذكر برانت قنصل بريطانيا ان السبب الرئيسي في ايقاظ جذوة الفتنه ان أولاد المسلمين أخذوا يرسمون صورة الصليب في الطرقات و يدوسونها ويهينون المسيحيين المارين ، فقبض عليهم « التفكجي باشي » وقيدهم بالسلاسل واكرههم على تكليس الطرق ، فهجمت الغوغاء وأتقذتهم فاشتعلت الفتنه . قال : وعندي ان احمد باشا مخطيء في ضعفه مع مجلسه وعدم اتخاذ الاحتياطات التي أشير عليه بها غير مرة ، وإصراره على ابقاء رئيس التفكجية في مركزه ، مع اشتهاره بعدم الكفاية رغماً عن تحذير عدة أشخاص من جميع الطبقات منه قبل ايقاظ الفتنه بعده أسابيع ، وإهماله إنقاذ مسيحيي حاصبيا وراشيا نكثاً بوعوده لما أخبر بالخطر المحدث بهم ونقاعده عن استدراك مهاجمة زحلة وقلة اكترائه بذبح الدروز المسيحيين ان لم نقل بتواطئه ، وهو القائل على ما روي انه يوجد في سورية آفتان كبيرتان هما المسيحيون والدروز فكما ذبح احدهما الآخر استغادت الحكومة العثمانية . وإن حظر حمل السلاح على المسيحيين والسماح به للمسلمين والدروز لا يمكن تأويله الا بان حكومة تلك الايام كانت لا تهتم لفتنة تحدث او انها تود إحداثها او لا تجسر ان تعامل الجميع بالسوية . وقال الماجور فرازر ان فؤاد باشا قال له : ان الدمشقيين

يكرهون الاتراك وان من الضروري القاء الرعب في قلوبهم توطيداً لاركان الحكم العثماني فتجنّبون ركوب متن الفتنة .

وقد علل مشاققة سبب فتنة دمشق تعليلاً مقبولاً فقال : انه لم يكن لها تعلق بمحادثة لبنان بل لها أسباب خصوصية نشأت عن تصرفات جهلة النصارى عندما عجز عقلاؤهم عن ردعهم ، فلما وضعت الدولة قوانين المساواة بين رعاياها من أي مذهب كانوا توسع جهلة النصارى في تأويل هذه المساواة بان معناها انه لا يجب على الصغير الخضوع للكبير ولا للوضع ان يحترم الرفيع ، وتوهموا ان أدنياء النصارى هم بمنزلة عظماء المسلمين ، ولم يريدوا أن يفهموا ان المساواة هي في الحقوق الشرعية والنظامية وان من الواجب حفظ اعتبار أهل الاعتبار بالدرجة اللائقة بهم من أية طائفة كانوا خصوصاً النصارى نحو المسلمين ، وعليهم ان يعرفوا بان كبراء البلاد ومعتبريها هم منهم والسلطنة مع وزرائها وعسكرها وجميع عظمائها من المسلمين ، وان النصارى في سورية هم الجزء الاصغر والاضعف في كل شيء ، وبكل الوجوه يجب على المسيحيين تقديم الاحترام الوافر نحو المسلمين ، والطاعة التامة لاولياء الامور فيما يرسمونه لهم اه . وفي الامثال « ان يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساوا هلكوا » .

صحايا مذابح دمشق } وقد رقت قنصل الانكليز عدد من ذبحوا من مسيحيي
وتخربها } دمشق بزهاء ٣٥٠٠ نسمة ، والغرباء الذي لجأوا الى
المدينة طلباً للنجاة نحو ٢٠٠٠ نسمة . وقال لورتيه : ان عدد من هلك من المسيحيين في
فتن لبنان وحوادث دمشق بلغ اثني عشر الفا ، وان في دير القمر وحدها تربة بناها ابناء
وطنه فيها ستة آلاف من المالكين وهو عدد فيه نظر . وقد قتل بعض المسيحيين في محال
منفردة مثل مسيحي جباع من عمل صيدا ، فان الدروز انقضوا عليها وحرقوا بيوت
المسيحيين ونهبوا القرى ، واب مائتين وخمسين نسمة من جزيين كانوا في الغابات
فطاردهم الدروز من محل الى آخر وقتلوا بعضهم ، ولم يصل منهم الى قرب صيدا
الا خمسة عشر رجلاً فقط . وحرقت ميمس والكفير من عمل حاصبيا وهلك فيها
مائة وعشرون مسيحياً ، وخربت ثمانى قرى للمسيحيين في البقاع وحرقت ، وقتل من

بقي فيها من الشيوخ والاحداث بينهم النساء والاطفال — واعتدي على العذارى ، وشوهدت من بيروت ثننان وثلاثون قرية تحترق وذلك يوم ٢٨ و ٢٩ وامست بعض البلدان الزاهرة في لبنان مهجورة .

قال كراهام : ان ستين قرية وبلدة في لبنان قد دمرت واصبح هذا الجبل بلقعاً ويتمذر معرفة عدد المسيحيين الذين قتلوا في مذابح جبل لبنان فالخمينات متباينة فيقدر بعضهم القتلى باربعة آلاف ، وآخرون بعشرة ، وهذا العدد الاخير مبالغ فيه كثيراً . قال : وارجح انه لايتجاوز الاربعة آلاف فقد جمعت عدة انباء موثوق بها وعارضتها بعضها على بعض فتبين لي ان عدد القتلى في دير القمر يختلف بين ١١٠٠ الى ١٢٠٠ وفي حاصبيا وراشيا ٧٠٠ وفي صيدا ٥٥٠ واذا اضفنا اليها ٢٠٠ لاجيء قتلوا في ٣٠ و ٣١ ايار في جوار بيروت والفسل مسيحي ذبحوا في بيوتهم على ما ارجح فلا اعتقد ان عدد القتلى يتجاوز ٣٥٠٠ ذكر ، وفقدهم يحرم البلاد ايدي عاملة كانت يتوقف عليها نجاحها .

وزعم لنورمان انه يريد ان يكتب تاريخاً لارواية خيالية ، ولكنه كان الى المبالغة واستعمال اساليب الخطابة والخيال ، ومع هذا ننقل بعض ما ذكره مما عساه قد فائنا تفصيله . اما المبالغات في الارقام فما نكله الى فطنة القاري يردّها ببصيرته لان قناصل الوقت في هذه الديار اصدق قيلاً ، ورواياتهم اقرب الى الصحة والسداد خصوصاً من لم يكن لدولهم رأي خاص الا الحقيقة . فقد ذكر لنورمان ان ستين قرية في الغرب والتمن أصبحت في ثلاثة أيام خراباً ببابا ، وانه قتل في مقبرة صيدا مائة واثنان وعشرون رجلاً وقتل الضبطية ١٧ شخصاً على أبواب صيدا ، وأن الفأوماني مسيحي اختبأوا في غابة على أربعة فراسخ من صيدا فأحرقها الدروز والمسلمون فلم ينج منهم انسان وهلكوا ذبحاً وحرقاً ، وانه قتل في دير المخلص على مقربة من صيدا مائة وخمسون راهباً وأخاً ، عدا ما سلب منه من العووض والاموال التي جاء بها سكان الجوار واودعوها الدير لانه كان محترماً من الكافة قبل هذه الحوادث ، وانه قتل في حاصبيا تسعمائة وخمسة وسبعون مسيحياً لم ينج منهم انسان ، وقتل من امراء الشهابيين في وادي التيم احد وثلاثون رجلاً ولم ينج منهم سوى ثلاثة لان ضلعهم كان مع

فرنسا ، وانه اُحرقت في أرجاء حاصبيا قربنا الكفير وشوبا وفي عمل راشيا قرى بيت لھيا وكفر مشكة وعيحا وحرقت حاصبيا كراشيا عن بكرة أبيها ، ولما جاء جيش الاحتلال الافرنسي في شهر ايلول سنة ١٨٦٠ الى زحلة رأى نحو ستمائة جثة من جثث الدروز ملقاة على الارض الى جانب جثث قتلى المسيحيين ، وان المدينة خربت ولم يحدث فيها قتل الا في دير اليسوعية والباقي من أهلها هلكوا في الدفاع عن بلدهم وانه قتل في دير القمر ٢٢٠٠ انسان وان ثلثمائة انسان كانوا مختبئين في دار فلما جاء خورشيد باشا قائد بيروت قتلهم عن آخرهم ، وان مسلمي بيروت وفي مقدمتهم عمر بيهم أعظم تجار تلك المدينة فتحوا بيوتهم للاجئين اليهم من المسيحيين ، واخذوا يوزعون عليهم الاطعمة وحالوا بحكماتهم دون تدخل الرعاع من ابناء طائفتهم في الامر تخففوا من غلوائهم .

وذكر ان عدد الهالكين من ٣٠ ايار الى ٢٠ حزيران في لبنان وسورية المجوفة كان اربعمائة انسان في المتن والغرب وجوار بيروت ، والفا وثمانمائة في صيدا وجزير والبلاد المجاورة ، والفين وخسمائة في قضاء حاصبيا وراشيا ، ومائتين وخمسين في زحلة ، والفين ومائتين في دير القمر ومئة واحد وعشرين في بيت الدين ، وخسمائة في بلاد بعلبك اي ٧٧٧١ شخصاً من الرجال والنساء والاطفال ، وانه خربت ٣٦٠ قرية وهدمت ٥٦٠ كنيسة ، وحرق ٤٢ ديراً ، وهدمت ٢٨ مدرسة كان فيها ١٨٣٠ تلميذاً ، وخسرت البلاد التي وقعت فيها الفتن جميع محاصيلها السنوية ، وقدر مجموع ما فقد من اموال المسيحيين وعروضهم في تلك البلاد بخمسة وتسعين مليون فرنك يدخل فيها اربعة ملايين قيمة تعطيل التجار عن اعمالهم مدة شهرين .

اما بشأن دمشق فقد أغرق في التقدير ايضاً فقال : ان الحريق والنهب والقتل دام خمسة ايام من اليوم التاسع من تموز الى اليوم الثالث عشر قتل في خلالها ٨٥٠٠ مسيحي ودمرت ٣٨٠٠ دار ، وقدرت الخسائر بمائة مليون فرنك ، ثم قدر عدد من هلكوا من المسيحيين بالامراض والقتل بعد المذابح بثلاثين الف نسمة ! وقال : اذا اضعفنا هذا العدد الى من نكبوا في هذه المذابح بلغ من هلك في دمشق ولبنان ٤٦٣٠٠ انسان خلال سنة واحدة بتعصب المسلمين والدروز . قلنا وجميع التقديرات تثبت ان

القتلي ومن هلكوا بسبب مصائب تلك الفئة والامراض لا يتجاوزون ربع ما قدره صاحب كتاب مذابح الشام على ان هذا العدد لا يستهان به أيضاً .

عمل الدولة والدول } ولما ترامت هذه الاخبار المشؤومة الى الغرب أرسلت
عقبى الحوادث } الدولة احد كبار وزراء ذلك الوقت فؤاد باشا لانزال
العقوبة بالفاعلين من المسلمين والدروز ، وأرسلت فرنسا عشرة آلاف جندي للمحافظة
ومنع التعدي وكذلك باقي الدول الاوربية ، ، منها من ارسل مراكب حربية ، ومنها
من ارسل نواباً لاصلاح الحال . وخيم جند فرنسا في البقاع تسعة اشهر وظلت السفن
الاجنبية راسية في مواني الشام وعددها عشرون بارجة ، وعقد في بيروت مؤتمر دولي
مؤلفاً من وكلاء الدول الخمس انكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا ، وضعت
اساس نظام جديد للبنان اقره السلطان عبد المجيد ووافقت الدول عليه (١٨٦١ -
١٢٧٧) ثم عدل هذا النظام سنة ١٢٨١ واشتركت به دولة ايطاليا مع الدول
السابق ذكرها .

واعاد فؤاد باشا الامن الى نصابه ونفى بعض الاعيان من دمشق لانهم لم يحولوا
دون الاشقياء والسفلة وما اتوا من المنكرات ، وقتل ١١١ مسلماً رشقاً بالرصاص
وشنق ٥٦ ونفى ١٤٥ وحكم بالاشغال الشاقة على ١٨٦ استخدموا في انشاء الطرق
وقضى غياباً بالقتل على ١٨٣ وفي عداد الذين قتلوا ١٨ شخصاً من كبار أسرات الملاد
واناس ذوو وجاهة ، وسمح لجميع المسيحيين الذين ذابوا بالاسلام كرهاً ان يعودوا
الى دينهم وعددهم خمسمائة ، وأخلت ثلاث حارات في دمشق لسكنى المسيحيين
وجند ثلاثة آلاف جندي من هذه المدينة وجعل البديل العسكري مائتي ليرة ،
وارسل زهاء الف رجل للنفي والسجن الى الاستانة وغيرها ، وقتل والي دمشق المشير
احمد باشا رمياً بالرصاص اتساهله في اطفاء الفتنة وقال هذا يوم قتل : اني مظلوم
وسماه الاتراك بالشهيد ، وكان من عطاء الدولة تربي تربية عالية في مدارس الغرب .
وقيل ان فؤاد باشا عجل بقتله مخافة ان تشيع الاوامر التي وردت اليه من الاستانة
ونفذها ، وانه لذلك بادر باخذ حقيبة اوراقه منه ساعة اجتماعه به ، وقتل قائد حي

النصارى وقائدي حامية حاءبها وحامية راشيا ، وعزل خورشيد باشا قائد الجند في الساحل ، وعوض على المنكوبين من مال الدولة والاهلين . وقد قال قنصل بريطانيا : ان الخسائر المالية بدمشق من حريق ونهب واعلاق وعروض وغيرها لا تقل عن مليون وربع ليرة ، وكان يرى ان خمسة ملايين ليرة لاتكاد تكفي للتعويض عن تخريب الاملاك ، وعن خسارة الاموال والحلي والجواهر والامتعة الثمينة والسلع والملابس قال ذلك لفؤاد باشا لما قال له ان يفرض غرامة قدرها ٢٥ مليون قرش اسى زها ، مائتي الف جنيه . هذا عدا ما أصاب النساء من هتك الاعراض وفض الابدكار وركوب العار وبمعن من الاكراد واهل البادية كما يباع الاماء كل واحدة بمئة الى مئة وخمسين قرشاً .

اما الدروز في لبنان ووادي التيم ودمشق وحوارن فقد نفي منهم نحو مئة الى طرابلس الغرب ، ولم يقتل احد من الدروز لان المسيحيين طلبوا محاكمتهم بالشرع ولا بد في الشرع من شهود عدول ، والمسيحيون في هذا الحادث لانصح شهادتهم ، والدروز لا يشهد بعضهم على بعض ، والا فان فؤاد باشا اراد فيما قيل ان يقتل منهم خمسمائة رجل . ولاحظ الماجور فرازر بقوله انه اذا لم يحكم على غير سبعة وخمسين قاتلاً فيستنتج من ذلك ان معظم من اشتركوا في المذابح لم يزلوا مطلقاً سراحهم ، لانه من المستحيل ان يعتقد بان اكثر من ثمانية آلاف شخص ذبحهم سبعة وخمسون رجلاً دع النساء السبايا واللاتي عبث بطهارتهن . وذكر آخر ان الدروز لم يرتكبوا الفاحشة مع النساء وتركوا ذلك لرعا المسلمين .

| | |
|--|---|
| وهنا لا بد من التنويه بعمل اكثر عقلاء المسلمين | } عمل العقلاء في دمشق وبيروت ورأي مؤرخ منصف في المسلمين |
| في دمشق وبيروت خاصة ، وما بذلوه لحقن دماء | |
| ابناء ذمتهم من مسيحيين ومسيحيات ، فقد انقذوا | |

الوقا منهم على ما يقضي بذلك الدين والشرف ، ولولا ذلك لم يبق منهم ديار ، وفي مقدمتهم الامير عبد القادر الحسني ، فشكرته الدول النصرانية جمعاء ومما قالتها الملكة فيكتوريا ملكة انكلترا وامبراطورة الهند في شكر صنيعه : انها عرفت من سلوك سموه

الفرق بين المسلم ذي العقل الراجح ، والجناء المتظاهرين بالتدين الذين عملوا باثارتهم التعصب على إبادة كثيرين من المسيحيين العزل . وقد كان للشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي ومحمود افندي حمزة واسعد افندي حمزة والشيخ سليم العطار وسعيداغا النوري وعمر اغا العابد وصالح اغا المهايني وعمر بيهم الى عشرات غيرهم من اهل العلم والسراوة في دمشق وبيروت ممن فتحوا بيوتهم لايواء مواطنيهم المسيحيين يد طولى في هذا الشأن تذكر فتشكر ولولا الوئام لهلك الانام ولقد قال السيد محمود حمزة من قصيدة في نقبيج ماصدر عن رعاع الدمشقيين من افعال القتل والنهب :

يا وحوشاً صادفت في غايها آمناً فاستقبلته بالسهم
ويحكم ما خفتم سلطانكم ان مولاكم عزيز ذو انتقام

الى ان قال :

اذ قوام الدين والدنيا معاً يابتعث الرسل او عدل الامام
بش مصر قد خلت من حاكم جور سلطان ولا عدل العوام

قال مشاققة خلال كلامه على فلاح مسلم رأى مسيحياناً بين القتلى الذين اهلكهم الجزار على باب عكا فاخذه الى قريته وضمد جراحه ولما عوفي حمله الى دمشق لئلا ينتقل خبره الى ذاك الطاغية : فهذه القصة ذكرني ما ورد في الانجيل الشريف عن السامري الذي ضمد جراحات الواقع بين اللصوص ، واكن ما عمله هذا المسلم مع المسيحي هو اعظم لانه خاطر بنفسه لكي ينقذ الغريب عنه الذي لم يكن يعرفه قبلاً ، وهكذا يوجد من الصلاح والمروءة بين المسلمين من يسدون المعروف للغريب عنهم ، وكفى دليلاً على ذلك ما شوهد بالعيان من اعمال حضرة الامير عبدالقادر الجزائري والرحوم صالح اغا المهايني والكثير غيرهم من انقياء المسلمين من طبقات مختلفة في حادثة سنة ١٨٦٠ فقد صانوا ستة عشر الف نسمة مسيحية عن الذبح بسيف الاشقياء والناثرين الذين لم تصنهم حكومة دمشق لغاية لم تعد مكتومة وهي لم تعترف بها واكن القرائن اثبتتها والثفوه بها ممنوع اه .

من المسؤول عن هذه الفتنه الشعواء
وقد كانت هذه الفتنه سبب خراب قسم عظيم من
مدينة دمشق ، كما خربت مئآت من القرى في
لبنان ، وخربت زحلة وحاصبيا وراشيا ودير القمر الا قليلاً ، وأهم ما خرب الكنائس
والاديار القديمة والبيوتات الناريحة الجميلة ، وهام كثير من المسيحيين من دمشق
وغيرها على وجوههم في البلاد ، ومنهم من هاجر الى مصر وقبرص واليونان والاستانة
وأصيب المسلمون باضرار كثيرة ولربما نجا المجرمون وقتل من كان جرمهم خفيفاً .
والذنب كل الذنب على الحكومة وعمالها اولاً لما أبدوه من الضعف ثم على الاقرب
فالاقرب من الاعيان والمشايخ والخاصة ثم على العامة .

ولو قام كل واحد من الأعيان والمشايخ بواجبه خلف الشر كثيراً في دمشق ،
وربما امتنع عامة الاشقياء عن الاعمال على الرغم من تحريض الحكومة لهم سرّاً او من
ابدائها تساهلاً ظنوا معه انها تدعوهم الى عمل ما عملوا . فقد ثبت ان والي دمشق
قال للامير عبد القادر الجزائري وهو يستأذنه للحفاظ على المسيحيين واطفاء الفتنه :
ليس لي من الامر شيء ، واذا كنت تستطيع انت ان تحافظ بجماعتك المتأربة فلك
ذلك فأجابه : ان السلاح ينقصني ، فأعطاه سلاحاً لاربعمائة مقاتل . وفي تحفة الزائر
ان الامير عبد القادر استأذن الوالي يوم فتنه لبنان ودمشق في طلب مشايخ الدروز
الى بعض القرى خارج البلد والاجتماع بهم ليعظّمهم ويحذرهم سوء عاقبة ما اعتزموا
عليه فأذن له وخرج اليهم وتكلم معهم بما أثر فيهم فأذعنوا لنصائحه ووعدوه بانهم
لا يحركون في دمشق ساكناً ولا يشيرون فتنه ، ولما كانت امر الله لا يرد قويت
بواعث الفتنه ولم ينجع فيهم نهى الحكومة ولا أثرت فيهم شدة انتقامها . قال :
واستمرت الفتنه قائمة ونازها موقدة اربعة عشر يوماً في دمشق ، وما أوقع احمد باشا
الشهيد وجماعة من رؤساء الجند الا اغتراره باقوال من كان يستبعد ان يقع في
دمشق ما وقع في الجبل ، تدعوى وجود البواعث المقتضية لذلك بين اللبنانيين
وعدمها في دمشق .

ومن القرائن القوية على ان الحكومة الاستانة يدا في إثارة هذه الفتنه ، انها
أرسلت بعض رجالها قبل وقوع المذابح باشهر الى الشام وبعد ذلك تبديل وجه كل

شيء وتغيرت معاملة الحكومة للمسيحيين . ومن يحسن الظن بالحكومة التركية ينسب ما جرى الى إهمال العمال والى ما كان لديهم من الوسائط القليلة والرجال ، وان الحكومة أرادت ان تثقم ممن كانوا يتطلعون الى دولة أخرى تحكمهم كالدولة المصرية ، ولسان حالها في الحقيقة بشأن هذه الفئنة المثل المشهور « لم أمر بها ولا ساء نبي » وما ذا بهمها قتل نحو احد عشر الف نسمة وخراب قدر بيضعة ملايين من الدنانير وغير ذلك من المقابح والمساوي ، اذا كانت في ذلك تأييد سلطانها على بلاد ما زالت سلطتها عليها اسمية منذ فتحها .

وقد ذكر العارفون من العرب والفرنج انه لولا اندباب الدولة لمثل الداهية فؤاد باشا لعقوبة الرعاع وغيرهم لكأنت اذربا اشتطت في معاملة الدولة وسلبتها بعض ولاياتها او لمزقتها الا قليلاً . ومن حسن الحظ ان هذه الفئنة لم تنعد دمشق وأواسط لبنان ونجا منها شماله بفضل رجل اسمه يوسف كرم حال دون انبعاث الدروز الى جهاته ، ولو انصلت نيران الفئنة باقاليم الجنوب والشمال ولم تبق محصورة في الوسط لكان الهول أعظم والخطب أدهى وأمر . ونجت جنوب أرض الشام وشمالها لضعف الحكومة فيهما ، ولان القول الفصل في كل بلد كان لجماعة من عقلائها ووجوهها فان الرعاع حدثتهم أنفسهم ان يبطشوا في حمص وحماة وحلب وطرابلس واللاذقية ويافا وغيرها فحال عقلاء تلك المدن دون الايقاع باحد من أهل وطنهم ، ولم تبطل بلادهم بما ابتليت به سورية المجوفة .

سواء أثر حوادث الشام في الدولة } سبع عشرة سنة مضت على الدولة وهي
ومنازعة الدول لها في سلطاتها } تحرك النعرة الدينية لتضرب الدرزيين
بالمسيحي والمسيحي بالمسلم ، حتى وصلت الى هذه النتيجة المرمضة من إهلاك من أهلك
وإضعاف من أضعفت ، فالتقمت من أهل البلاد الذين قتلوا بعض ولاياتها قبل دخول
المصريين ثم عاونوا محمد علي الكبير معارضة فعليّة وأديبة وبالف في عقوبتهم حتى
أنستهم ما استمتعوا به على عهد حكومته الرشيدة وخلصت من حماية فرنسا وانكلترا
للموارنة والدروز ، ولكن السياسة التي اتبعتها كادت تفشل وتخرج البلاد كلها من الحكم

العثماني ، لولا الشدة في عقاب من قصت السياسة بعقوبته والاسراع بتنفيذ الاحكام والتعويض على المنكوبين . ولم لم يقو فؤاد باشا الا على المسلمين لانهم لا سياج لهم الا الدولة العثمانية ، يؤثرونها على غيرها مع اعتقادهم ظلمها وسوء ادارتها ، اما الدروز فان لم كالموارنة سنداً قوياً يحميهم . ولذلك لم يؤخذ أشقيائهم بما أجرموا ، وهذا من غرائب السياسة في هذا العصر ان يجعل القاتل في حل مما أتا . ولكن المسلمين من جهة ثانية انتفعوا بهذه العبرة التي وقعت لهم وان كلفتهم كثيراً ، فأصبحوا لا يثقون برجال الدولة على الجملة ، ويعتقدون ان الظاهر من أقوالهم غير الباطن ، وان الدولة متى اقتضت مصلحتها تهلك أمة حتى تستفيد فائدة صغيرة ، وتخرّب بلداً اذا كان من ذاك مغنم ترجوه . وبهذا العمل الأخرق الذي قصدت به الدولة التفريق بين اجزاء قلوب أبناء الوطن الواحد المشتركة منافعهم ، المتحدة مرافقهم ، قد سلبت شطراً من سلطتها ففتحت ابواب بلادها لدول اوربا بان اعطيتها الحق لحماية طوائف من رعاياها ، وكانوا لا يرون غيرها مرجعاً لهم في الشام ، وأوجدت مسألة « حماية الاقلية » على مقياس واسع ، فنتج من ذلك انشاء حكومات داخل حكومة ، واصبح رؤساء الدين من المسيحيين يراجعون العمال في شؤون طوائفهم في التافهات والمهات ، ويريدونهم على تأييد مطالبهم وان كانت جائرة احياناً ، وصار العامل اذا لم يخفّض جناح الدل للرئيس الروحي على ما يجب بقليله من وظيفته بما لديه من الوسائط الفعالة . وامست دور القناصل بعد الحادثة محاكم دائمة للنظر في قضايا من علقوا آمالهم على الدولة التي يمثلها تلك الدار . وغدا قنصل روسيا سيطراً على مسائل الروم الارثوذكس ، وقنصل فرنسا الحاكم المتحكم في قضايا الكاثوليك ، وقنصل بريطانيا العظمى مهيمناً فيما يعرض للبرتغاليات والدروز وغدا اهل كل نخلة يعملون من الدولة التي يمثلونها معقد آمالهم ، ويدعون في سرهم وجهرهم ان يقرب ايام حكمها مباشرة عليهم ، ونزل كثير من الطوائف عن شخصياتهم فأصبحوا عرباً بالدم متفرنجين بالتربية والعادات ، يحرقون ما كان عليه أجدادهم ، ويغالون في اقتباس ما عند غيرهم ، خصوصاً اذا كانوا ينتحلون نحلهم ويرون في الآخرة رأيهم . على ان الحادثة فتحت لجميع السوريين ابواب الاخذ عن الغرب وما كان ذلك مما اضر على اطلاقه ، بل جاءت منه فوائد

مهمة في باب الحضارة . والعبرة المهمة التي اخذها الناس من هذه الفتنه المشؤومة ايقان
 جمهور تلك الطوائف التي عبث بها العاشقون ، ان النبعة على قدر الفهم وان القتلة
 وارباب المتارة نال شرهم الا يرياء من طوائفهم ، وانه لا يؤخذ اذا جدَّ الجدد غير
 اهل المدارك وعيون الناس .

وكم ذنب مولده دلال وكم بعد مولده اقتراب
 وجرم جره سفهاء قوم فخل بغير جاره العقاص



العهد العثماني

« من سنة ١٢٧٧ الى ١٣٠٠ »



البلاد بعد فئنة
سنة الستين
خرج الناس في دمشق ولبنان بعد المذابح الفظيعة في
تلك السنة المشؤومة ، سنة الستين بعد الثمانئة والالف
ميلادية ، وقد خسروا مادياتهم ومعنوياتهم . هلكت النفوس التي حرم الله قتلها ،
وهلك الوف من المسيحيين ومئات من المسلمين والدروز ، وخسر أهل المدن والقرى
أموالهم ، وخربت الدور والقصور ، وحرقت البيع والأديار . وكانت الخسائر في
المعنويات أشد لأن الغرب أساء الظن بأهل هذه الديار ، واجمل حكمه عليهم كافة
وعدتهم متوحشين ظالمين ، ولم يستطع أحب الناس من الأوربيين المسلمين ان يدافعوا
حق الدفاع عنهم ، مع علمهم بان الفئنة امر ذير بليل ، والدولة هي المسؤولة أولاً وقد
رجحت كفة الدروز في مدينة دمشق بما جاءهم من نجدات الحورانيين أبناء مذهبهم
فكان من الدروز ان اشتركوا اكثر من المسلمين في هذه المذابح . وكان للجند
النظامي وغير النظامي من الاجناس المختلفة يد في قتل المسيحيين في ضواحي صيدا
وبهروت ودير القمر وحاصبيا وراشيا ووزحاة ودمشق وغيرها ، وهم الذين هتكوا الاعراض
على الاكثر فباؤا بالخزي والعار ، واخذت اوربا بعد ان قويت علاقاتها التجارية بالشام
تسعي الى اقليلها ، لان كابوس الفئنة استولى بعد تلك الوقائع على الناس في الغرب
والشرق سنين كثيرة ، وربما دام حتى انقرض من شهودها وسمعوا بقضائنها .

جمعت الدولة للملكوين غرامات حربية من الاهلين بما زادت عن طانتهم ، ولم يصل الى المصايين كما قال مشاققة اكثر من ربع الذي تكلفت له الدولة ، فضاع الربع الثاني في النفقات اللازمة ، والثالث اختلسه مأمورو الحكومة ، والربع الرابع ربحه صيارفة اليهود ، وبالجملة فان الخسارة وقعت على الدولة والمسلمين والنصارى ، ولكن الدولة استعاضت عما فقدت تذليل الرعايا واخضاعهم لكل ما ترسمه عليهم ، حتى لقد جبي فؤاد باشا بقايا الاموال في دمشق التي اعيا الولاة تحصيلها على ايسر وجه ، ولم يبق للعشائر رؤساء تنعب الحكومة بمعارضة او امرها .

وخرج لبنان من فئته ممنوحاً اسقلاً لادارياً ، واخذ يستمتع منذ سنة ١٢٨١ بنظام خاص فينتخب له الباب العالي متصرفاً مسيحياً بموافقة الدول الست العظمى ويعطي الدولة بالاسم ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس خراجاً سنوياً وبقيت تسد العجز في موازنة الجبل مدة طويلة ، واهم ما ربحه لبنان القضاء نهائياً على سلطة ارباب الاقطاعات . واصبح كما قال بعضهم في عهده الجديد ملجأ للاحرار من كل نخلة كما كانت بفضل الامراء المتولين عليه من آل عساف وآل معن وآل شهاب ملجأ للطوائف الكاثوليكية .

اما مسلمو دمشق فبدأت ايام ذلم بالقضاء على كبرائهم ، وكان في قتلهم وتشريدهم عبرة لمن خلفهم او نجا من المعصية ، واصبحوا عبيد الدولة حقيقة في كل ما تأمر به ، حتى ان منهم من كانوا لا يراجعون الوالي وان كانت غلظه ظاهراً كل الظهور حتى لا يفضوه بزعمهم واطالما حاول بعض الولاة العقلاء ان يتلمح حسن الدفاع المعقول عن حقوق الاهالي ، فكان جوابهم ان افعلوا يامولانا ما تشاؤون فانا لا نحب المناقشة مع العظماء . افراط في العهد الاول وتفريط في العهد الثاني وغضب الجادل في قوله وغضب العاقل في فعله .

| | |
|--|---|
| السلطان عبد المجيد | } ترقي السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٧ (١٨٦١) |
| وخلفه عبد العزيز | |
| اي بعد مضي اشهر من انتهاء فئنة الشام ، وكان | |
| عهده شيئاً يحكم في شؤون المملكة السراري والجواري والمقربون في القصر السلطاني | |

و يسرف السلطان في الاموال و يبذر ثروة السلطنة ، وكان اسرافه مبدأ ارتباك الدولة في ماليتها — كما كان الخديوي اسمعيل مبدأ خراب مصر بما ارتكبه من الاسراف والبذخ — فان عهد المجيد لما زوج ابنته فاطمة من علي غالب بن رشيد باشا أنفق على الجهاز والعرس مليوني ليرة افرنسية . وكان كما قال دي لاجونكبير اكثر ملوك بني عثمان انسانية ، اكتشف عدة مؤامرات رُتبت للايقاع به فكان كل مرة يعفو عن المتآمرين ، فحمل الى قبره أسف أمته وحرمة اورباله التي أنتت عليه على الرغم من فجائع الشام و نجدة ، وذلك لكونه لم يقض على عمل السلطان محمود في الاصلاحات ولانه ساعد ما وسعته قوته على تأييدها والاحتفاظ بها .

خلف عبد المجيد أخوه السلطان عبد العزيز ، وأخذ لأول مرة يهتم لتنفيذ خطط الاصلاح التي وضعها ابوه واخوه اولاً ، وبدأ بنفسه في اصلاح المالية ، فألى ان لا يتزوج بغير امرأة واحدة ، وأبطل الاسراف في نفقات قصره ، فتخلى عن جزء مهم من مرتباته ، ولم يلبث ان عاد الى طبيعته في الترف ، وعاد الاسراف في أموال السلطنة الى أبتع صورة بحيث لم تات سنة ١٨٧٥ م حتى أعلنت الدولة إفلاسها ، وتمت لو تقترض من معارف اوربا بفائدة اثني عشر بالمائة . قال في التاريخ العام : ولسو - الحظ ان السلطان عبد العزيز نسي حالاً نياته الحسنة الاولى ، وأصبح في الحرم تسعمائة امرأة وثلاثة آلاف خادم وخادمة ، وكانت تمتد كل يوم خمسمائة مائدة و يجلس الى كل واحدة منها اثنا عشر شخصاً .

نشر اول قانون للولايات على اصول فرنسا سنة ١٢٨١ (١٨٦٤) وكانت السلطان عبد المجيد في سنة ١٢٧٢ (١٨٥٦) نشر خطاً سلطانياً يقضي بادخال اصلاحات ادارية كثيرة في السلطنة العثمانية ، عاقت حوادث الشام عن نظيقتها في ربوبه ، فأخذت البلاد بعد الحوادث المشؤومة المندرج نحو المدنية ، وقد تخلصت من أرباب الاقطاعات كل التخلص ، لكنها لم تخلص من أرباب النفوذ في المدن والقرى ممن كانوا يسرقون الامة والحكومة معاً ، ويقاسمون الولاة والعمال على الارباح . اما الولاة في اول القرن والقرن الماضي فكانوا لا يهتمون الا بالاحتفاظ بولايتهم ، ويبدلون بسرعة كما قال احد العارفين من الاوربيين بمن يجهلون كثيراً

أخلاق الشعب وإدارة الأحزاب وسياستها ، فينبذون وراء ظهورهم الاهتمام بانجاح الولايات لانهم موقنون بقصر مدة ولايتهم عليها ، فيكتبون مدة حكمهم على جمع الاموال الوفرة بقدر ماتمكسهم الحال . وفي أواخر هذا القرن تبدلت الاحوال فأصبحت الدولة تبعث الى الشام باعظم رجالها يتولونها ، وفيهم المستقيم العفيف عن أموال الناس العارف باصول السياسة والادارة .

وفي سنة ١٢٨٦ كانت الواقعة المعروفة في جبال العلويين بوقعة الوالي ، وسببها ان طائفة الكلبية ظهر منها شقاوة ، وخالفت اوامر الدولة فأرسلت هذه والياً لتمهيد الامور وارجاع العصاة الى الطاعة ، ومعه جيش قدر بعشرة آلاف فسار الى قرية الجديدة ورابط فيها ، فأرسل الوالي يطلب مقدمي الكلبية ووجوه العلويين ومقدميهم ومشايخهم المعتمد عليهم من قضاء صافيتا الى ناحية الجباقي ولما وافوه قبض عليهم جميعاً وسار الجيش الى قرية المرج وامر بحرق القرداحة اكبر دساكر تلك الجهة ، كما احرق بعض قرى الكلبية والنواصرة ثم مضى الى بني علي واحرق وافسد وعذب جميع الطوائف العلوية من عمل صافيتا الى الجباقي ، ولما شفيت صدور الجيش من العذاب والتخريب ، التأم مجلس اداري في جبلة فحكم بصلب ثلاثة من أعظم الطائفة الكلبية وصلب آخر من بني علي ، واخذت الحكومة الباقين الى بيروت فسجنتهم خمس سنين ثم برأتهم واطلقت سراحهم .

ويحدثنا الشيوخ ان ايام السلطان عبد المجيد وعبد العزيز كانت سعيدة على الشام في الجملة ، وان كان ذاك الدوران مبدأ تعفية حسابات الدولة ، فقد اعلنت رومانيا في ايام عبد العزيز استقلالها ، وتحت الدولة عن الصرب ، وطلب سكان كريت (اكريطش) ان تدخل الاصلاحات على جزيرتهم فلما رأوا اهمالاً من الدولة طلبوا ضمهم الى اليونان ولكن الباب العالي قوي عليهم ونجحت سياسته . وفي سنة ١٨٦٨ نزع مصر عن الدولة واصبحت خديوية تدفع خراجاً معيناً للسلطنة ثم هاج سكان البوسنة والهرسك وساءت حالة السلطنة واصبحت الديون العمومية اربعة مليارات فرنك بعد ان كانت قبل عشر سنين ٣٧٥ مليوناً انفقها السلطان في خصوصياته . وبينما كان عسكر الدولة يحتاج الى المال في بلغاريا ، والموظفون لم يتداولوا رواتبهم منذ

اشير ، كان عبدالعزیز يفكر ان ينقل قسماً من ثروته الخاصة على باخرة اجنبية الى اودسا . هذا والثورة فاشية في بلغاريا والصرب والجبل الاسود تحاربان الدولة ، واوربا تخاطب الحكومة في امر المسيحيين الذين كانت تنشئ على حياتهم مخاطبة الامر للمأور فتمس كل يوم عاطفتها ، وشيرت الدولة افلاسها ولم يصرف السلطان من الاموال التي اقترضها سوى واحد من خمسة عشر على الجيش والاسطول . برهان واضع على قبح الحكم المطلق كيف كان نوعه وحالة القائم به ، وانه اذا اتفق ان جاءت فيه بعض ايام راحة فهي نسبة لا تكون معياراً ، ولم تريح الدولة من عهد عبد العزيز سوى تأسيس نظارتين مهمتين العدلية والمعارف .

خلع السلطان عبد العزيز () شقيت السلطنة بادارة عبد العزيز وكادت وتولية مراد الخامس () ثم ادعى اركان الدولة وهو لاه في افراحه لا يبالي بما تحبأوه الايام ، مادام كل من تحت سماء السلطنة عبيده الخاضعين ، فأصبح لا ينفذ امراً للوزارة وكأنه عريف حاله فاخذ يفاوض سرراً امبراطور روسيا ليحميه فاطلع الوزراء على الامر فلما رأوا سوء المغبة عياناً تأمره على خلعهم فاجتمع الصدر الاعظم مدحت باشا وناظر الحربية حسين عوني باشا ورشدي باشا المترجم من اعظم رجال السلطنة بالاتفاق مع الشريف عبد المطلب وكان ذلك برأي مدحت باشا اولاً واسرعوا في خلع السلطان عبد العزيز على حين فجأة ، قبل ان ينقل ثروته الى الديار الاجنبية ، ويطلع على ما دبروا له فيبطش بالمسافرين ، وذلك بفتوى شيخ الاسلام حسن خير الله افندي اتبت فيها عليه العتة والجبل بالامور السياسية ، والاسراف في اموال الامة بما لا يستطيع تحمله وانفاقه في شهواته ، واخلاقه بعمله في امور الدنيا والدين مما ساق الملك والمنة الى الخراب . ونصبوا بدله السلطان مراد الخامس .

ولما كان السلطان عبد العزيز على جانب من عزة النفس وشتم السلطنة صعب عليه الخلع فطلب مقراضاً يقص به شعره فانحمر بقطع بعض عروق يديه وقيل بل قتل بهد اثمته وهو غير صحيح . وقد ساعد سفير انكترا رجال الدولة القائمين بهذا العمل ، بان استدعى قسماً من الاسطول الانكليزي الى ميناء الاستانة للجأوا اليه اذا

انكشفت مؤامرتهم قبل اتمامها . ولما تربع السلطان مراد في دست السلطنة لئنازل عن ستين الف كيس من مخصصات القصر وترك للمالية ريع المناجم والمعامل على حين كان يرسف في قيود ديونه التي تراكت عليه منذ ولايته العهد ، فانافت على مليون ليرة وليس في الخزينة من المال ما يكفي الا لسدها وبعض زيادة طفيقة ، والجند والموظفون لم يتناولوا رواتبهم منذ احد عشر شهراً . وكان السلطان مراد ليلة خلع عبد العزيز ارتاع فأصابه مس من الجنون لما بشروه بالبيعة له بالسلطنة ، على صورة لم يكن يتوقعها واشتد خلله بعد ايام من توليته عند ما بلغه مقتل حسين عوفي باشا فلم يتلطف به لبعه بالامر وقال له ان الوزراء قتلوا فقال الآن جاءت نوبتي في القتل وبدأ معه الجنون المطبق فلم يسع اهل الحل والعقد في دار الملك الا خلعه بعد ان سكتوا على ذلك شيرين فخلعوه باثبات جنونه المطبق ونصب مكانه السلطان عبد الحميد الثاني يوم ١٦ شعبان سنة ١٣٩٣ ، بعد ان تعهد لمدحت باشا بان ينشر القانون الاساسي ، ويؤسس في السلطنة حكومة دستورية .

* * *

عهد السلطان عبد الحميد | تولى السلطان عبد الحميد زمام السلطنة وروسيا
التاني | تهيج ممالك البلقان ، والدولة مائلة الى السقوط
لامراف عبد العزيز ، فالغى جانباً كبيراً من نفقات المطبخ السلطاني ، وكانت نفقاته على عهد
عبد العزيز اربعين الف ليرة في الشهر فأنزل مبلغاً لا يستهان به ، وقضى ان لا يخرج
من المابين موائد الطعام بل ان يأكل فيه من له حق الاكل ، وألغى الامتيازات
التي كانت لوالدة سلطان ، لان والدته ماتت وهو صغير فتوفر بذلك ١٥٠ الف ليرة
نفقات سنوية وأخذ يتولى بنفسه ادارة الشؤون ويتفنن في الجاسوسية ليطلع به
الجواسيس على الصغيرة والكبيرة . لكن روسيا أعلنت الحرب على الدولة فنزعت
البوسنة والهرسك من أملاكها واستقلت الصرب والجبل الاسود ، وانهزم الدثانيون
أمام الروس وخرجوا من حربهم وقد اضاعوا جزءاً مهماً من بلادهم وما يربو على
مائتي الف كيلو متر مربع من الاراضي ، وسبعة ملايين من الرعايا ، وانسلخت جزيرة
قبرص عن السلطنة ، وقضت معاهدة برلين (١٢٩٤) ان لا تسلب من الدولة الامارات

التي كانت تابعة لها فقط ، بل نصف ارضها في اوربا ، وان يتعهد السلطان باصلاح
مكدونية وكريت وارمينية وتحبيل السلطنة غرامة باهظة . وأعلن السلطان القانون
الاساسي في المملكة وسارع بتأليف مجلس نيابي ومجلس شيوخ واجتمع مجلس الامة
قبل ان يحضر نواب اليمن وبغداد والبصرة وطرابلس الغرب لبعث بلادهم واكتفوا
بوجود ثلثي النواب ، وانتهت معاملة اعضاء مجلس النواب بعد ثلاثة اشهر من نشر
القانون الاساسي ، ولم يكن انتخاب النواب بالرأي العام بل بتعليمات موقفة بمعرفة
مجالس الادارة .

ولما تناقش النواب في مسألة الصلح مع روسيا لم يرتضوا بالشروط الصعبة التي
اقترحتها الدولة الظافرة وحدث في المجلس اخذ ورد ، فشق ذلك على عبد الحميد
وربما بدرت بوادر من بعض النواب بحق السلطان فأمر باقفال المجلس ، وكان على
حالة يرضى معها ان يتنازل عن ثلثي المملكة على ان يضمن له عرشه ، فصدر امره
بتوقيف أعمال مجلس النواب الى مدة غير معينة وأمر باخراج عشرة من نواب
الولايات في ثلثي واربعين ساعة من الاستانة ، وكان منهم خمسة من ولايات الشام
فأظهر بذلك اول صورة من صور استبداده خالف بها الاصول النيابية ، ولم يتمتع
الامة بحرية الدستور سوى اربعة أشهر لانه صعب على مانحه ان يسير على غير خطة
الاستبداد ، ونذر ان يجيء من المستبد الا مستبد ، فزاد حنق الاحرار والغيورين
على بقاء السلطنة العثمانية ، واخذ هو يشتد خوفه على نفسه ويقضي على من كان خلع عمه
عبد العزيز على ايديهم من الوزراء ، ولا سيما مدحت باشا الذي نقله الى ولايات
بغداد والشام وازمير ومنها الى حبس الطائف فقتله هناك ، وأخذ يستكثر من
الجواسيس حتى لم يأت عليه بضع سنين الا وأصبح لا هم له الا اتخاذ الاحتياطات
لذلك ، وكثرت أوهامه وظنونه ، وانشأ يراقب المطبوعات مراقبة دقيقة مضحكة ،
ولا يسمح بنشر جريدة ولا كتاب على الاكثر الا اذا طرز باسمه واخلفت له فيه
الاماديج . وفي اول عهده (١٨٨١ م) اخذ الصهيونيون ينزلون فلسطين مئات كل
سنة ، وهم مقدمة الصهيونية الذين كانوا يحاولون ان يقيموا بناء القومية اليهودية في
فلسطين ويعيدوا لصهيون اي القدس مجدها بانشاء المعبد الذي خرب وعرش داود .

انسيال الدروز على جبل حوران ووقائعهم } مضت قرون على لبنان قبل منحه استقلاله النوعي
 حوران ووقائعهم } عقيب حوادث الشام وهو بؤرة الفتن ، ومنبعث
 الثورات والقلاقل ، لانه كان فيه كملتان عظيمتان بل دينان مختلفان الموارنة والدروز .
 كل منهما يريد التوسع في السلطة ، وكل منهما تعلم الطاعة لرؤسائه وعقاله ، يسير
 بقيادتهم يوم الكريهة ، لا يجتمع تحت لواء صاحب إقطاعه راضياً مختاراً ، وكل
 منهما يستمد من قوة غريبة . والموارنة أقدم استمداداً وصلات بالام اللاتينية من
 جيرانهم ، وجيرانهم أشد بأساً وأكثر مضاءً انبتوا ذلك في مقاتلتهم الصليبيين في
 هذه الديار فكان قتالهم لهم أشد من مناجزة بعض الطوائف الاسلامية من سكان
 ارجاء الساحل لهم . فلما وقع ما وقع في حوادث لبنان عام (١٨٦٠ م) قضت الطبيعة
 على بعض رجال طائفة الدروز ان يهاجروا إلى جبل حوران فرحلوا اليه في فريق من
 اخوانهم اهل وادي النيم والجبل الاعلى وصفد وعكا وغرطة دمشق وقرى القنيطرة
 وكان منهم طاقة فروا من وجه القضاء في الاصقاع الاخرى ، وآخرون اتوا حوران
 بدافع الحاجة ، فكثروا سواد من كانوا حلوا في هذه الربع ايضا من ابناء مذهبهم ،
 واول نزول الدروز في حوران بعد وقعة عين دارة المشهورة في لبنان سنة (١٧١٠ م
 ١١٢٢ هـ) فتألفت كلمة منهم هناك وقويت عقيب حوادث الشام ، وأخذ الدروز
 يرجعون الى اخلاق البادية بعد ان كانوا على وشك ان يدخلوا في الحضارة في
 اللبنانيين الغربي والشرقي .

اعتز قدماء الدروز باخوانهم الذين جاؤهم وأخذوا يجمعون شملهم على عادتهم
 بآمرة قوادهم ، وكان اهمهم بنو حمدان ثم أسرة بني الاطرش التي اصبحت الجبل
 الا قليلاً بتدبير كبيرهم اسماعيل الاطرش خاضعاً لهم ، وسلطة هذا البيت نتناول
 اكثر انحاء الجبل والاكثرية معهم على الاغلب . ومنذ نزول الدروز في حوران
 ما برحوا يباوشون المسيحيين والسنين من اهل القرى والبادية القتال ، حتى استقلوا
 به استقلالاً تاماً ، وكانت اول وقائعهم المشهورة بعد وقائع ابراهيم باشا ما حدث
 سنة ١٢٩٦ بينهم وبين اهل بسر الحريري من اجل فتاة ، فجهم الدروز على بسر
 وقتلوا من اهلها ثمانية او عشرة اشخاص وقتل من اهل بسر خمسة اثناء الدفاع عن

انفسهم ، وعند ذلك تجمع الحورانيون الوفاً ، وأراد مدحت باشا ان يجيب الحورانيين الى مطالبهم وهي انزال العقوبة بثلاثة وعشرين رجلاً من الدروز ، فابى الدروز الا ان يعطوا دية عن القتلي ، وقصد ان يسوق قوة على حوران للتهديد لا للضرب ، ثم حلت المسألة صلحاً .

قال عثمان نوري في تاريخه : وعقيب ذلك طلب مدحت باشا اعفاءه من ولاية سورية ، فاغتبط عبد الحميد بذلك لانه كان يرى ان بقاءه طويلاً في هذه الديار لا يجوز ، لانه تذرع بعمرائها وهو منه موجد خيفة على الدوام . وقال كان النزاع والجدال قائمين على ساق وقدم بين أهالي سورية المتباينين في الدين والجنس ، فلما وليها مدحت باشا دخلت في طور السكينة والامن ، ولا سبيل الى تقرير الحكم العثماني في بلاد متأثر فيها الافكار بالنفوذ الاجنبي الا بانظام الادارة واجراء العدل وتنظيم المالية ، وهذا ما عمله مدحت باشا . وكان عبد الحميد يرائيه في كل ما يرثيه ، ويحول دون امانيه . بحيث ان السلطان لم يكن يتوقف ساعة عن بث بذور الاضطراب في البلاد لينتقم من مدحت باشا وذلك بتجريض مثل المشير احمد ايوب باشا وجميل باشا عليه اه .

انتهت مسألة الدروز بعد ان ساءت الدولة عليهم قوة الى القراصة من عمل نجران وقتلت منهم ستائة واستأمن الرؤساء ، ولم يكن سواد الدروز في الجبل اذ ذاك اكثر من عشرة آلاف ، وتسمى هذه الواقعة بوقعة القراصة وهو ماء قرب نجران ، ولما لم تحسن الدولة الادارة في الجبل زادت جرأة الدروز الى ان كانت سنة ١٢٩٨ فهجموا على قريتي الكرك وام ولد وذبحوا سكانها على بكرة ابيهم ولم يبقوا حتى على الاطفال الرضع ، فسيقت عليهم حملة بقيادة المشير حسين فوزي باشا اسفرت عن ربط دية شرعية مقسطة عليهم ، وتأسيس قائم مقامية جبل الدروز مؤلفة من ثلثي نواح وتعين القائم مقام والمديرين منهم .

كانت الدولة تقاسي الامرين في تأديب عصاة الدروز كل مرة . قال مدحت باشا في مفكراته سنة ١٢٩٧ والذي زاد في الطين بلة ان فرنسا تحمي الموارد الكاثوليك وانكثرتا تشجيع للدروز وكل هذا من السياسات التي تريد بها هاتان الدولتان توسيع

نفوذهما في سورية او مضاربة احدهما مع الاخرى ، فلما اخذت الدولة اهبتها لتأديب الدروز قام سفير انكلترا في الاستانة يشكو من ذلك ، ويكرر الترداد على المابين والباب العالي فاصيحت الاوامر ترد لترى بحل هذه العقدة حلاً سليماً .

المصلح مدحت باشا } اضطر مدحت باشا ان يتخلى وبالله اسف عن ولاية
وطبقته من العمال } دمشق وقد طبق مفاصل الاصلاح في ارجائها الواسعة
على اسرع ما يمكن ، انشأ الطرق والمكاتب والمدارس ، ونشط الصناعات والزراعة
وضرب على ايدي المرتشين ، ونشر الحرية الشخصية ، واقن الحكام والمحكوم عليهم
دروساً في الوطنية والشعور بالواجب ، وكان يرجى للشام ان تسبق الاستانة في الحضارة
بفضل اصلاحاته لو طالت ايامه وايام غيره من الولاة المقتدرين امثال ضيا باشا في
دمشق ، ورستم باشا وداود باشا في لبنان ، وكامل باشا في حلب ممن كانوا بسيرتهم
معلمين للحكام ، وضعوا لهم اصول الادارة ، وحرصوا حقيقة على امتناع الناس بالعدل
واعمال العمران ، فكانوا حجة على الدولة بانها تستطيع الاصلاح اذا ارادته على قلة
الرجال لديها على شرط ان تركهم يعملون بوجدانهم وعقولهم ، وما عهد اليهم تنفيذ
من القوانين الكافية بمعرفة ارباب النزاهة من رجال البلاد .

وقد تعاقب على دمشق خلال هذا القرن ٦١ والياً وعلى حلب ٥٢ والياً وهكذا
سائر الولايات والمتصرفيات الثانوية ، لا يسلم الوالي الا ريثما يودع والطبيب منهم هو
الذي لا تطول ايامه خاصة ، لان حساده كثيرون في الاستانة وفي الولاية التي يتولاها
ونقارير الجواسيس عند عبد الحميد مقبولة لا ترد ، والدولة يصعب عليها ان تنفقات
من قيودها القديمة قيود حكومة القرواسيات اي المفاوضات الطويلة بالورق ، فاذا رأت
رجل جد من ابنائها يحاول ان يعلمها الصواب في المعاملات ، لا تلبث ان ترميه بكل
شنعاء ، وكان حظ النوابغ في كل دور من ادوار العثمانيين ولا سيما في العهد الحميدي ان
يغض عنهم ويسعى الى التخلص من اصلاحهم ومرامهم ولسان الحال يتاديهم لانجب ان
ينخرج عن ما لوفنا العاقل المجمع على عطله ونؤثر ان نموت فيه على سلوك سبل التجدد :
من بين يسهل الهوان عليه ما لجرح يمت ايلام

العهد العثماني

— — — — —

« من سنة ١٣٠٠ الى سقوط عبد الحميد الثاني »

الحالة في مبدأ القرن الرابع عشر
وإصلاح بلاد النصيرية
والسبب في خرابها

• غدت الدولة العثمانية أوائل هذا القرن
ببلاد الشام قوية الشكيلة لسرعة الاتصال
مع دار السلطنة ، وتشعب الاسلاك البرقية
وطرق البريد ، وشدة مراقبة دول اوربا لاعمال السلطنة ، وتسابق الدول في
تأييد نفوذهم في بلاد العثمانيين . وامتاز لبنان الذي كان يكثر تردد اسميه بثوراته
واقطاعاته الحين بعد الآخر ، بان انقطع ذكره بعض الشيء في باب المسائل المزعجة ،
وأصبح يعمل لنفسه بما متع به من امتياز خاص ولم يعد الدرزي والماروني فيه يقتتلان
كما كانا في القرن الماضي لتأييد سلطان ملك او أمير او للأخذ بيد صاحب الاقطاع
او حبا بالغارة والنهب والقتل .

ونشبت فتن في جوار لبنان من بلاد النصيرية لان هؤلاء لم يتأت لهم نصير
من الغرب كما قام للبنانيين يأخذ بأيديهم الى السعادة التي يتخيلها لهم ويسوقهم الى
طريق الحكم الذاتي ولو على صورة ابتدائية وكانت أهل السنة المجاورين للنصيرية
ينظرون اليهم نظر الازدراء وهم في جبالهم يعدون قوة يحسب حسابها واذ كانوا
طوع إرادة مشايخهم ورؤساء قبائلهم كانت سلطة الدولة عليهم قليلة . واذا كتب
للدولة ان احرزت بعض سلطان عليهم في الشواطئ البحرية او في الاماكن القريبة من
ضفاف العاصي من جهة الداخل فان اعالي الجبال كانت معصمهم ، وربما كان فيها

أما كن لم تدسها حوافر الخيول التركية لوعورة مضايقتهم ، وقد ارسل السلطان عبد الحميد رجلاً من خاصته اسمه ضيا باشا جعله متصرفاً على لواء اللاذقية في مبدأ هذا القرن فرفع عن النصيرية الظلم ووسد الحكم لبعض مشايخهم ووجوهم بان جعلهم اعضاء في المحاكم والمجالس ليشعر نفوس قومهم العزة بعد الالتهان والذلة ، وانشأ لهم جوامع ومدارس فاخذوا يتعلمون ويصلون ويصومون ، واقنع الدولة بانهم مسلمون فلم يعصوا له امرآ ونفس من خناقهم ، فبدأوا يشعرون بانهم بشر كسائر مواطنيهم وانهم شركاء في هذا القطر لهم فيه حقوق سائر ارباب المذاهب ، وبعد ان ترك هذا المتصرف العاقل منصبه الذي دام بضع سنين على احسن ما يكون ، مع انه كان يعلم في درجة الأميين خربت المدارس وحرقت الجوامع او دنست وكانت الدولة في اكثر ادوارها لاتأخذ من معظم بلاد النصيرية شيئاً يذكر من الضرائب ، والقائم مقام الذي يجبي منهم ضريبة السنة او بقايا ضرائب السنين السالفة تصفق له الدولة بنال تقديره ولالة الامر فيشرفونه برتب الدولة ومراتبها ، وكانت جباية خمسين الف قرش من النصيرية قد تستلزم اعداد حملة عليهم ينفق عليها ما يقرب من المبلغ المجبي احياناً .

قلنا ان النصيرية كانوا ينظر اليهم نظر ازدراء . وقد سألتنا عالم جبلهم في ايامنا الشيخ سليمان الاحمد عن رأيه في الحوادث الاخيرة في بلاده ، فكتب الينا يقول ما نثبته بالحرف لان قوله حجة في هذا الباب قال : « كان اهل الحاضرة (اللاذقية) في هذا القرن يعدون ما يفعله جهلة العلويين بفتيا علماء الدين ، فيعصبونه بهم لدى الحكام ويغرونهم بهم وبالرؤساء ، ويخرضونهم على الفتك بهم بكل واسطة ، وكان الدين اعظم الوسائط التي توصل بها الى هذه الوحشية والبربرية (ومن جري ذلك المصاب العظيم الذي وقع على آل سعيد البهلوية من اشرف واجل البيوت العلوية في حادثة سنة ١٢٩٥) وما كان العلويون ليحملوا وزر مصائبهم على الدولة التركية ، بل على وجهاء البلد ورؤسائه السنيين وعلمائهم ، ثم على اهل الفساد من مقدميهم ورؤسائهم الذين كانوا يسارعون لما بين عشائهم من الضغائن والاحقاد والغارات ، الى الدخول بمخاطر الاغوات ثم بمخاطر الحكام عن ايديهم ، ومن تم له الفوز جردت له الحكومة العساكر الجرارة ، وسلمته قيادتهم الفعلية فيسطروا بهم ، وبمشيرته على عدوه . ولاتسل

عما نفعل المحجبة . ومتى دوخت تلك العشيرة وقتل اشرافها . وذلت ، عاملت الحكومة العشيرة الظافرة نفس تلك المعاملة دواليك ، حسبما تقتضي سياسة التفرقة والاحوال . ولا ادري الى اي عصر تمتد سلسلة هذه الروايات المحزنة التي ترجو من الله ان يحسم اسبابها بايدي المصلحين والتبسط في شرحها لا يجدي اولا ينتج الا ان الشرقيين هم السبب الاعظم في بلاء انفسهم وحجة الله فيه على المتسمين بسمات الدين ، وتلك حزازة في نفوس المصلحين .

« والذي اراه ان قدم الحكومة التركية لم ترسخ في جبال العلويين حق الرسوخ وخاصة في مقاطعة الكليبة وكانت الحكومة اذا اخرجت جردت العساكر فنهبت وسلبت وحرقت وفتكت ، فاذا رجعت العساكر عادت العشائر الى ما كانت عليه ، يضبط الحاكم الحازم جماهيرهم ومتى 'بدل بحاكم ضعيف الادارة او مرتش ، عم البلاء من الرؤساء الفسدة والاشقياء الجبلية . لما حكم ابراهيم باشا المصري دوتخ البلاد ، وقطع دابر اهل الفساد وضرب الامن اطنابه بحيث لم يكن يسمع في عرض البلاد وطولها نهب ، ولا قطع سبيل ، فترع الانام في مجبوحة الامن مدة حكمه الذي كان مع صرامته نموذج العدل والانصاف ، فلما دالت دولته حصل من اختلال الاحوال مالا يحصره المقال اه . »

فتن درزية | كان يظن بعد ان خمدت نائرة الفتن في لبنان وما اليه من
وفتن أرمنية | جبل اللكاه ان الناس يرتاحون من الحملات والغارات الا ما
كان من غزو البادية بعضهم مع بعض فان ذلك من المتعذر لانه مرض قديم مستعص
نشأ قبل الاسلام بقرون ، ولم تقو جميع الحكومات التي تعاقبت على الشام ان تقضي
عليه وتستأصله من اصوله ، بيد ان اقوة التي احرزها جبل حوران بالدروز الذين
هاجروا اليه جعل من الجبل موطن غارات وغزو واصبح جبل دروز حوران ابرة سفينة
الامن في الشام وكان يتلبس بهذه الصفة جبل لبنان في القرون الماضية فيتعب سائر
الارحاء الشامية ، ويضطر الحكومة ان تنقي شره باثارة اهل الجوار عليه ، والقاء
الخلاص بين امرائه ومشايخه .

نشبت قتن في جبل حوران في اعوام مختلفة ، وكثيراً ما كان بعض اشقياء الدروز فيه يطيلون ايدي الاعتداء على سكان حوران والغوطة والمرج وجبل قلمون ، فيتخذ اشقياء المقرن القبلي منه مع عرب السردية و يغزون في البلقاء وما اليها قبائل بني صخر والحويطات والسرحان وقرى حوران الجنوبية ، وينضم اشقياء المقرن الشرقي الى عرب الصفا يغزون تجار بغداد ودير الزور ، ويتخذ اشقياء المقرن الشمالي مع عرب الحسن ويهاجمون قرى جبل قلمون والنبك وحمص ، ويتخذ بعضهم مع عرب اللجاة فيسلبون قرى سفوح جبل حوران ويقتلون الموظفين و يمثلون بالعسكر اذا خلوا بهم ، ولا يدفعون الاموال الاميرية ، وبذلك تأيدت شوكة الدروز وخافهم جيرانهم من أهل القرى والبادية ، وتخوفت الدولة عاقبة اسرهم للرابطة القوية بين افرادهم ، وم اذا جاءهم الغريب ، والدماء تسيل بينهم كالسيول ، لا يلبثون ان يتخذوا عليه يداً واحدة و يصدقوا قتال عدوهم المشترك ، بما فيهم من شتم واباء عربي وعند الشدائد تذهب الاحقاد .

رأى الدروز في سنة ١٣٠٤ وقد ارتاشوا وتأثلوا ونما عددهم ان يستولوا على قرى اللجاة للتحصن بها عند الايجاب واستثمار ما يمكن استثماره منها فاحتشد نحو خمسمائة فارس منهم بقيادة شبلي وفندي الاطرش ، ووصلوا الى المسمية وهاجموا قلعتها فردوا عنها .

وفي سنة ١٣٠٨ انقسم دروز حوران الى فرقتين المشايخ والعامه وزادت بينهم العداوة والبغضاء فادى ذلك الى حدوث وقائع متعددة ودخل بعض المشايخ الى قلعة المزرعة فارسلت عليهم ست كتائب مشاة والاي فرسان مع مدافع ، وفي اثناء مغادرتهم ثكنة المزرعة تعرض لهم العامة فقابلهم العسكر بالضرب ، فانهزم الدروز بعد ان تحملوا خسائر كلية ودخل الجند السويدياء واسرعوا ببناء ثكنة عسكرية . وتعرف هذه الوقعة بوقعة العامة ونال الدروز من الجند في سنة ١٣١١ في طريق المزرعة وحاصروا قلعتها ثلاثة ايام . وفي سنة ١٣١٣ هجم الدروز على قرية الحراك وقتلوا أكثر أهلها وهدموا جامعها الحصين ونهبوها مع قرى المليحة الغربية والمليحة الشرقية وحرىك ودير السلط وكحيل فارسلت الدولة عليهم (١٣١٤) حملة بقيادة ادم باشا ولما بلغ اول حدود الجبل تعرض له الدروز فقابلهم العسكر بالمثل ، وبعد وقعة القراصة ونيجران والسجن وام العلق دخل العسكر السويدياء .

ولو وضعت الاصلاحات الادارية موضع العمل بجد ونشاط لاستقام الامر كثيراً ولقلت الفتن التي تقع بين الرعايا والعمال مثل فتن الزيتون من عمل مرعش التي حدثت سنة ١٣١٣ ونشأت من منازعات بعض الارمن وبعض صفار. أموري الحكومة ، فألفت الارمن عصابات وقاتلوا عسكر الدولة وقتلوا ومثلوا بعيال الموظفين فهاج المسلمون في مرعش وعينتاب لما بلغهم من الاعتداء على المسلمين في الزيتون ، وقتلوا من الارمن مئات انتقاماً وتشفيماً ، ثم حدث مذابح في البيرة واورفة وقتل في هذه المدينة الفان من الارمن فارسلت الدولة حملة على الزيتون حاصروها شهراً ثم تدخلت سفراء الدول في الاستانة والزموا رؤساء العصابات بتقديم الطاعة فقدموها ، وعفي عن المشاغبين واصحاب العصابات ، قال في اعلام النبلاء وظلت هذه الفتن الى اواخر هذه السنة ودامت من ابتدائها الى ان خمدت نارها خمسة عشر شهراً . وكانت الحكومة سنة ١٣١٥ انذرع بتطبيق اصول الاعشار بصورة الامانة على حسابها ، فقتل الدروز ضابطاً كبيراً مع ثلاثين جندياً في عرمان ، ومدير ناحية صرخد ورفقائه من الدرك ، واكثر حراس الاعشار في جميع قرى الجبل فارسلت عليهم الحكومة مفرزة مؤلفة من اربعمائة جندي وفي رواية درزية اربع كتائب قتلوها بالفؤس والسيوف الا قليلاً في محل يدعى العيون قرب عرمان وغنموا مدفعين وجميع الاسلحة والذخيرة وحاصروا ثكنة السويداء ، ٢٨ يوماً ريثما وصلت القوة العسكرية بقيادة المشير طاهر باشا مؤلفة من ٥٤ كتيبة ، وحدثت بينهم وبين كتيبتين كانتا في آخر القوة حرب دامت ست ساعات وانهمز الدروز في وقعة الشهبه . وخوفاً من وقوع قتل عام رجع العسكر عنهم . وفي هذه المرة قبضت الحكومة على ستمائة رجل منهم مائتان من رؤساء العصابات ، ونفتهم من الشام ثم ارجعهم مكرمين من الاستانة فابتاعوا بالدراهم التي نالوها من احسان الدولة سلاحاً في طريقهم ليقاتلوا به عمالها .

وفي سنة ١٣١٩ ساقطت الدولة على الدروز قوة من الفرسان والمشاة الى الصفا والنجاة للتنكيل بهم ، واسترداد ما سلبوه من المواشي وغيرها . وفي سنة ١٣٢١ وقع خصام بين طائفتي الحلبية والمفوشين من الدروز اسفرت عن قتل اكثر من اربعين شخصاً ، فارسلت الحكومة ثلاث كتائب لاجراء التحقيق . وهكذا توالى وقائع

الدروز واكثرها في مقاومتهم للدولة كما ارادت ان تدخلهم في الطاعة ، وتجري عليهم الاحكام التي تجري على جيرانهم ، من اخذ رسوم الاغنام ، وتسجيل الاملاك أو احصاء النفوس أو أخذ الاعشار . ولكم جرت وقائع لذلك في قنوات ومفعلة والشوفي والحجلة والكفر ونجران ، وكم من وقائع بين المساعيد والعزام وبين بني الاطرش الدروز وبني المقداد السنين . وبعد جهاد أربعين سنة اصبح الدروز في جبل حوران الاكثرية المطلقة بعد ان كانوا اقلية في اواخر القرن الماضي وزادت نفوسهم ستة اضعاف عما كانوا قبل خمسين سنة .

الحملات على جبل } وفي سنة ١٣٢٤ اعتدى دروز حوران على عرب
الدروز وعلى الكرك } المعجل فنزا الدروز المعجل في النقرة من حوران فقتل
المعجل منهم نحو سبعين رجلاً ثم اعتدى المعجل على قافلة درزية وقتلوا رجلاً من اكابر
يهوتهم بالقرب من براق ، فهاجمهم الدروز في ضمير من مرج الغوطة وقتلوا نحو اربعمائة
من العرب ، وابقوا على النساء وفي سنة ١٣٢٨ غزا دروز حوران جيرانهم اهل
قريني معربة وغصم وسكانهما مسلمون ومسيحيون ، على اثر خصام وقع بين نواطير القرية
ونواطير بصرى بشأن الكرم فقتلوا ٥٩ رجلاً وامرأة عدا الجرحى ونهبوا القسم الاعظم
من قرى السهوة وجيزة وسماقية وطيسة من بلاد السهل ، فأرسلت عليهم الدولة حملة
مؤلفة من ثلاثين الف جندي بقيادة سامي باشا الفاروقي فضربهم ضربة خفيفة قتل
فيها زهاء الف رجل منهم ونحو مئة وخمسين من الجند واحرقت بعض القرى ولاسيما
الكفر أهم موقع حربي في الجبل وحواليها دار معظم القتال ، وغنم الجند والضباط
ما فيها من متاع وحلي وارزاق مما حشره الدروز فيها من انحاء الجبل ولم تستفد الدولة
من هذه الحملة الا احصاء نفوس الجبل واستأمن الدروز فحكم على بعض زعمائهم
واشقيائهم بالصلب فصلبوا في دمشق وجند بعض شبانهم وعفي عن بعض المجرمين
وجرم بعض الابرياء . وهكذا غرمت الدولة والأمة حتى امتلأ صندوق القائد فيما
يقال ولم تنفذ خطط الاصلاح التي وضعت على العادة في كل مرة ومنها ما يرضى به
الدروز لكن تطبيقه يحتاج الى اخلاص وحكمة . وقد ابان الدروز في هذه الحرب

شأنهم في أكثر حروبهم عن مهارة في الفنون الحربية وشجاعة منتهية .
وارادت الدولة في تلك السنة أن تحصي نفوس سكان لواء الكرك كما أحصت
سكان لواء حوران ، فانتقض اهل الكرك على الدولة لانهم بادية على الاكثر والبادية
تخاف الجندية اكثر مما يخاف منها اهل المدن والمزارع ، لان عهدهم بالحكومة حديث
وصعب التأليف بين طبائعهم ومعاملة الموظفين الفاسدين وكان لواء الكرك أسس في
سنة ١٣١١ على سيف البادية بين الحجاز والشام ، وقد ثبت للدولة ان المرسلين
يعملون بنشاط لتنصير تلك الاصقاع ، وكانت تلك البلاد من قبل بعيدة عن كل
سلطان و سطوة يحكمها رؤساء عشائرها ، ولم تكن اكثر قراهم مسمورة مأهولة ، وكانت
دبارهم كأنها قطعة من الحجاز القاحلة لا الشام الخصيبة ، وصادف ان قطعت مرتبات عرب
بني صخر والخرشان وغيرهم من أسل الوبر ، فقام البدو الذين حرموا رواتبهم وهي اربعة
آلاف ليرة في السنة ، وسطوا على بضع محطات من السكة الحديدية الحجازية على
طول اكثر من مائتي كيلو متر في ارض اللواء ونهبوا قطاراً بحمولته وقتلوا وجرحوا
بعض موظفي الخط ، وقام الكركيون باديهم وحاضرهم وأطالوا يد الاعتداء على التجار
والموظفين والحامية فقتلوا منهم نحو ١٥٠ انساناً ، ولو لم يلجأ اكثرهم الى قلعة الكرك
لهلك في هذه الفتنه بضع مئات وحرقت الاماكن الاميرية كلها ونهبت خزانه الحكومة
ودور الموظفين وأحرق قسم منها ، وخرب قسم عظيم من المدينة (٥٤٩ داراً)
باطلاق القلعة المدافع عليها وقطع العصاة الاسلاك البرقية وهاموا على وجوههم في
البراري ، وبعد ان جاء المدد للمحصورين في القلعة قبضت الدولة على عشرات من
الثأرين عدا من قتلهم هناك صبراً وحكمت عليهم باحكام مختلفة واكثرهم بالقتل .
ولم يشترك أهالي معان والطفيلة في هذه الفتنه وكانت النية ان يقوموا مع الكركيين
في يوم واحد . وجرت وقائع بين عسكر الدولة وعرب المجالي وبني حميدة وابن
طريف و كورة وسليط وغورين وكثير با وعراق وخزيرة والمعايطة وعبيد
وجلامدة وأغوات بالقرب من قرية كمفر ربة استسلم فيها بعضهم ، وبلغ عدد القتلى
من الكركيين نحو النسيمة . ولم يحدث بعد هذه الوقعة شيء يذكر في ارض الشام
الاهم الا هياج بعض العربان للغارة والنهب في الشمال والجنوب ، وكانت الدولة

تسوق عليهم قوى خفيفة تارة وتتركهم وشأنهم تارة أخرى خصوصاً اذا لم يقع منهم على أهل المدن والقرى اعتداء مباشرة ، ولم يتدخل قناصل بعض الدول لمأرب لهم ، كأن يكون في القتل بعض المسيحيين او ان نقضي السياسة بان يوجدوا مسألة جديدة تحب دولة ذاك القنصل استثمارها في دار الملك .

ومن الحوادث التي وقعت في سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦ م) الخلاف الذي وقع بين الحكومة المصرية والحكومة العثمانية على حدود الشام وعقدت بينهما المعاهدة المعروفة بمعاهدة رغب وتعين الخط الفاصل الاداري بين ولاية الحجاز ومتصرفية القدس وبين شبه جزيرة طورسينا ، وكان للصحف الوطنية المصرية حملات على بريطانيا بهذا الشأن .

رأي في دلال الدروز | وفي الحق ان مسألتين في هذا القطر شغلنا الافكار
والنصيرية على الدولة | خلال هذه الفترة ، وهما مسألة النصيرية في
الساحل ومسألة الدروز في الداخل . أما المسألة الاولى فما يحدث له امثال في كثير
من الاقطار ، وتنتهي كل ثورة بصلب بعض ارباب النفوذ والسيطرة وتخريب بيوت
التأثرين والساكنين . ورابطة النصيرية وتعلقهم بمشايخهم أقل من رابطة الدروز
وهي أقرب الى الحل اذا انعقدت . ثم انهم ليسوا من المعرفة بحيث يتطالون الى تأييد
سلطانهم او تحديثهم انفسهم بالاستقلال عن الدولة ، اذ لا ملجأ لهم من الامم الغربية
يرجعون اليه ويصدرون عنه ، ولكن هل كان دروز حوران مثلهم يا ترى بعد ان
حاول إخوانهم غير مرة ان يقيموا لهم حكومة مستقلة في لبنان ثم انسأوا على جبل
حوران يحاولون الاستقلال بربوعه ، والابتعاد عن سيطرة عمال العثمانيين في هذا
الجبل الذي ينتهي العمران به وتبدأ البادية المترامية الاطراف ؟ . ان ظواهر الحال
تدل على ان الدروز في جبل حوران حاولوا منذ عهد ابراهيم باشا ان ينزعوا أيديهم
من أيدي حكام القطر ويستمتعوا بامتياز لهم خاص ، لانهم يثقل عليهم حكم غيرهم في
الجملة ، وبين عامتهم وعامة غيرهم فروق في الآداب العمومية والاخلاق والعادات ،
واذا ثاروا يعرفون السبب في ثورتهم لان مشايخ العقل منهم يلقنوت أجابو بدم ،
وأجابو بدم يلقنوت عقالم ، وعقالم يلقنوت عامتهم كل ما ينفع في شؤونهم العسامة

فكانوا يرضون عقيب كل فئنة ان ينفقوا مع الدولة على مال معين يؤدونه للسلطنة ، ثم لا يلبثون ان يمتنعوا عن أدائه مع ان البلاد التي تملكوها بالسيف او بالشراء باثمان زهيدة من جيرانهم المسلمين والمسيحيين هي من الخصب بحيث لا يصعب عليهم ان يؤدوا عنها الاعشار والاموال المطلوبة او جزءاً من الضرائب التي يدفعها سائر الحورانيين ، ولعلمهم او بعض مشايخهم كانوا يدلون على الدولة بما لهم من عطف بريطانيا عليهم فيتوهمون ان ينشئوا لهم في صميم الشام دولة صغرى ناسين جميع الاعتبارات التي كانت تحول دون أمنهم ، وتهيب بالدولة الى مناجزتهم القتال كما حاولوا ان يرفعوا رؤوسهم .

وكانت الدولة هي التي ساعدت على تعاقب ثوراتهم وتسلسل شقاوتهم واستلذاذهم بالحروب ، لانها اتخذتهم آلة في لبنان ووادي التيم وحوران للانتقام من عدوها ابراهيم باشا المصري واتخذتهم آلة في مذابح سنة الستين . ودفعتهم في طريق الشقاوة والمقاومة بما لها وسلاحها فظنوا أنفسهم قوة مهمة لا تقف أمامها قوى دولة ، وعرفوا أنهم اذا ظفروا كان لهم ما يريدون ، واذا غلبوا يحسنون مداواة رجال الدولة ، ولهم من بريطانيا العظمى على كل حال دولة تسأل عنهم وتعنى بمصالحهم ، فلم ان يدلوا على جيرانهم وعلى الحكومة .

وكان الشعب في معظم الارحاء يستخف بعامة الدروز اذا اختلفوا الى الحواضر ، واذا ذكروا يذكرونهم كما يذكرون النصيرية بالخرية والمهانة ، فيشق ذلك على جماعتهم خصوصاً والدروز لم يفقدوا اصولهم العربية التي من شأنها الشتم والاباء ، فكانوا يصعب عليهم سماع ما يصمونهم به ، وربما كذب الناس عليهم ونسبوا اليهم اموراً ليست من مذهبهم ولا من عاداتهم ، كذبتهم على النصيرية أيضاً . وكان لبعض المشايخ المتعصبين في الحواضر يد في إلقاء هذه الكراهة وهذه النفرة بين هاتين الشيعتين وبين الاكثرية التي انشقوا منها من أهل السنة ، ولعل الحكومة كانت تعتمد ذلك ولا يسوءها فتغضي عما كان النصيرية والدروز يسامونه من ذلك ، وتفسح المجال للعامة والمشايخ البله ان يعاملوا مواطنيهم تلك المعاملة المؤلمة على النفوس الالفة ، فيقابلها الدروز بثأرها يوم يكون لهم السلطان المطلق في جبلهم وأرضهم .

ولو كانت الدولة بذلت شيئاً من العناية بهذين الشعبين الجبلين في الساحل والداخل كآتٍ ننشر بينهم التعليم الابتدائي ، وتعطف على بلادهم فتصلح طرقها ، وتدخل عليها ما يمكن من أسباب النجاح لاستغنت هي والامة عن مقابلتها وهم بعض ابنائها بالسيف والمدفع لتعيدهم كلما نشروا الى حظيرة الطاعة ، ولودخلت المدنية على دروز جبل حوران ونصيرية جبل اللكام ، كما دخلت مثلاً على دروز جبل لبنان ، لكان من هذين الشعبين العربيين خلقاً وخُلُقاً قوة في الشام وأية قوة ، ولما استحكم هذا النفور الذي كان من أثره ما ظهر في العهد الاخير اليوم رضوا بان ينزعوا أيديهم من أيدي جيرانهم ، مع علمهم بانهم شركاء متضامنون في هذا القطر المحبوب .



العهد العثماني

« من سنة ١٣٢٦ الى ١٣٣٦ »



الدستور العثماني } منذ أقفل السلطان عبد الحميد سنة ١٢٩٤ المجلس النيابي
وثورته } وعطل الاحكام الدستورية ما برح بعض أحرار العثمانيين
تركهم وارمنهم وعربهم وأرناؤدهم ، يتأفقون من حالة الدولة ويدعون سرهم اذا لم
يمكن الجهر الى المطالبة باعادة هذا المجلس ، وقد أسسوا للوصول الى هذه الغاية
جمعيات سرية في بعض بلاد اوربا ومصر والبلقان ، جعلت لها فروعاً في بعض
الولايات العثمانية وعملت في الخفاء زمناً ، والسلطان يصم آذانه تارة ، و يتصام
عن هذه المطالب المشروعة تارة أخرى ، و يعاقب من يقندر عليه من هؤلاء الدعاة
ان كانوا في قبضته وتحت عاّله في بلاده بالشدة من النفي والتعذيب والتغريب ،
او بالمداراة وإغداق الاموال والرتب على بعضهم اذا كانوا بعيدين عنه . وأهم جمعية
ألفت لهذا الغرض جمعية الاتحاد والترقي تشعبت فروعها في انحاء السلطنة وقويت
في بث دعوتها في الشام حوالى سنة ١٣١٤ وما برحت على ضم شملها وتكثير سواد
القائلين بقولها وابلاغ دعوتها في جرائد لها انشئوها خارج السلطنة ، وكلمة الجمعية
تزيد انتشاراً كلما اشتد عبد الحميد في إرهاب الداخلين فيها ولا سيما في المدارس
العليا في الاستانة ، والمدارس العليا مجمع شمل أذكيا الطلاب من الترك والعرب
والشركس والارناؤد واللاز والارمن والروم فاذا عادوا الى بلادهم ونفروا في

الولايات ، يضيفون الى تدمير الأهلين من فساد الاحكام تدمراً ، ويكثرون سواد الحاققين على ذاك النظام الرث القديم .

التأثت الاحوال ، وتكرت الاخلاق ، وبات القول الفصل للرشي والمحابة والشفاعات ، وغلوا في التجسس والوقية ، وكثر الفقر ، وعم القهر ، وزاد الضغط على الامة ، ونال الجند حظ وافر من الشقاء ، وغدا المرابطون منهم والغزاة لا يُطعمون الا ما يحفظ عليهم رمة فقط ، وكثيراً ما كانوا يهلكون جوعاً كما وقع لهم في اليمن مرات او لسوء التدبير كما وقع بكتائب الارناؤد في دمشق في احدى الحملات على الدروز فهلك مئات منهم لانهم تركوا في العراء في تشرين الثاني فهلكوا بالزحير ، وقد يخدمون السنين ولا يلبسون ثياباً تقيهم حمارة الحر وصبارة القر ، ويطول أمد خدمتهم فيقضون العشر والخمس عشرة سنة لا يسرحون ، خصوصاً اذا كانوا في بلاد قصية كاليمن والحجاز .

اخذ أحرار الضباط يبتشون في الاجناد روح الثورة وكانوا مستعدين لقبول ما يلقى على نفوسهم فتمرد اولاً بعض الجند في آسيا الصغرى ثم سرت روح التمرد الى جند مكدونية . والجنود موقنون ان الدولة لا تهتم بارواحهم اهتمامها بالبنادق التي يحملونها . واتفق أن ضاقت صدور المسلمين من الارناؤد في مكدونية من طمع الدول الاوربية فيهم وأدر كوا ان العثمانية تسلمهم متى عجزت كما فعلت مع غيرهم ، فيقعون في قبضة الحكومات الاجنبية على نحو ما وقع لمسلمي البوسنة والهرسك وبلغاريا ورومانيا واليونان والصرب . ولما تم كل هذا قام الارناؤد يداً واحدة في مناصرة الجيش المطالب بالدستور ، واتحد الفيلقان الاول والثاني في الروم ايلي وتبعهما الفيلق الرابع في كردستان وذلك بالاتحاد مع عصابت البغفار . ونادى الضابطان نيازي بك وأنور بك بالدستور او يزحفان على دار الملك ، فلم يسع السلطان الا ان يعيد العمل بالقانون الاساسي الذي كان اوقفه منذ احدى وثلاثين سنة ، فصدرت الارادة بوضعه موضع العمل صبيحة يوم الجمعة ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) وبوشر بانتخاب النواب وأطلقت حرية الاجتماع وحرية القول وحرية الكتابة والنشر بعد ذاك الضغط المنهك ، وألغيت الجاسوسية التي جعلت وكدها في كشف

عورات الناس بما لا يفيد شيئاً في حياة الدولة . وأخرج الوف من الموظفين والخدمة والمغنين وغيرهم من الما بين او قصر يلديز حيث كان السلطان اكثر ايام ملكه ، واليه انتقل الحكم من الباب العالي الذي كان في عهده اسماً بلا مسمى ، ما يريد لا يكون اذا لم يرد الما بين ، وما يريد الما بين ينفذ في الحال بدون مناقشة ولا حوار .

إعادة الدستور وحال } أعيد الدستور الى العمل بدون اهراق دماء ،
الدولة بعده } لان جواسيس السلطان عبد الحميد هوّلوا له في
قوة النزاع الى الثورة من فيالق جيشه ، وكانوا قتلوا بعض رجاله في سلا نيك ممن
أرسلهم للبحث عن قضية الثورة كما بالغوا في تقدير قوة الأحرار وسريان افكارهم
في الولايات ، فلم يسهه وهو محكوم لاوهامه وظنونه الا ان يرد ما اغتصبه من
حقوق الامة العثمانية ، ونجحت سياسة الاحرار وفشلت سياسة أعوانه الذين كانوا
بتماقونه ويقولون له : ان اوربا اذا انفقت على الدولة لا تستطيع ان تفلت من يديها ،
وما زال دولها متخالفات فلا يخشى على الدولة العثمانية ، اما الرعية فهي من ضعف
الجانب بحيث تستطيع الدولة ابدأ ان تقضي على كل ثورة تحدث في أرجاء بلادها
ثم ان الرعايا همج يسجون بمحمد آل عثمان في كل أوان ، ولا تدرك عقولهم معنى
للحرية ، والحرية لا بتطلبها الا بعض الشبان ومن لفّ لفهم من المحرومين والناقمين
الذين فسدت نياتهم بما لقنوه من تعاليم اوربا المضرة !

واخذ الناس في الشام يقدسون جمعية الاتحاد والترقي التي كانت سبب هذا
الانقلاب الذي انعش الامة بعض الشيء وكثرت الآمال والاماني في اصلاح الحال
وطردت الشام ولايتها وعمالها الذين عرفوا بالجاسوسية لعبد الحميد والنيل من رعيته
وكفّ اهل النفوذ في القاصية عن الضغط على الفلاحين اذ عرف هؤلاء من يدلم
على رفع شكواهم للمراجع العليا ، وأهين بعض من اشتهر عنهم انهم من أنصار عبد الحميد
الفارقين في رتبته ورواتبه ومراتبه حتى اضطروا ان يندمجوا في الاحرار ويقدموا شبانهم ،
ولطالما اشتهروهم وسعوا بهم الى الحكم في عهد الحكومة المطلقة ، وبديء بانتخاب
اعضاء مجلس النواب فحاولت جمعية الاتحاد والترقي ان يكون نواب الشام ممن تركن

اليهم او ممن عرفوا بميلهم الى الحرية وبعدهم عن السياسة الحميدية ولكنها سعت لتقليل عددهم في الشام سعيها لذلك في سائر الولايات العربية لئلا تنال منهم اكثرية في المجلس فاذا انضموا الى بعض العناصر الاخرى يصبح الاتراك اقلية لان الاتحاديين لا يريدون الا دستوراً ينعش به الاتراك ، وينال الخير بالعرض سائر العناصر على صورة لا تضر بكيان الترك و يسعون الى تترك العناصر لتؤلف جمعية الاتحاد امة واحدة متجانسة بلغتها اذ لم يمكن تجانسها بدينها ، و يقوم احرار العثمانيين من الاتراك في القرن العشرين بما عجز عن عمله محمد الفاتح وسليم ياوز من الفاتحين .

وبينا احرار الاتراك دعاة القومية التركية الشديدة يفكرون في وضع خطط الاصلاح ويحيون كل ما هو تركي ويحاذرون كل ما هو عربي والناس في فرح وجذل لانهم أخذوا على الاقل يقولون ما يريدون ويستمتعون بحرياتهم ، أعلنت اليونان ضمها لجزيرة كريت الى بلادها كما أعلنت النمسا الحساق ولايتي البوسنة والهرسك ، ورفض امير بلغاريا السيادة العثمانية وأعلن استقلاله ، وعاد مجلس النواب الى عمله (١٣٢٦ هـ) ولم يمض الا اشهر قليلة حتى ندم السلطان عبد الحميد على ما وهب طوعاً او كرهاً من نفيس خناق العثمانيين وأحب ان يقوم بعمل ارتجاعي يعيد به الناس الى الضغط الاول والفناء فيه وفي أعوانه فيعملوا احراراً من دون ممانع او مناقش فنهض جماعته من جواسيس وعمال ومن طردوا من الضباط من الجيش لقلّة اقتدارهم وغيرهم من العوام الذين تخدعهم الفاسط الشرع ويتبعون كل ناعق والفوا حزباً باسم الدين سموه « الحزب المحمدي » وانصار هذا الحزب كثيرون لانه اسم تحبه اكثرية الامة فدخل الناس فيه أفواجا عن سلامة نية حتى قيل ان من وقعوا على محضر الرضى بالدخول في سلكه بلغوا سبعين الفا في دمشق وحدها واختار السلطان لبث دعوته البلاد التي لم لتأثر اعصابها كثيراً بدعوة الاحرار وثورة الجند كالشام مثلاً وأخذوا يهيجون العامة باسم الدين و يرتبطون بالسلطان بايدي أناس كان للمال الذي بذله تأثير عظيم في نفوسهم ونفوس الفوغاء .

فمضت جنود الاستانة الا قليلاً بما بذله السلطان لم من الذهب الوهاج ولم ير أعوانه الذين هيجوا الاجناد واسطة لاضاعة رويتهم احسن من اسكارهم فأسكروهم

ليلة الفتنه وفرقوا عليهم الذهب الكثير ليقوموا بالمطالبة بتطبيق الاحكام الشرعية بحذافيرها ، وابعاد بعض النواب واسقاط الوزارة وتعيين الضباط غير الدارسين الذين خرجوا من صفوف الجيش لا من دكات المدارس ، اي اختيار الجهلة على المتعلمين وبعبارة أفصح ابطال القانون الاساسي لانه مخالف بزعمهم للاسلام ، ومن قواعده الحرية ، والحرية ليست من شأن الدين ! . وقتل في هذا السبيل أناس من النواب وغيرهم من الدستوريين وعامة الناس في شوارع العاصمة ، لان الجند الثائر كان يطلق النار في الفضاء إرهاباً وترويعاً فيصيب الأبرياء وغيرهم ، واغتال الضباط الجهلة كثيراً من الضباط الدارسين .

فلما تجلى هول الموقف للاتحاديين أهاجوا النفوس في الروم ابلي فقامت بعض ولاياتها على ساق وقدم تطلب التطوع في الجندية للدفاع عن الدستور ، وهب جند الفيلقنين الثاني والثالث في أدرنة وسلاطية وزحفا على الاستانة بقيادة محمود شوكت باشا البغدادي فاستولوا على المواقع الحربية في العاصمة في أسبوع ، وقبضوا على المنقذين والعصاة من الجند المشاغب وضربوا أعناق بعض المشايخ والمتشيعين للسياسة لا للدين ، ونفوا المآ وخمسمائة رجل من رجال السلطان وحاشيته الى الحجاز واليمن ، وخلصوا عبد الحميد بفتوى من شيخ الاسلام أثبت عليه فيها قتل النفس البريئة وسجنها وتعذيبها ومخالفة الشرع وحرق كتب الاسلام والاسراف في مال الامة ، وبايعوا بالثفاق مجلسي النواب والاعيان لولي عهده رشاد افندي باسم السلطان محمد الخامس وحملوا السلطان عبد الحميد المخلوع منفياً الى سلاطية .

عبد الحميد وسياسته | وبذلك تخلصت الامة من عبد الحميد بعد ان حكم
وأخلاقه | فيها ثلث قرن زاد أخلاقها فساداً . تولى لاول
أمره زمام السلطنة وكيلاً عن أخيه مراد الرابع ، وكتب على نفسه عهداً دفعه
لمدحت باشا ثم أرسل على ما قيل من أحرق دارمدحت ليحرق العهد في جملة ما احرق
وأخذ يستميل قلوب أكثر أهالي الاستانة حتى اجتمع الصدران الاعظماء رشدي باشا
ومدحت باشا ودعيا الف شخص من الكبراء وارباب المقامات ، وقرروا ان جنوب

السلطان مراد مطبق لا يرجي ان يفيق منه ، وأفنى شيخ الاسلام بجل بيعته — وما أسرع مشايخ الاسلام في اصدار فتاواهم لصاحب الوقت اياً كان وما ابطأهم في فتاويهم في المسائل الجوهرية — وبويع لعبد الحميد فماعتّم ان أقصى عن دار ملكه من كانوا من العطاء السبب الاول في خلع عبد العزيز .

وأخذ السلطان عبد الحميد بكثير من التضييق على أخيه السلطان مراد وعلى سائر أفراد الأسرة السلطانية ولا سيما ولي عهد السلطنة ، ويشرد كل من عرف بالانكار عليه من الوزراء والعطاء ، فألقى بذلك الرهبة في نفوس قواد المملكة وساستها فأصبحت الطبقة التي اختارها تسير على رغبته ، وكل من خالفه ولو في سره أقصاه وسجنه وعذبه ، وكما مضت سنة على ملكه يزداد مراناً على هذه الفعال ويبالغ في الاحتياط لنفسه ، وغدا يتولى كل أمر بذاته وبعدها رباب الوجدان من رجال الدولة ويستعيض عنهم بأناس ممن يصطنعهم ، وما يصطنع الا من فسدت أخلاقهم من كل جنس على الاغلب ، حتى آلت أزمة الدولة في العهد الاخير الى أيدي طبقة من أعوانه طفوا وبغوا .

أخذ السلطان عبد الحميد يملك الاملاك باسمه على خلاف عادة الملوك والسلاطين ، فكان كما سمع بان في اقليم كذا اراضي من املاك الدولة يأخذها بلا ثمن ان كانت من الاملاك الاميرية ، او بثمن طفيف ان كانت للأفراد وعجزوا عن استغلالها ، فيضمها الى املاكه السنية والف عدة شركات وفتح في العاصمة مخازن لبيع البضائع وبعض المعامل ، وضارب بالاوراق المالية واتجر بالامتيازات . وهكذا أصبح عبد الحميد تاجراً مزارعاً مضارباً لا يهتم بشيء من امر الملك الا اذا كان ثمره من جواسيسه الذين كثروا في العاصمة والولايات كثيرة ضاقت بالاتفاق عليهم خزانة الامة ، وكلهم أمناؤه ان اخطأوا فلهم الاجر ، وان اصابوا فحدث ما شئت ان تحدث عما ينهال عليهم من انعامه واحسانه . ولقد قلّ جداً في عماله من لم يتجسس له لا سيما بعد ان شاهد الناس ان الترقى في الوظائف لا يتأتى في الاغلب الا من طريق الجاسوسية المحببة الى قلب السلطان وغدا التجسس عند بعض الطبقات من الامور التي لا تنكر . اشتد ضغط عبد الحميد على المدارس حتى حظرت ان يعلم فيها التاريخ الصحيح

وعلم السياسة والاجتماع لانها ترقى العقول وتلغ الاذهان ، واصدر ارادته السرية الى مديري المعارف في بعض الولايات ومنها الشام ان يوقفوا سير المعارف عند الحد الذي وصلت اليه ، لان في انتشار المعارف انتشار المفسد وتمزيق شمل الامة !! ورأت المطبوعات منه ومن اعوانه الجهلاء من الدنيا ما يكفي في نعتهم انهم اعداء كل فكر وارثاء وتجديد ، واصبح ما يطبع تحت السماء العثمانية في الثلثين الاخيرين من حكمه عبارة عن كتب خرافات وزعم وتلفيق او اماديج كاذبة له ولارباب المظاهر ، وامور عادية لا ترقى عقلاً ولا تزيل جهلاً ، وحاول ان يرفع من دعاء القنوت لفظ « ونخلع ونترك من يفجرك » لان فيها لفظ خلع وقلبه يخلع من هذه اللفظة ولانه رأى مخلوعين قبله وان يسقط من صحيح البخاري احاديث الخلافة وان تصدر حاشية ابن عابدين لان فيها باب الخلع . ورفعت من المعاجم كثير من الالفاظ كالعدل والمساواة والاغتياال والقانون الاساسي والجمهورية ومجلس النواب والخلع والديناميت والقنابل وغير بعض الاسماء فلا يقال « مراد » بل « مرآة » ولا « عبد الحميد » بل « حامد او حميد وحمدي » لان مراد اسم اخيه وعبد الحميد اسمه ، واصبحت الصحف في ايامه ابواقاً تقده وتؤله على صورة بلغ فيها السخف الى غايته .

وكثرت في ايامه مظاهر التكريم الخلافة من اوسمة ورتب ، واخذت تباع في آخر عهده بالمزاد بيع العقار والدار ، ولها سمسرة ولها تجار ، يغوي بها السلطان من يريد تشريفه ، ويرفع بها من يهمه رفعه ، واصبح بعض العقلاء في دار الملك والولايات يتظاهرون بالبلاهة ، او ينقطعون عن الخدمة ويقنعون بالدون من العيش ، لان ساطانهم لا يرضيه منهم الا ان يكونوا على قدمه في كل ما يذهب اليه . ولقد نصح له بعض سفراء الدول في اواخر عهده بالكف من شرور بعض العمال ، لان استرسالهم فيها مما يسقط شأن المملكة ويضر بمستقبلها ، فقال لهم : وما ذا اعمل مع من ذكرتم وهم يحبونني وينفانون في خدمتي ! اي انهم في حل من عمل ما ارادوا من عسف الامة ما داموا يظهرون له الحب ، ويخدمون اغراضه على ما يحب .

كان عبد الحميد من الحسد بحيث يحسد خصيانه ، واشق ما يبلغه ان يعلم ان في احد اطراف مملكته عالماً ينفع الناس بعلمه ، فيحتال عليه ليأتي به الى الاستانة ليدفنه

حيًا ويجعله الى الخمول بعد الشهرة ، ويخرجه قسرًا من عالم النباهة والظهور ، فان لم يستطع ذلك فلا ايسر من النقول عليه للخط من كرامته ويلذه جداً ان يشهد الشقاق مستحكما بين حاشيته ، ويلقي بينهم العداوة والبغضاء ، ولذلك كان بعضهم عيوناً على بعض ، ينال الواحد من رفيقه في غيبته وحضرته ، حتى يتقربوا من قلب نساظانهم الذي يحب الملق ويهش للدهان والتزلف . عادة له منذ كان فتى ، فقد ذكر مرهبة المستشرق فبري المجري انه كان وهو فتى لم يبلغ الحلم ياتي الشقاق بين افراد الأسرة المالكة في القصر ، وينقل الكلام من اناس الى آخرين من أهل بيته ، ويتجسس عليهم ويكشف سترهم .

أما اسراف السلطان عبد الحميد فانه كان اقل من اسراف عبد العزيز بقليل ، ولكن طفمة الجواسيس كانت مع نفقات قصره في الربع الاخير من دوره تستنزف جزءاً مهماً من واردات السلطنة التي عرف كيف يستغلها ، وكيف يصرفها في شهواته على طريقة مستورة ولم يطلع عليها الا الخواص من رجاله . فقد ذكر الثقات ان آل عثمان لما اجاتهم جمهورية تركيا من بلادهم في صيف ١٣٤٢ باجمعهم كان مع بعض سراري السلطان عبد الحميد عقود من الماس والجواهر عرضوها في مصر للبيع فمجز الاغنياء عن اداء قيمها ثم جمعتها بعض المصارف عندها رهناً على مال اسلفته ، فكم كان ياترى من امثال هذه الحلبي المدهشة عند نساء آل عثمان ، والامة تهلك وعمالها لا يقبضون رواتبهم . وكما عقدت قرضاً فكرت في آخر بحيث كانت الدولة تعيش بالقروض في آخر ايامها . واصبح عبد الحميد في عهده الاخير يملك الوقا من المزارع والقرى ، ويحمل جلباً من امواله يضعها في المصارف الاجنبية ، يعدها لطاريء يطرأ عليه ، فلما سقط لم نفعه ، فاستولى عليها الاتحاديون كما استولوا على خزائن قصره يلديز ومجوهراته واعلاقه وجواريه ، ونقضوا كل ما ابرمه ، وفصموا عرى جميع ما احكمه .

جاء في كتاب عبد الحميد الثاني ودور سلطنته انه كان يعتقد بالسحر والطلسمات والارواح والقال ، ولم يتعلم شيئاً حتى انه كان يغلط بالاملاء التركي ، وله من

رأي مؤرخ تركي
في عبد الحميد
وذكر حسنة

المزايا الاحتياط المناهي والبصيرة وحب السعي وبعد النظر ، وان يعلم ماذا يقال فيه ، ينفر من الحرب و يلتزم السذاجة في لباسه وحاجاته يحرص على الامر والقيادة ، و يتحرى من الاصول والمعاملات اكثرها استقامة ، يميل الى الاخذ بعلم الباطن الذي يأخذ بمجامع قلوب العامة . واذ كانت افكاره كثيرة الجولان اصبحت لا تثبت في مركز واحد ، واذ كان مبتلى بالسويداء تراه على الدوام حزينا مغموماً مغيظاً محققاً ، مفرطاً في الاحتياط والتأبير لا يعتمد على احد ، ممسكاً لا يعرف الكرم ، عرضة للاضطرابات الذهنية والبدنية لعدم تطابق جملة العصبية . تبدلت حاله لما جلس على سرير الملك فنفعته المحن التي رآها لاول امره اكثر مما اضرته به ، ولئن كان أذنأ يحب ان يسمع ما يقال فيه ، و ينظر في الدقيق والجليل من الامور ، وهو محاط بجماعة من الاشرار ومزاجه عصبي فان كل هذا زاد في ذكائه . وكان الى السابعة والعشرين يتعاطى المسكرات ويفوص في السفاهات ، فنصح له طبيبه ان يقلع عنها والا فيهلك كما هلك بالسل من قبل ابوه وامه ، فرجع عن عاداته الضارة ونظم حياته ، وكان اول عمل قام به يوم استولى على زمام السلطنة ان سلب جميع ثروة اخيه السلطان مراد عقارها ومنقولها ، وكان ماهراً في عمليات الجمع والطرح والضرب ، الا انه يمنع ابدأ من اجراء عملية الطرح اذا كانت فيها ضرر عليه ، ولم يكتف بمصادرة ثروة اخيه بل تصرف بثروة رعيته على ما يشاء ، و اضاف معظم واردات الدولة الى خزينته الخاصة ، وما كانت الحكومة تتمكن من دفع الرواتب لغير النظار وكبار المقربين بصورة منظمة اما سائر الموظفين والجنود فان عبد الحميد ترك لهم واردات يتناولونها راتب شير او شيرين في السنة فقط ، وبذلك فتح باباً عظيماً من ابواب الرشوة اه .

ومما ينبغي ان يدون في ايامه ان بعض الامة انصرف الى الزراعة والتجارة اكثر من الادوار الماضية قبله في الشام ، لان الامن استتب اكثر من القرب الماضي ، وطرق المواصلات البحرية والبرية زادت انتظاماً ، والناس في الجملة قويت رغبتهم في تعليم ابنائهم ، ولكن المسلمين مالوا الى التترك لاخذ الوظائف الجندية والملكية ، والمسيحيين والاسرائيليين مالوا الى التفرج لتعلمهم في مدارس الاجانب التي ظهرت تأثيراتها في ايامه ومنها الهجرة الى مصر والسودان والاميركتين والزهد في سكنى

البلاد . وفي عهده وباهتمامه زادت الخطوط الحديدية في الممكة ومعظمها خطوط حربية ثبت له غنائها بعد حرب روسيا الاخيرة ، ففي أيامه اتصلت حلب برباق ودمشق وبغروت ، ودمشق بدرعا ، وبغروت بدمشق ، ويافا بالقدس ، وحيفا بدرعا ، ودمشق بالمدينة ، وطرابلس بجمص ، الى غير ذلك من الخطوط التي نفعت الشام ولا سيما الخط الحجازي من دمشق الى المدينة المنورة .

وفي أيامه خفت وطأة الاشقياء اذ كان يقضي عليهم بالسجن الطويل والقاتل منهم يؤبد في السجن ، فاستراحت الشام قليلاً واخذت تدخل في نظام الامم الاوربية . وكان من سياسته ان لا يستدين من اوربا مالا ولا يمقد قروضاً . مما احتاجت الدولة للمال وساءت حالها ، وكان لايجب إهراق الدماء وأبطل الحكم بالقتل فكان القاتل يخلد في سجنه . ففي أيامه اعتدى اليونان على الارض العثمانية ، فأعلنت الدولة حرباً على اليونان وكان الدخول في هذه الحرب مخالفاً لارادته وقد جعله الباب العالي أمام أمر واقع فأعلنها كارهاً ، فانتصرت الدولة لكن اوربا حاولت ان لا تنهي على اليونان وما زالت تطاول في عقد الصلح الى سنة ١٨٩٧ م وكانت نتيجة ذلك ان دفعت اليونان للعثمانية غرامة قدرها أربعة ملايين ليرة ولعلها أول غرامة أخذتها من تغلبها في احدي الوقائع بعد ذلك العز الباذخ ، وقضى عدل السياسيين بان تخرج الدولة من تساليا ! .

و يقال بالاجمال ان عبد الحميد انسخة صحيحة من تربية الفصور ، وصورة من صور دسائسها وشروورها ، استفاد من تجارب غيره ومحنتهم فاحتياط وحذر ، فطالت أيامه وعرف كيف يدخل في روح الامة فسخر مشايخها وأرباب الطرق والمظاهر ، يسجون بحمده وיעددون حسناته بما يقبضون من صلواته ، وخلقوا له مناقب اخترعوها ما كان هو يعلم بها ، وكان كل شيء في أيامه ظواهر ومظاهر ، ومن دهائه النافع معرفته الدخول في عقلية السفراء فكان يرشيهم ويرشي زوجاتهم بطرق مختلفة ينفذ فيها ولم يكد يسلم من هداياه ورشاويه الا سفير بريطانيا العظمى على ما يقال . فكان اذا أهدها السلطان هدية يقدم له من الغد مثلها أو أحسن منها حتى لقد قالت امرأة هذا السفير يوماً : لقد أعجزنا أمر عبد الحميد يريد ان يرمينا في شبكته بالجواهر

والخلي كما رمى نساء السفراء قبلي . وكان كثيراً ما يلقي الشغب بين السفراء أنفسهم . وكانت له طرق وله ديوان خاص لاعطاء الصحف الاجنبية مالا حتى تسكت عن خلل الدولة وبها تين القوتين قوة السفراء وقوة الصحافيين استطاع يوم ثورة الارمن في العاصمة وأرمينية وقتل الاتراك والاكراذ نحو مئة الف من النائرين ان يسكت ساسة اوربا عن عمله وعمل عماله ومع هذا لم يمنع الحذر من القدر فطوي بساطه وبساط أسرته بما عليه جملة والله وارث الارض ومن عليها .

الاحداث في أيام محمدرشاد
وحرب طرابلس والبلقان
وحزب الاصلاح

تولى السلطان محمدرشاد الخلامس بعد السلطان
عبد الحميد الذي قضى في شهر ذي القعدة
١٣٢٣ هـ (١٩١٥ م) وهو ضعيف المسدارك

لان أخاه ضيق عليه مدة حكمه الطويل حتى تبدل عقله وكان كأكخيه عبد الحميد . قليل المعلومات لم يدرس من اللغات الاجنبية شيئاً بل درس الآداب الفارسية ويرع فيها . وزاد تسلط الاتحاديين عقيب ان ظفروا بمن أوقدوا فتنة ٣١ آذار وقضوا على الارتجاع وغيروا بعض خططهم التي كانت ترمي الى تفوق الترك على سائر العناصر وخاصة العرب فدعت الحال الى تأسيس حزب الاحرار المعتدلين (١٣٢٩) الذي ظهر بعد ذلك باسم حزب « الحرية والائتلاف » في العاصمة والولايات ولم ير الاتحاديون للخلاص من مخالفتهم أحسن من الاعتماد على القوة فاغتالوا بضعة رجال في الاستانة وحاولوا ان يقتلوا في الشام بعض أعدائهم الاشداء من أرباب القلم فلم يفلحوا وأقصوا من الخدمة كل من لم يسر على رغائبهم ونقائل الحزبان فكانت الغلبة تكتب اكثر السنين للاتحاديين لانهم دعاة الحرية الأول وترتيباتهم تامة من اكثر وجوها تشبه ترتيبات جمعية الماسون ولا سيما فيما كان من قبضهم على قياد الاعمال وأخذهم بمخنق جميع العمال .

وثارت اليم سنة ١٣٢٩ فأرسلت الدولة جيشاً عظيماً على صنعاء والعسير قتل في حربها من ابناء الشام الوف . كما كانت كل مرة تدفن الوقا من ابنائها في تلك البلاد القاصية . حدثني عظيم من الاتراك وكان اكبر رجال الشورى العسكرية في الفيلق

الخامس بدمشق أن الدولة بحسب احصاء الجيش كانت تدفن كل سنة من ابناء الشام في بلاد اليمن نحو عشرة آلاف جندي يهلكون بالامراض والفتن والقلة وتغير الهواء دامت على ذلك نحو خمسين سنة حتى عقد الصلح بين امام اليمن يحيى بن محمد حميد الدين وبين قائد الحملة اليمانية عزت باشا وبهذا العقد لم يبق للدولة هناك غير سلطان قليل في صنعاء وتعز وما اليها من البلاد والجبال ، وانتقلت جل الاحكام الى الامام وذلك في سنة ١٣٢٩ هـ .

وظهرت أيضاً فتن أخرى في كردستان وبلاد الالبان واذنة ، فلم ترتج البلاد سوى اشهر معدودة بعد اعلان القانون الاسامي . ومنشأ كل فتنه داخلية العمال على الغالب ، ثم تمتد وتنتشر فيصيب الامة شرها ، ويتولى الامر الجهلاء ثم يتعذر على العقلاء حل العقد التي يعقدونها ، وكم من مجنوف رمى في بحر حجرأ فصعب على مئة عاقل اخراجه .

ثم وقعت حرب طرابلس بين العثمانية وايطاليا وجاءت ايطاليا باسطولها الى سواحل طرابلس وبرقة بدون مسوغ وضرب اسطولها سفينتين عثمانيتين كانتا راسيتين في ميناء بيروت فهلك من أهل المدينة والجند زهاء مائتي نسمة ، وأرسلت الشام جنداً ومعاونات نقدية الى طرابلس ، آخر ما بقي للعثمانيين من الولايات في قارة افرريقية . ولم يعقد الصلح في اوشي من سويسرا بين العثمانية والايطالية حتى اعلنت دول البلقان المتحدة (بلغاريا والصرب والجبل الاسود واليونان) الحرب على الدولة العثمانية فغلبتها ، وجاء جيش البلقانيين الى جتالجه من ضواحي الاستانة ، وعقدت الهدنة يوم الثالث من كانون الاول ١٩١٢ بين العثمانيين والبلغانيين وعقد مؤتمر في لندرا لاصلاح ذات البين بين الفريقين فلم يفلح وعاد المتحاربون الى النزاع بعد الازمة الوزارية التي انتهت بسقوط الصدر كامل باشا وقتل ناظم باشا ناظر الحربية بيد انور بك من ضباط الاتحاديين ودعاة الدستور في الروم ايلي ، واخذ الاتحاديون بعد هذه الفاجعة يستولون على ازمة الامر وظهر أنور بك بمظهر جديد فقبض على عنان الحكومة ، واستؤنفت الحرب بين المتحدين من البلقانيين الذي انفرط عقد اجتماعهم فزحف العثمانيون على أدرنة فاستعادوها الى الملك العثماني ولم يبق للدولة في قارة اوربا غير ولاية ادرنة وما اليها من ضواحي الاستانة

والسلخت عنها هذه المرة ولايات قوصوة واشقودرة ويانيا ومناستر وسلانيك وعادت الحرب فنشبت بين العثمانيين والبلغاريين في ١٧ تشرين الاول ١٩١٢ وعقد الصلح في ٢٩ ايلول ١٩١٣ وقد فقدت العثمانية في هذه الحرب مئة الف جندي بين قتيل وجريح وثمانين مليون ليرة ثمن ذخائر وسلاح وخرجت من الروم ايلي الاقليلا وكانت صرفت في فتحه خمسين سنة وحكته خمسمائة سنة ولم توفق الى نشر لغتها ودينها فيه على ما يجب .

وفي سنة ١٩١٣ اتحد جماعة من السور بين بينهم اللبنانيون والمسلمون على مطالبة الدولة بالاصلاح للشام وكتب والي بيروت ادهم بك الى الصدر كامل باتسا كتاباً قال فيه : (كانون الاول ١٩١٢) : تجاذب البلاد عوامل مختلفة ولقد ولي قسم عظيم من الاهالي وجهه شطر انكثرا او فرنسا لاصلاح الحالة التعسة التي هم فيها فاذا نحن لم نأخذ بالاصلاح الحقيقي تخرج البلاد من يدنا لاصحالة اه . فأرسل الصدر الى والي يريد الاهلين على عرض مطالبهم فاجتمع المجلس العام في بيروت وانتخب ٩٠ عضواً عقدوا جلستهم الاولى في ١٢ كانون الثاني سنة ١٩١٣ واختارت من اعضائها خمسة وعشرين مفوضاً سمّتهم اللجنة الدائمة وقدمت هذه بيانا بالاصلاحات المنشودة واتفق على ذلك اعيان المسلمين والمسيحيين فوضعت اللجنة في بيروت لائحة اهم ما فيها توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب . وفي أوائل الصيف ذهب وفد من البيروتيين وغيرهم الى باريز وعقدوا هناك مؤتمراً قرر يوم ٢١ حزيران سنة ١٩١٣ ان تضمن للعرب حقوقهم السياسية وذلك بان يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً وان تنشأ في كل ولاية عربية إدارة مركزية ننظر في حاجاتها وعاداتها وان ننفذ لائحة الاصلاحات التي نظمت في بيروت القائلة بتوسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب وان تعتبر اللغة العربية في مجلس النواب العثماني وتكون لغة رسمية في الولايات العربية وتكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية .

نخاف الاتحاديون العاقبة وبعثوا أناساً من قبلهم وقبض واليهم في بيروت حازم بك على عدة أعضاء من الاصلاحيين فأغلقت المدينة حواشيتها أياماً فأخرجهم من

السجن، وبعث الاتحاديون أناساً من قبلهم الى باريز وغيرها، واسترضوا أعضاء الوفد وأطمعوا بعضهم بالوظائف الكبرى ووعدهم ان تجري لهم الحكومة الاتحادية من مطالب الاصلاح ما يمكنها القيام به. مثل تسليم الاعمال الادارية الى السلطات الوطنية طبقاً للقانون الخاص بادارة الولايات وان يكون التعليم الثانوي والابتدائي في المدارس الوطنية بالعربية وتستعمل اللغة العربية في بعض أعمال قانونية معينة، وان تضاف الصيغة العربية على إعلانات الجلب الى المحاكم كما تضاف الى الاحكام المدنية والجنائية وتكون العرائض المقدمة للسلطات الرسمية باللغة العربية، وأن يعين بعض العرب في مجلس الاعيان ومجلس شورى الدولة ومحكمة التمييز وشيخة الاسلام ودار الفتوى .

وطبق الاتحاديون بعض هذه المواد فرأينا في بعض مراكز الالوية والولايات في الشام مدارس تجهيزية تدرس العلوم العربية، والى جانبها المدارس القديمة التركية في كل مظاهرها، ووضعت الصيغ العربية الى جانب الصيغ التركية في اوراق الجلب الى المحاكم، وأخذت الحكومة تقبل الشكاوي بالعربية من الاهلين، وعين بعض رجال الشام في وظائف كبرى في العاصمة، وكان نائب دمشق في مجلس النواب شكري بك العسلي أول من رفع صوته بهذا الطلب، طلب اعطاء العرب حقهم من الوظائف وقال: ان اربعة فقط من أبناء العرب موظفون في الادارة المركزية في جملة بضع مئات من الاتراك، فنبه أفكار من لم يكن مثنبهاً من أبناء العرب الى غمط حقوقهم، وحنق بعض قحح الترك عليه وعلى من عاونه على بث هذه الفكرة وعدوها خروجاً على الجماعة .

وكان هذا النائب ايضاً أول من نبه أفكار مجلس
 الصهيونية ومنشأوها } النواب الى الخطر الصهيوني في فلسطين وكان
 الاتحاديون وفيهم الاسرائيليون او الصابثون من اليهودية (الدونمة) أمثال جاويد بك
 ناظر المالية — ينوون ان يبيعوا نحو ثلاثة ملايين دونم من الاراضي في فلسطين
 وسورية من جمعيات الاستثمار الصهيوني، فبطل المشروع لما ظهرت مضرته الى عالم

الوجود وقامت حوالـ المشروع ضجة في الصحف فلم يسع الاتحاديين الا ان يطووا دفتره .

ولكن كان الصهيونيون يؤلفون عدة جمعيات للوصول الى أغراضهم السياسية منها جمعية احباء فلسطين انتشرت في أطراف فلسطين ونفرت منها عدة جمعيات منها جمعية معاونة فلاحى اليهود وصناعهم في فلسطين وسورية وانشأوا لهاتين الجمعيتين فروعا كثيرة في أمهات مدن فلسطين وبلاد بشارة وحوارث وعبر الاردن وابتاع للاسرائيليين أبناء مذهبهم من كبار أغنياء اوربا اراضي وأمدوهم بالمال ليحققوا آمالهم القديمة في استرداد فلسطين ويعيدوا مجدهم اليها وهذه الآمال قديمة ترد الى عهد الرومان « وغازت بعد ان شتمهم في الارض ادرىانوس في القرن الثاني بعد المسيح وفرق جامعتهم وأبعدهم عن صهيون او اورشليم او القدس عاصمة مملكتهم القديمة ومدينة هيكلهم العظيم واكنها ما لبثت ان ظهرت في صورة التمني وفي عهد قسطنطين الذي أذن لهم بالدخول مرة في السنة من أسوار بيت المقدس ليندبوا مجدهم الزائل وما زالوا الى يومنا هذا يدنون من حائط الحرم الشريف الخارجي المسحى بالبراق ويتذكرون مجد ملوكهم وعظمة هيكلهم ومدنيتهم و يطلبون من الله ان يعيد ما خسروه . واكن رجال النهضة منهم لم يقفوا عند حد التمني فألف الدكتور هارتشل الجمعية الصهيونية التي جعلت همها الوحيد جمع المال وتوحيد كلمة اليهود على اختلاف لغاتهم وبلدانهم وجمعهم في بلد واحد امين . وعهدت الجمعية الصهيونية الى الايك بالاستعمار التدريجي كما عهد الى جمعية الاتحاد الاسرائيلي بالتهذيب والتعليم .

وقد كتب المرحوم شكري بك العسلي في هذا الصدد يوم قام الاسرائيليون لابتياح سهل يزرعيل ما نصه : ان الجمعية الصهيونية اليهودية ورفيقاتها جمعيات ايكافاعوليم والاليانس وغيرها ساعيات في استرجاع فلسطين التي وعدهم بها ربهم في الاصحاح الثاني والثلاثين من أرميا من الكتاب المقدس الباحث في اسر بابل لليهود والذاكر وعد الرب برجوعهم الى فلسطين بقوله في آخره : « يشترى الحقول بفضة ويكتبون ذلك في صكوك ويختتمون ويشهدون شهودا في ارض بنيامين وحوالى اورشليم وفي مدن يهودا ومدن الجبل ومدن السهل ومدن الجنوب لاني ارد سبيهم

يقول الرب اه « . وذلك بعدما سبثهم حكومة الكلدان على انهم لم يستطيعوا البقاء بعد ذلك لانهم اصبحوا محل النزاع بين حكومة الرومان في مصر وحكومة الرومان في انطاكية ثم انقضوا ولم يبق لهم ملك ولا دولة . والآت عملاً بهذه الآية يشترون الاراضي في فلسطين على حساب الفضة وشرطون البيع على ان يكون الثمن فضة ويكتبون الصكوك ويشهدون وهكذا تراهم لا يفترقون طرفة عين يتجسسون اخبار من تأخرت حالتهم المالية من اهل هذه البلاد وهي عبارة عن لواء عكا بأجمعه ولواء القدس ولواء نابلس وقسم من لواء الكرك وبعض من قضاء عجلون ويطمعون البائع بالثمن الفاحش ويكتبون الصكوك ويشهدون عليها ويسجلونها عند محرر المقاولات وعند بعض القنصليات وكانت الحكومة قبلاً منعت استعمارهم ولكن بما بذلوه من الدنانير التي تسخر الباب الخائنين من الحكام والمستخدمين استطاعوا ان يستولوا على ثلاثة ارباع قضاء طبرية ونصف قضاء صفد واكثر من نصف قضاء يافا والقدس والقسم المهد من نفس حيفا وبعض قراها واليوم يسعون للدخول الى قضاء الناصرة ليستولوا على سهل شارون ويزرعيل المذكور بالتوراة والمعروف اليوم بمرج بني عامر الذي يشقه الخط الحجازي من الغرب الى الشرق .

« وهكذا اشتروا الكثير من القرى واستولوا عليها وهم لا يخالطون العثمانيين ولا يشترون منهم شيئاً ولم ينك انكافلسطين يقرضهم بفائدة لا تتجاوز الواحد في المائة في السنة وقد جعلوا كل قرية ادارة فيها مدرسة وكل قضاء مديرية وكل جهة مدير عام ولم راية لونها ازرق وفي وسطها خاتم سليمان وتحتة كلمة عبرانية معناها « صهيون » لانه جاء في التوراة ان اورشليم ابنة صهيون ويرفعون هذا العلم مكان العلم العثماني في اعيادهم واجتماعاتهم وترنمون بالنشيد الصهيوني وقد احتالوا على الحكومة فقيدا انفسهم عثمانيين في سجل النفوس كذباً وبهتاناً وهم لا يزالون حاملين الجوازات الاجنبية التي تحميهم وعند ما بصيرون الى المحاكم العثمانية يظهرون جوازاتهم ويدعون الحماية الاجنبية ويحلون دعاويهم واختلافاتهم فيما بينهم بمعرفة المدير ولا يراجعون الحكومة ويعلمون ابناءهم الرياضة البدنية واستعمال السلاح وترى بيوتهم طافحة بالاسلحة

وفيهما كثير من المارتين ولهم بريد خاص وطوابع خاصة وغير ذلك مما يبرهن على انهم بدأوا بتأسيس مقاصدهم السياسية .»

الحرب العامة والسياسة
الامانية والاخلاق
التركية

وخرجت الدولة من حرب طرابلس والبلقان واليمن
وكردستان وغيرها من البلدان بحردة من قوتها من
المال والرجال ، ولم تكد تفكر في جمع شتاتها حتى
قتل ولي عهد النمسا في مدينة سراجيفو من بلاد الصرب وأعلنت الحرب العالمية ،
فكان نصيب الدولة العثمانية ان تسير مع المانيا والنمسا والمجر محالفة لن على بريطانيا
العظمى وروسيا وفرنسا وغيرهن من الدول ، وكانت ذلك بتزبين الاتحاديين وفي
مقدمتهم طلعت باشا وانور باشا وجمال باشا ، وقد كانت الدولة تميل منذ نحو ثلاثين
سنة لالمانيا منذ زار امبراطورها غليوم الثاني بلاد الدولة مرتين وقال في المرة الثانية
(١٣١٦) لما زار القدس ودمشق في خطاب له القاء في بلدية دمشق : « اجمع من
صميم الفؤاد بانني وطئت بلداً عاش فيه من كان اعظم ابطال الاعصر السالفة بأسرها
الذي كان بأفعاله يعلم اعداءه أنفسهم كيف تكون الابطال ، العالي المقدار المشهور
السلطان صلاح الدين الايوبي . قال وليتأكد حضرة السلطان عبد الحميد خان الثاني
صاحب الخلافة العظمى والثلاثمائة مليون من اهل الاسلام المرتبطين بمقام خلافتهم
المنتشرين في جميع اطراف الكرة الارضية ان امبراطور المانيا يتي صديقاً لهم
إلى الابد » .

انتهجت المانيا السياسة الاسلامية واتخذت لها دعاة من دهاة رجالها في الاستانة ،
فتم لها ما ارادت بعد سنين من الاستعانة بالدولة العثمانية على حرب اعدائها ، واستسلم
رجال الدولة لما تم مخدوعين بالاقوال المبهجة مأخوذون بالوعود اللطيفة ، وكانت
السلطان محمد رشاد وهو لا يعقد ولا يربط في شؤون السلطنة ، يقاوم الذين يريدون
اصلاء الحرب في الدولة لعله بمضارها ، ولم يوافق عليها بعض الوزراء فخرجوا من
الوزارة الا انور وطلعت وجمالاً وهم الحركة العاملة في الدولة ، ارادوا خوض غمارها
متشبعين بالروح الالمانية ولا سيما انور ، وعلقوا على المانيا امانيتهم في ارجاع الدولة الى

عزها أيام سليم وسليمان ، وما كادت تعلن الحرب حتى نفذ الوزراء الاربعة الذين لم يقولوا بدخول الدولة في الحرب ومنهم سليمان افندي البستاني من اهل الشام خطتهم وقدموا اقاتلتهم تاركين الحكومة في ايدي الاتراك . اما سعيد حليم باشا الصدر الاعظم الذي كان عزيم ان يستقيل فدفعه حبه للفخر والأبهة والمعظمة ان بقي في رأس اعظم منصب في الحكومة التركية ، فلم تك اذاً نتيجة دخول الدولة في الحرب الا توحيد السلطة في المملكة في ايدي رجال الاتحاد والترقي ، وانتهت الثورة التي كانت ترمي الى جعل تركيا دولة دستورية بجعل تركيا حكومة مطلقة رائدها الظلم والاستبداد وغاية افرادها الاولى النفوذ والسلطة والكسب على ما قال سفير اميركا في الاستانة لاول الحرب .

وعلى ذلك شرعت الدولة لاول وهلة تعي جيشها ، واخذت من الشام سبعمائة وعشرين قرعة كادت معها حركة العمل تقف وقوفاً صريعاً ، ولم تلبث الدارعتان الالمانيتان غوبن و برسلو ان دخلتا في ميناء الاستانة ملتجئتين من مطاردة الاسطول الانكليزي لهما في عرض البحر الابيض ، وسلمت قيادتهما بالصورة الظاهرية الى العثمانيين ، فعدت روسيا هذا العمل من الدولة العثمانية اعلاناً لها بالحرب ، وما فتئت ايدي الالمان ان تغلغل في جميع فروع الادارة في السلطنة ، واخذت المانيا تغدق الذهب الوهاج على الدولة ، وكان لانور باشا القائد الام وناظر الحربية قسط عظيم منه لا يسأل فيما اتفق ، وبدأ الالمان يغرون الاتراك باستعمال الوسائل الوحشية في معاملة الاجانب والعثمانيين معاً ، ويفيقون خاصة على غير المسلمين من الارمن والاروام ونسارى الشام . وزعم سفير اميركا في الاستانة انه درس اخلاق الاتراك فعلم علم يقين ان أقوى عواطفهم عاطفة الخوف فهم لا يحبون ولا يبغضون بل يخافون ويريدون غيرهم ان يخافهم .

وقال نومان الالماني ^(١) : ليس استيلاء الاتراك من حيث الاجمال في ظلمه مثل ما كان يصوره غلادستون في خطبه قديماً على مقدونية . فاتركي ليس بعيداً عن

الانسانية اذا ترك مطمئناً وغاية ما كان يتطال اليه : خواجه وراحته . ومن الخطا ان يبالغ في عبء الاموال التي كان الاتراك يفرضونها على البلاد . فقد روى لي اناس واقفون على اطراف المسألة ان البلغار بين يؤدون اليوم الى ماليتهم خمسة أضعاف ما كانوا يدفعون على عهد الحكم العثماني ، وفي الجملة فان تحرير البلغار من سلطة الاتراك لم يكن اقتصاداً بل كان فيه مضاعفة التكاليف . وما كان الضغط التركي الا سلبياً لا ايجابياً ، وذلك لانه كان يقيد القرائح والاذهان ، ويصد الكفاءات وقوى الارادة عن الانبعاث ، فكان الشعب البلغاري يتنبت يعيش كالكائنات المنتظمة ولكن بدون حرية ولا ارادة شخصية ، وبنيل هذه الصورة يتيسر لشعب ان يعيش سليماً ولكن هذه الصحة ليست لها غاية اذ لا يتأقى المرء معها ان يخص حياته لامر مهم اه .

قسط الشام من الحرب } دخلت الدولة في الحرب وقاتل ابناء الشام في
وعمل جمال باشا } الجبهات الحربية المختلفة . قاتلوا في جنات قلعة
ورومانيا وديروبيجة وقافقاسيا والعراق والسويس وشبه جزيرة سيناء فهلك منهم
عشرات الالوف ، وقاست الشام انواع الحرمان والامراض فهلك منها ولا سيما في
لبنان من الجوع فقط نحو ١٢٠ ألفاً ومثل ذلك بالحميات ولا يقل الهاكون من ابناء
الشام عن ثلاثمائة الف انسان مدة اربع سنين .

وفي الحق انه لم يقع حرب جديدة في الشام ، بل كان ابناءؤه يساقون كسار
العثمانيين الى الجبهات الاخرى ، والجبهة الوحيدة التي كانت بجوار الشام جبهة الاسماعيلية
فلم تنشب الحرب حتي ندب الاتحاديون احد كبار رجائهم احمد جمال باشا ناظر البحرية
العثمانية اذ ذاك قائداً على الجيش الرابع ، وكانت منطقته تمتد من اقاصي حدود اذنة
الى المدينة المنورة ، وأخص اعماله أن يشغل البريطانيين في حدود مصر ليضطروا
الى وضع قوة مهمة من جيشهم في ترعة السويس ، تخفف عن الدولة في جنات قلعة
من جيش الحلفاء ، وعن عاتق الالمان في الجبهة الغربية بين الحدود الالمانية والفرنسية ،
وهذا تدبير الماني صرف وقد نجح بمشاعلة البريطانيين واشغال اذهان قوادهم ، فوضعوا
على التركة وفي حدود سيناء جيشاً عرمرماً انقاء جيوش الترك والالمان .

وكان بعضهم يعتقدون ان افئاس مصر والتغلب على البريطانيين في الترة من الامور السهلة ، لان مصر بين يقومون في الحال بشورة على البريطانيين عندما نترأى لهم أعلام العثمانيين المحبوبة في وادي النيل . قال سفير اميركا في مذكراته : وكان جمال باشا ناظر البحرية واحد الثلاثة الذين يدرون دفة الملك في تركيا ذاهباً الى الشام ليستم قيادة الجيش الرابع السلطاني ، وكان الجيش بحبه ويهتفله بانه مختص مصر ، فأعلن جمال باشا على رؤوس الأَشهاد قبل سفر القطار من الاسطانة ، انه عقد النية ان لا يرجع الى الاسطانة قبل افئاس مصر . قال : لم اكد اري ذلك المشهد الفخم حتى رجعت بي تخيلتي تطوي الاعوام والقرون الى ان استقرت في تاريخ رومية على مشهد يشبه ما رأيته في القرن العشرين الا وهي حفلة وداع مرقس أنطونيوس حين غادر رومية ليخضع الشرق ، فكانت تركيا مثل رومية في ذلك الوقت في دور الانحطاط والانحلال ، فرأى جمال باشا ان يبذل جهده لعله يتمكن من أن يصير حاكماً على ولاية غنية ، وكان يؤمل انه ان أفلح بافئاس مصر ينال شهرة عالمية واسعة اه .

جاء جمال باشا الى الشام وقبض على زمام القوة واكثر الاحكام فيها ، وبدأ بهيً بواسطة الالمات حملته على الترة فسارت الحملة (٤ شباط ١٩١٥) فرقتين فرقة منها اجتازت المسافة من السبع الى القنسة في ستة ايام والاخرى في عشرة ، وقطع الجيش الصحراء التي تبلغ مسافتها ثلاثمائة كيلومتر ، دون ان يقع في معضلة من حيث الماء والتموين ، وكشف القسم الواقع بين بحيرة التماسح والبحيرة المالحة من القنسة ، وهجم قسم من المفرزات بواسطة الجسور العوامة الى الساحل المقابل بالحراب على البريطانيين ، فأغرقت المدافع المنبعثة من ست طرادات انكليزية الجسور العوامة ، وقبضوا على من جازوا الساحل الآخر من الجند العثماني واكثرهم من أبناء الشام ، وقتل في معركة الاسماعيلية بنقدير جمال باشا في مذكراته ١٩٢ قتيلاً و ٣٨١ جريحاً وأخذ ٧٢٧ أسيراً ومتغيباً وقدر البريطانيون ما فقد من الترك بالف قتيل والني جريح وستمائة وخمسين أسيراً . وعاد العثمانيون أدراجهم مغتبطين بزعمهم انهم يستطيعون ان أرادوا بجسورهم العوامة ان يقطعوا الترة الى الشق الآخر ويستولوا

على مصر . وكان الجيش البريطاني الذي هاجمه الترك على التربة مؤلفاً من جيش هندي قوي وفرقة من الجنود البريطانية وجيش قوي من أستراليا ونيوزيلندا ، وأربعين ألف رجل من الاحتياطي وراء الخنادق المنيقة التي حفرتها التربة ونحو مليون جندي وعامل مصري استخدموا في خدم ثانوية أفادوا بها الجيش البريطاني فائدة عظيمة .

وأنفق العثمانيون نفقات طائلة على السكك الحديدية حتى وصلت الى بئر السبع وصرفوا على هذه القرية مئات الألوف من الليرات لتحسينها وتحصينها أما البريطانيون فأخذوا بعد تلك الحملة العثمانية التي فشلت يتقدمون في الصحراء نحو بلاد الشام ، يمدون الخطوط الحديدية في الزمالة تحت حماية مدافعهم ، وما زالوا يسرعون في تمديد الخطوط في صحراء الجفار بحيث كان معدل ما ينشئون كيلو مترين كل يوم ، وهكذا حتى اقتربوا من العريش فلم يتقدموا خطوة الى الامام الا بحسب طريقةتهم المعروفة في فتوحهم اي بقدر مرمي المدافع ، ريثما تهم الخطوط الحديدية وتؤمن السبل حق الامن .

* * *

إهلاك أحرار الشام والسياسة
الاتحادية مع العرب
خطب جمال باشا لأول شخصه الى الشام
في النادي الشرقي بدمشق (١٣٣٣) قائلا :
يجب عليكم يا أبناء العرب ان تحبوا مكارم اخلاق العرب ومجدهم ، منذ شروق انوار
الديانة الاحمدية ، أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبل الاسلام ،
عضوا على عربيتكم بالنواجذ ، ودافعوا عنها بكل قواكم ، إعملوا على ترقية العرب والعربية
جددوا مدنيتكم ، قوموا قناتكم ، كونوا رجالاً كاملين — جهز بهذا على رؤوس
الإشهاد وقال مثله لارباب الاقلام في مجالسه الخاصة ، بهد انه كان يفكر وجماعته
من الاتحاديين في الطرق الى الانتقام من العرب المخالفين وانزال العقوبة بمن رفعوا
أصواتهم بالمطالبة بحقوق لامتهم فعدوهم خائنين للدولة ، وما هم الا مخالفون على الاغلب
والمخالفة طبيعية في كل حكومة دستورية بل في كل حكومة ، نظهر وتسنثر بحسب
الاحوال والدواعي ، وُعدَّ الائتلافيون اي الداخلون في حزب الحرية والائتلاف

خائنين في نظر الاتحاد والترقي ، وكان بعض أعضاء الحزب ينزعون منزعا انكليزيا اي يحجون ان يعملوا بمشورة بريطانية وبعض حزب الاتحاد ينزعون منزعا المانيا وحسب الاتحاديون من الخائنين ايضا جماعة الاصلاحيين في بيروت اي المطالبون بالاصلاح في ظل العثمانية ، واللامركزيين اي المطالبون بتوسيع سلطة الحكومات المحلية . وكان هذا الحزب تألف في مصر من جماعة من الشاميين وانشئت لهم فروع في بعض مدن الشام وقصباته ، وتألف حزب فتیان قحطان في الاستانة . وهكذا قل في جمعية العهد العسكرية والجمعيات اللبنانية المختلفة المقاصد في لبنان والمهاجر .

فلما دخلت الدولة في الحرب رأى الاتحاديون ان الفرصة آذنت للقضاء على كل فكرة جديدة تخالف ما هم عليه وأصحابهم في سياسة الملك ، وتلقى الرهبة والهول في كل القلوب ، واعتزوا بمحالتهم مع الالمان وبالأموال التي كانت تقرضهم اياها بالملاهين ، وليس أحسن ملائمة من هذا الدور من تولي أحد كبار أساطينهم احمد جمال باشا زمام القوة في الشام ، وهو الذي كان تولى قتل المخالفين في الاستانة من الاتراك أنفسهم وقتل حتى صهر السلطان ، فأصبح متمرنا على الانتقام من كل من يخالف مذهبه السياسي ، او كما قال عن نفسه في آخر خطاب ألقاه في دار الحكومة بدمشق ان طالعه كان القتل ، ندرّب لقتال الناشزين من الاتراك كما عهد اليه قتل الناشزين عن الطاعة من العرب .

ولما ندرّب جمال باشا لقيادة الجيش الرابع حمل معه أضاير التهم والتحقيقات وثقار الجواسيس الموجهة لمئات من أبناء الشام ، وبينهم أناس من أهل الطبقة العليا وكثير من الشبان المتعلمين . فألقى عصا التسيار في دمشق وشرع بالتحقيق عن زمرة هؤلاء المتهمين ، وألف ديوانا عرفيا في عالية من لبنان فحكم اوائل آب ٣٣١ ش على ١١ رجلا نفذ فيهم حكم القتل صلبا في ساحة البرج في بيروت وكانوا متهمين بالدخول في حزب اللامركزية ، ثم شرع بالقبض على طبقة أخرى اكثر علما وتأثيرا ومكانة في البلاد ، ومدار نعمة الفربق الثاني او القافلة الثانية انهم حاولوا سلخ سورية وفلسطين والعراق عن السلطنة العثمانية وجعلها امارة مستقلة وموازرة الدولة البريطانية ، ولكن الحكومة التركية اتهمتهم انهم كانوا يعملون لادخال الاجانب

(الفرنسيون أو الإنكليز) إلى الشام في حال الحرب على أن هذا ليس بصحيح . وإذا نفوه به بعضهم لأحد القناصل طمعاً في إمارة أو مظهر من المظاهر فلا يسري اعترافه على الجميع . ويقول جمال باشا في مذكراته رداً على من يقول أن الأشخاص الذين أجزموا وظهرت أدانتهم وشنقوا في سورية قد شملهم العفو العام الصادر في سنة ١٩١٣ فحماكتهم فيما بعد على التهم نفسها عمل غير قانوني — أنه قد بين في الكتاب الأحمر المسمى (حقيقة المسألة السورية) أن أولئك الأشخاص اتخذوا العفو العام وسيلة للقيام بأعمال جنائية جديدة ، وأن أدانتهم ترجع إلى جرائمهم بعد ذلك العفو ، وإذا كانت الوثائق الخاصة بأدانتهم قبل العفو تعتبر قرينة قوية ، بدا للحكومة أن تفحصها ونشرها لتبين للملأ مبلغ شناعة خيانتهم اه . وبعد أن أورد بعض الوثائق السياسية قال : فمن تمحيص هذه الوثائق يدرك الإنسان بسهولة أن الحكومة الفرنسية بذلت أقصى ما في استطاعتها لتهميد الطريق لضم سورية بحجة حماية العرب . وفي الحق أن أعمال بعض من صلبوا قد ظهرت في أوراق قناصل فرنسا في دمشق وبيروت وحلب وغيرها من مدن الشام ، فانهم أبقوا أوراقهم في أماكنها بعد دخول الدولة في الحرب فانكشفت بذلك أسرار مهمة ساعدت الاتحاديين على الإبلاغ في عقوبة مخالفاتهم . أما قناصل بريطانيا فقد أحرقوا أوراقهم ومنهم من استظهر الخطط الحربية المتعلقة بالشام ، فبما بذلك كل من كان له صلة من الأهلين بقناصل بريطانيا العظمى .

وقد حكم الديوان العرفي في عاليه على ٢١ رجلاً بالقتل وهم القافلة الثانية فصلبوا في بيروت ودمشق في يوم واحد (٤ رجب ١٣٣٤) صلب سبعة في دمشق والباقيون في بيروت ، وكان فيهم الأبرياء الذين ما أرادوا قط خروج الشام عن حكم الترك ، و صلب بعض وجوه الموارنة ورهبانهم لأنه ثبتت عليهم دعوة فرنسا للاستيلاء على الشام . ولما قبض على الرعيل الأول في السنة الأولى للحرب سألت خلوصي بك والي دمشق ، وكان يفيض معي بمسائل الدولة بحرية تامة ، وكان من الأحرار العقلاء في السلطنة ، وهو أتم تركي وأعقل عامل رآته الشام في الأربعين السنة الأخيرة قائلاً : كنتم أمس في بيروت فماذا رأيتم يا سيدي في قضية أولئك المتهمين وما هو وجه تهمتهم

ياترى ؟ . فأجاني بما تعرفه بالحرف : « سلسلة من التزويرات والتلفيقات عليهم قاتلهم الله وأخزاهم » . اي قاتل الله المزورين والملفقين ويعني بهم الاتحاديين . ومن الغريب انه سيق الى القتل بعض من كان نالهم العفو يوم أغلقت الحسابات القديمة مع الدولة ، كجماعة الاصلاحيين الذين نالوا بعض المطالب بعد مؤتمرهم في باريز ، فانهموا بمسائل أخرى ارتكبوها ، واغرب منه ان يتطوع بعض ابناء البلاد بالجاسوسية للترك ويشهدوا على رجالهم في الديوان العرفي بما اوصلهم الى اعواد الصلب ، وان يتوسع بعض المصلوبين في شهاداتهم واستنطاقاتهم ويدخلوا في زميرتهم عشرات من الشبان وغيرهم حتى لا يبقى بيت عامراً في الشام ، وتسقط بزعمهم مكانة تلك القضية فيطوى سجلها بما فيه ، ولكن رجال الديوان العرفي كانوا اعقل من ان تغرهم هذه الظواهر ، واكتفوا باصدار احكامهم على من ثبتت ادانتهم بحسب الخطة المرسومة او اقتضت مصلحة الاتحاديين القضاء عليهم من نبهاء البلاد ، وهدد جمال باشا بالقتل اعضاء الديوان ان لم يحكموا على المتهمين السياسيين فوافق بعضهم على القتل اضطراراً لا اختياراً .

وقد ذكر شكيب ارسلان ان خطأ جمال باشا في رأيه وجنابته الكبرى على العرب والترك في فعله هما من الوجوه الآتية :

اولاً — ان فريقاً آخر من الذين قتلهم ابرياء من خيانة الدولة ولم يكن لهم ذنب سوى وجودهم في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقي ، والقانون العثماني لا يعرف الاتحاد والترقي بل السلطنة العثمانية .

ثانياً — ان فريقاً آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية ولاقرائن قطعية تذهب في جرائمهم الى درجة القتل وقد برر جمال هذا العمل فيما بلغنا من نفس رئيس الديوان العرفي بانه من باب « القتل السياسي » مع انه كان الاولى بهؤلاء ان يتركوا الى حكم القانون فيحكم عليهم بحبس او نفي على حسب درجة جرمهم .

ثالثاً — على فرض غير الواقع ، وهو ان هؤلاء مجرمون اعداء للدولة ، فلم يكن من باب السياسة ولا حسن الرأي ، فتح هذه المسألة اثناء الحرب ومجازاة اناس قد عني عنهم ونك القروح التي كانت قد سكنت نوعاً ، واثارة عواطف العرب وحفائظهم

واظهار كون الترك يريدون الانتقام في هذه الفرصة التي سئحت لهم للبطش وتعزير النزعة الاجنبية بهذه السياسة .

رابعاً — ان الالوف الذين نفاهم الى الاناضول مع عيالهم وخرب بيوتهم ، وامات كثيرين منهم في الغربة لم يكن منهم مائة شخص يدرون ما هي السياسة ، فضلاً ان يكونوا خائنين للدولة فكان تغريبهم عن اوطانهم مجرد عذاب وقير ، بدون ادنى فائدة ، سوى النفور مع تكليف الدولة عليهم ١٥٠ الف ليرة شهرياً فكان خطأ جمال انه سلح اعداء السلطنة العثمانية وانصار الشقاق بين العرب والترك ورواد السياسة الاجنبية الكثيرين في الشرق بسلاح من البراهين لم يكونوا يملكونه فيما لو كانت الاتراك انصرفوا من بلاد العرب بدون اعمال جمال ١٠٠٠ هـ .

وبعد فقد عمل جمال باشا ما عمل بقرار من جمعيته ، وكان من ورائه انور باشا يحته على اهلاك هؤلاء الذين صلبوهم . وقد جاء هذا مرة الى عاليه من لبنان فقال — على صورة الاستنكار : « اما قتلتم بعد هؤلاء الخونة » . وكان انور باشا نمراً مفترساً في صورة حمل وديع ، والدم في نظره ونظر رفاقه طلعت ومدحت وناظم وشركايم احلى في المذاق من طيب الشراب خصوصاً اذا كان صاحبه غير تركي ، ومساويه ومساوي اصحابه اكثر من ان تحصى ، تجردوا من كل عاطفة ومن كل دين ، وعاطفتهم دهان وتظاهروا بالدين رياء .

وقبل تنفيذ الاحكام بالجوقة الثانية كان قائد الجيش الرابع ينفي من الشام الى سيم الاناضول أسراً برمتها ، وفيهم بيوت من صلب رجالهم بالتهمة السياسية وممن جلاهم أناس من الغوغاء والقتلة القدماء واشترك في هذه النكبة المسلمون والمسيحيون وغيرهم على السواء ، خصوصاً من كان لهم صلة بدولة من دول التحالف فرنسا وبريطانيا وروسيا ، ثم طمع الاتحاديون ان يتوسعوا في تأديبهم واعدوا في الاناضول الوقا من الدور ليجلوا النابيين من سكان الشام الى تلك البلاد وكان الاتحاديون قرروا في مؤتمريهم ان يجلوا العرب الى بلاد الترك ويستعيزوا عنهم في الشام بأناس من شذاذ الآفاق وان يعاملوا مهاجرة الشام كما عاملوا الارمن يوم جلوهم عن بلادهم اي ان يقتلوهم على بكرة ابيهم في الطرق و يغتالوهم بالطرق التي اغتالوا بها اعداء الارمن . وشرع

الترك يقبضون على جوقة ثالثة من وجوه الاهلين ومنور يهم ويعذبونهم بتهم سياسية وجهوها اليهم منها ان لم ضلعاً في انشاء حكومة عربية ومفاوضة شريف مكة بذلك .

خلع شريف مكة } كانت البقية الباقية من منوري الشام تتخاف سوء
طاعة العثمانيين } المغبة من عمل الاتحاديين خصوصاً بعد ان صرنا على
وتأثيره في الاتراك } ازهاق النفوس ، ورفعوا حجاب الوهم الذي كان
مسدولاً فرفعوه وعرفوا ما تحته يوم جسروا على قتل كبراء الامة ولم ينتطح عزان .
وكادت النوبة تصيب اهل الطبقات الثالثة والرابعة يوم اعلن الشريف حسين بن علي
امير مكة المكرمة استقلاله بملك الحجاز (٩ شعبان ١٣٣٤ هـ حزيران ١٩١٦ م) وثار
العرب على الترك في مكة وقتلوا الحامية التركية واسروا اكثرها وحوصرت المدينة بعربه ،
وذلك بتدبير الحلفاء واموالهم ، فشغل الترك بهذه المصيبة التي لم يكونوا يتوقعونها
واخذوا يستميلون اليهم رجالات الشام ويستبدلون اللين بالشدة ، واذ كانوا على عزم
انفاذ حكم القتل برجال من القافلة الثالثة بعث ملك الحجاز الجديد بواسطة جمهورية
اميركا المتحدة لانها كانت على الحياد بان كل منفي عربي او مسجون اذا أصيب بادن
اهانة فهو مستعد ان يعمل اضعافه مع الاتراك الذين في اسره فكف الاتحاديون عن القتل ،
واطلقوا سراح السجناء مرغمين بعد ان عذبوهم انواع العذاب ، فعده ذلك من حسنات
الملك حسين ، ولقد آلم الاتحاديون قلوب السور بين بقتل طبقة مهمة من الشبان والكهول
والشيوخ ، ونفي النساء والاطفال الى بلاد الترك ، ومع هذا لم تقصر الشام في تقديم
ابنائها للحرب جنداً ، ولا اموالها وعروضها لمعاونة الجيش ، ولا ارزاقها وحيواناتها
وذخايرها لخدمته ، فحنق على الدولة من كان يريد انتصارها ، وتأصلت العداوة بين
الترك والعرب ، وما كانت العداوة في الحقيقة الا بين دعاة الاتحاديين والمستنيرين من
العرب ، حتى لا يبقى بعد الحرب رجال يستطيعون ان يرفعوا اصواتهم بمطالبة الدولة
بشيء من الاصلاح .

ومنذ نادى الملك حسين باستقلال الحجاز اخذ الضباط العرب وغيرهم من
العراقيين والشاميين واليهانيين ممن وقعوا في اسر دول الحلفاء ، او كانوا في خدمة

الجيش التركي على مقربة من الحجاز أو في الجهات البعيدة جداً كجهة القافقاس ينضمون إلى جيش الحجاز العربي فألفوا جيشاً لا بأس به يرجع إلى نظام في الجملة ، وهذا الجيش هو الذي قاتل الترك في الشام ، وادّفع الشغب في الفياق التركية وقت في عضد الدولة العثمانية في بوادي الحجاز ، وساعده ما كان ينهال من الأموال الانكليزية التي استمال بها ملك الحجاز والقواد أولاده الأربعة العربان في الشام والحجاز ، وتسرب قسم منها إلى كبار الضباط من أبناء العرب ، وكان لجمعية العهد يدطولى في التماق ضباط العرب بصاحب الحجاز ، وهذه الجمعية كانت مؤلفة في الأغلب من ضباط العرب في الدولة كما كان مثل ذلك لجمعية الفتاة العربية التي ألفت في باريز قبل الحرب بنحو خمس سنين من كبار المفكرين من أبناء العرب وخصوصاً الشاميين وضمت إليها بعض كبار أعيان البلاد ومفكرين فيها وفي مقدمتهم انجال شريف مكة وابلغوا والدهم قرارهم وامتدت دعوتهم إلى جبل الدروز .

وقدر بعض الواقفين عدد من انضم من البدو إلى الجيش العربي في جميع الجهات بما يناهز المئة ألف والعسكر النظامي لا يتجاوز الخمسة آلاف . وقال بعضهم ان البدو لم يتجاوزوا السبعين ألفاً يكثرون و يقلون بحسب الحاجة والنظامي وهم من أبناء العرب الأسرى من الجيش التركي أو الفارين منه خمسة آلاف وان النظامي لم يتجاوز هذا القدر .

وكان شاعر الثورة الشيخ فؤاد الخطيب يحفز أرواح هذه الأمة بشعره ومما قاله في الثورة من قصيدة :

| | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| حيّ الشريف وحيّ البيت والحرما | وانهض فمثلك يرعى العهد والذما |
| يا صاحب المهمة الشياء انت لها | ان كان غيرك يرضى الأين والسأما |
| واسمع قصائد ثارت من مكامنها | ان شئتها شهباً او شئتها رجما |
| من شاعر عربي غير ذي عوج | قد بارك الله منه النفس والكمبا |

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| يا آل جنكيز أن تثقل مظالمكم | على الشعوب فقد كانت لهم نعماً |
| فالظلم أبقظ منهم كل ذي سنة | ما كان ينهض لولا انه ظلاماً |

ارهقتم الشعب ضرباً في مفاصله
فالشنق عن حنق منكم وموجدة
هيئات يصفع عنكم او يصالحكم
حتى استفاق وسلّ السيف منتقما
قد ارهف العزمات الشم والهमा
حرثاً ولو عبد الطاغوت والصنما

* * *

يا ابن النبي وانت اليوم وارثه
والنف حولك ابطال غطارفة
فاصدم بهم حدثان الدهر مخترقا
قد عاد متصلاً ما كان منفصما
شم الانوف يرون الموت مغتنما
سداً من الترك ان تعرض له انهما

* * *

يامن الحء علينا في ملامته
لو كان من يسمع الشكوى كصاحبها
بعض الملام وجرب مثلنا الألما
مضى لما ضج بالزعم الذي زعما

* * *

ايه بني العرب الاحرار ان لكم
يستقبل الناس من أنفاسه ارج
تلك الحياة التي كانت محجبة
سارت مع الدهر من بدو ومن حضر
من ذلك البيت - من تلك البطاح - على
فجراً أطل على الاكوان مبتسما
ما هب في الشرق حتى انشر الرما
في الغيب لا سأمًا تخشى ولا سقما
حتى استثبت فيك كانت نهضة عمما
تلك الطريق - مشيت اجدادنا قدما

* * *

استم بنيتهم واستم من سلاتهم
الى الشام - الى ارض العراق - الى
ان لم يكن سعيكم من سعيهم أمما
اقصى الجزيرة - سيروا واحملوا العلما

* * *

أما في الاتراك وخبيتهم
وتخر بهم
كما طال امد الحرب كانت حالة البلاد تسوء ،
وقد اتى الجند وبعض ضباطهم وعمال الحكومة من
ظلم الناس بامم الجيش والتكاليف الحربية ماضقت به الصدور وغلت مراجل الاحتاد
وساءت الاخلاق ، وكما دامت الحرب شهراً زاد الناس من الدولة اشمئزاً وقهراً ،
ومن يجسر والاحكام العرفية سائدة وسلطان الفرع الاكبر فاغرفاه ، ان يقول كلمة

خير ، او يرفع مظلمة او ينقد معوجاً ، فان التعذيب كان مصير من يجرأ على ذلك ، والسجن والقتل كان يتهدده كما وقع لمئات في دار الملك ومنهم اصدقاء انور باشا وشركاؤه في اعماله ، قتل بعضهم لانهم قالوا بطلب الصلح من الحلفاء ، وان الدولة تحاول بحربها الانتحار . قال سفير اميركا : « رأيت انور في احد الايام وقد اشتدت وطأة الضباط على الفلاحين والتجار فقلت له ان تلك الاعمال (نهب التجار والفلاحين باسم الجيش) تفضي بالمملكة الى الخراب العاجل والدمار الاكيد ، ولكنه لم يعبأ باقوالى ولم يخفق فؤاده ألماً لتلك الاعمال بل كان يفخر بانه انشأ جيشاً كبيراً مجهزاً من لاشي . بلغ عدد الجنود التي جمعها انور نحو مليون ونصف مليون ، وبقي نحو مليون أسرة في انحاء المملكة وليس لهم من يساعدهم على القيام باعباء الحياة ، وقد فتك بهم الجوع فتكاً ذريعاً . اما الحكومة التركية فكانت تدفع لكل جندي في جيشها نحو ربع ريال في الشهر اه » .

قلما ان الدولة جمعت في الشام سبعة وعشرين قرعة أي من ابن الثامنة عشرة الى ابن الخامسة والاربعين وكان معدل ما يجمع من كل صنف ثمانية آلاف جندي فيكون مجموع المجندين من السور بين مائتين واربعين الف مقاتل فر منهم بحسب الاحصاءات الرسمية الى آخر الحرب نحو مئة وخمسين الف جندي وظل في الخدمة بين اسير ومريض ومستخدم في خدمة خفيفة ببلده نحو خمسين ألفاً وقتل نحو اربعين ألفاً . ولو أردنا تفصيل ما وقع من الجيش ولاجل الجيش واهمه استباحة الاعراض المصونة والعبث بالمقدسات والشخصات لاقتضى لذلك مجلد برأسه ، فقد فسد الاخلاق بحيث لا يتأتى ان تصلح الا بفناء معظم من تلوثوا بتلك اللوثات والهنتات ، وكانت لنضب مواد البلاد الحيوية يوماً بعد يوم ، وقل الفهم الحجري جداً فاخذ الاتراك يسIRON القطارات في بلاد الشام بالحطب ، يقطعون الزيتون والكيينا من فلسطين ، والجوز والشمش والحور من الغوطة ، والسنديان والزان والصنوبر من لبنان ، والزيتون والفسق من حلب ، والغضا من الحجاز ، واشتد الجوع وعزّ الخبز ، واصبح الغني يقتبط بانه ينال قوت يومه على ايسر وجه ، وذل اعظم عظيم في هذه الديار امام جمال باشا واشياعه من الاتحاديين ، وصانعه اكبر البقية الباقية من الاحرار مخافة ان ينالهم من

ظلمه ما نال غيرهم ، وكان الموت معلقاً بين شفتيه ومن لا يصانعه يذله ، وربما قتله أو نفاه من هذه الارض . وكان يعمل ما يريد ثم يكتب الى الاستانة بما حصل . ومن اغرب الاحكام أن يجعل القتل في ايدي العرفاء والنقباء من صفار الضباط ، فكان لاحدهم اذا قبض على عشرة فارين فله ان يهلك واحداً منهم بالقرعة ! وهكذا تجددت الاحكام القرم قوشية ، ورخصت الارواح وبيعت ببيع السماح .

قال جمال باشا في مذكراته : وبقيننا ان الفضل في عدم حدوث ثورة في سورية خلال العامين والنصف العام اللذين اعقبا اعلان الشريف حسين استقلال بلاده ، انما يرجع الى احكام القتل التي وقعت في نيسان ١٩١٦ وبقطع النظر عن ذلك فان أنور باشا وهو وزير الحربية ، وطلعت باشا وهو وزير الداخلية ، قد وافقا على تنفيذ احكام القتل بدون استئذان من المراجع العليا ، ثم أرسلت الى الاستانة تقريراً بما أجريته وهناك راجعته محكمة الاستئناف التابعة لوزارة الحربية ثم أرسلته بناء على قرار مجلس الوزراء الى القصر للتصديق السلطاني ، وهكذا ايدت الارادة السنية الاحكام التي قضى بها الجيش ونفذها وبذا ختمت هذه الرواية اه .

وكما كانت الامة ترجو انفراج الازمة كان احمد جمال باشا وهو قوي الثقة بنفسه وجيشه يرجو ان أنجلي الحرب عن نصرة دوائه ، و يؤسس في الشام معاهد لتتريك العرب وتقوية الدعوة التركية الاتحادية في نفوس الامة وينتج شوارع في بافا والقدس وبيروت ودمشق ويضع المصورات والخطط والتصميمات لهندسة امهات مدن الشام على الطريقة الحديثة وقد نفذت احكامه على البادية والخاصرة حتى ان بعض امراء العرب كانوا عيوناً له يقبضون احساناته الكثيرة ولا يتكأون عن قبول المعاونات التي يقدمها لهم الانكليز . ولم يسلم من يد جمال باشا الا دروز جبل حوران فانهم خدعوه بوعودهم ، ولم يتجندوا بحجة العمل في اراضيهم لاجراج الحبوب للجيش ، ولكن الغلات التي استغلوها لم يقدموا منها شيئاً للدولة على الرغم من الحاح القائد العام عليهم ، فغظوا حبوبهم في امرايتهم حتى شئت في الشام ثم اخذوا يبيعونها باثمان فاحشة ولولا ذلك لجاع أهل مدينة دمشق نفسها على قربها من حوران أنبار الشام العظيم . ولذلك كان جمال باشا يحرق الأرم عليهم ، ولو خرجت دولته ظافرة لارسلوا حملة على هذا الجبل

تهلكه وتخربه . واخرى وهي تعد في آثار الدروز هذه النوبة ، وهي أنهم آووا في جبلهم نحو عشرين الف لاجئ من العرب والترك على اختلاف مذايعهم ، فراراً من الجندية أو غيرنا ، واظمعهم مدة الحرب بلا عوض ، ومنهم من كانوا يشغلونهم في اراضيهم مقابل إطعامهم فقط ، فكانت مخافات الرؤساء منهم أشبه بفنادق ومطاعم عامة مجانية ، خدامها أصحاب تلك البيوت من أعيان الجبل ، فمثلاً بمعلم القرى العربي والروية والشهامة ، وكفروا عن سيئات المسيئين منهم في الماضي ، وكان جبل الدروز أقوى صلة بين جزيرة العرب والشام والعراق مدة الحرب ولا سيما بعد استقلال الحجاز ، وعزم الحلفاء على فتح الشام باسم الامير فيصل واسم ابيه ، فكان مركز جبل حوران من الوسائط الدافعة لانباء الشام والحجاز معاً ، وفيه تألفت عصابات من الدروز لاقاء الاضطراب في صفوف الجيش التركي وظل أكثر زعماء الجبل على ولائهم للدولة العثمانية حتى أظلمت الرايات العربية .

* * *

| | |
|-------------------|---|
| الوقائع المشمة في | } اخذ الجيش التركي في الجبهة يضغط على نفسه ولضعاف |
| فلسطين وسقوط | |
| القدس وما اليها | |

فيه مضاعفات النفوس من جوع وعري ، ففي ٢٦ و ٢٧ آذار ١٩١٧ حدثت معركة غرة الاولى بين الترك والانكليز وفي ١٩ نيسان كانت معركة الرمادة ، وفي ٤ آب انهزم الاتراك للمرة الثانية في محارلتهم غزوة مصر في قطيا ، وفي ٢٣ تشرين الاول و ٧ تشرين الثاني اخترق البريطانيون خط العثمانيين بين بئر السبع وغزة ، فتخلّى الاتراك عن الابن وبئر السبع وكانت وقعة في أزقة غرة على اسلوب حرب المناريس اشتركت فيها البحرية البريطانية بمدافعها من البحر ، وكانت العلبة فيها للاتراك وفقد من الانكليز على رواية قائد الجيش الرابع في ونايع غرة ٤٠٠٠ وفقد الترك ٢٨٦ قتيلًا و ٧٥٦ جريحًا و ٥٨٥ متغيبًا واسيرًا ، وادعى القائد التركي ان كل جندي من الحامية في غرة قتل جنديًا انكليزيًا وان الجيش البريطاني في ارجاء غرة كان مؤلفًا من اربع فرق فرسان واربع مشاة ، وان المعركة دامت ثلاثة ايام (١٧ و ١٨ و ١٩ نيسان) واضطر البريطانيون الى النكوص على اعقابهم بحثهم في خطوطهم تاركين وراءهم القتلى والجرحى وعددهم ٧٠٠٠ اي ما يعادل جميع القوة

التركية التي اشتركت في القتال في تلك الجبهة . وفي الاخبار الرسمية التركية ان خسائر الانكليز (رجب ١٣٣٥) في ساحة غزة الثانية قدرت بثلاثة آلاف فيهم كثير من الضباط وافاد احد الاسرى ان فرقته بات عددها اربعة آلاف رجل بعد عشرة والاسرى بلغوا نحو الاربعمائة وخسائر الانكليز بالنسبة للوقعة الاولى كثيرة ولكن غزة خربت اقليلاً وتشنت اهلها تحت كل كوكب . ومن الاسباب التي قضت بخرابها ان الاتراك وضعوا بعض مدافعهم الرشاشة الخفيفة في المآذن واخذوا يطلقونها على البريطانيين فما كان من هؤلاء الا ان قابلوهم باطلاق القنابل من مدفعيتهم من البر والبحر .

قلنا ان غزة خربت اقليلاً ولم يتناول الخراب غزة فقط بل تناول يافا أيضاً وذلك لان العثمانيين أجلوا اهالي تينك المدينتين الى الداخل فترك سكانها عروضهم ومتاعهم واموالهم او باعوها باثمان طفيفة واركتبت الفرقة الثالثة من الفرسان وهي من الترك انواع الفظائع في اعراض المخدرات بما ينجل منه .

كانت قيادة الجيش الفعلية في الشام بيد الالمان وبالاسم بيد العثمانيين فان القواد فونكريس وفالكنهايم وليمان سندرس ابلوا بلاء حسناً في وقائع شبه جزيرة سينا وغيرها ولذلك كان قائد الجيش الرابع يكرهم لانهم جعلوه واوامره وراء ظهورهم . ووظيفته الحقيقية في هذه الحرب ان يقدم لهم جنداً وارزاقاً وينفذ ما يأمر به القائد الالماني لنظام الجيش وانتظامه . ولم يقصر الاتراك والحق يقال في مد الخطوط الحديدية الى جبهة مصر على تعذر جلب الادوات اللازمة لها من الغرب فقد انجزوا خط العفولة نابلس متصلاً بحيفا ودرعا ودمشق قبل الحرب ثم انجزوا مسعودية — طولكرم — لد — وادي صرار — بئر السبع — حفير — اي ٢٥٤ كيلومتراً ومدوا خطاً من التينة حتى دير سنيد قرب غزة وهو ٤٠ كيلومتراً في ايام قليلة وخرّبوا خط حوران دمشق وطرابلس حص لاخذ خطوطها الحديدية ، وأصبحت بئر السبع مركزاً مهماً فيها الكوبرياء وادوات الرفاهية في المدن ، وسدوا طريق العريش — الابن — نخل ، وحفروا آباراً وعملوا احواضاً وجروا الماء في البادية الى القصيمة الى ثلاثين كيلو متراً .

سار الجيش الانكليزي على عادته في قتال الترك في سينا سيراً بطيئاً ولكنه

كان اميناً ، ومدوا خطهم الحديدي بالقرب من الساحل ليكون له من الاسطول عند الانقضاء معتصم ، وفي ٣١ تشرين الاول أخذوا بئر السبع وفي ٢١ كانون الاول ١٩١٦ أخذوا العريش وفي ٩ كانون الثاني ١٩١٧ أخذوا رفح وأخلوا شبه جزيرة سيناء من كل ما هو تركي سنة ١٩١٧ وأخذت يافا في ١٦ تشرين الثاني وكانت أخليت من السكان زهاء سنة ونصف وتشرد أهلها ، وسقطت القدس في ١٠ كانون الاول ١٩١٧ ودخلها القائد المشير الانبي الانكليزي دخول الظافر فسقطت بيت المقدس كما قال بعضهم في أيدي الفرنج بعد ان خرجوا منها في الحروب الصليبية منذ ثمانمائة وتسع عشرة سنة . وقرعت أجراس الكنائس برمتها فرحاً بسقوط القدس ومن جماتها الكنائس الالمانية كانت ما خسرتة المانيا سياسياً بهذا السقوط يعزى بها بعودة البلاد المقدسة دينياً الى أيدي المسيحيين .

واستولى الانكليز على اريحا يوم ٢١ شباط ثم جعلت الجبهة على خط يافا اريحا وظل المتحاربون يقتتلون الى سنة ١٩١٨ وقد كلفت همم المقاتلين من الترك فاخترق الجنرال الانبي الجبهة التركية في ١٩ فاستسلم جيشان تركيان (السابع والامن) وكان انهزم احدهما نحو الشمال اي نحو طريق القدس نابلس ، ونشبت بين الفريقين البريطانيين والأتراك معركة هائلة في البيرة انتهت بهزيمة الأتراك واستسلمهم الى اللبان وبلغ الجناح الايسر من الجيش البريطاني حيفا والجناح الايمن تجاوز نابلس وبفتح حيفا وطولكرم ونابلس والناصرية وطبرية فتحت أبواب الشام أمام الجيش البريطاني .

عمل الجيش العربي (١) } في شهر حزيران سنة ١٩١٦ اي في السنة الثالثة
للحرب العالمية لما قام الشريف حسين بن علي امير
مكة المكرمة بثورته على الترك وقتل وأسر حاميه مكة من الأتراك ونودي به ملكاً

(١) تفضل بعض رجال الثورة العربية السيد نسيب البكري والسيد فخري البارودي والشيخ سعيد الباني فأعطوني بعض معلوماتهم عن دخول الجيش العربي الى الشام .

على الحجاز ثار ابنه الامير علي في عرب المدينة المنورة المواليين لابيّه على الحامية التركية غداة ثورة مكة فلم يستطيعوا أخذها لان نخري باشا قائد حاميتها التركي كان حصنها تحصيناً عظيماً فما استطاع العرب ان ينحوا على تلك الحصون مخافة ان يصاب قبر الرسول (ص) وسجده باذى وقبعت الحامية التركية بما ادخرته من الطعام في داخل حصونها بعد ان اجلت الحكومة اكثر اهل المدينة الى الشام وآسيا الصغرى وعددهم لا يقل عن اربعين الفاً ولم تترك سوى بضعة آلاف ممن آثروا ان يموتوا في جوار قبر النبي على الجلاء غير مطالبين الجيش المحاصر بخبز ولا إدام . واخذ عرب الامير علي ينادشون الحاميات التركية على الخط التجازي مدة ويخربون بعض خطوطه ويعود العسكر العثماني فيصلح ماخرّبوه ويستخدمه في الضرر ريات لتموين الجيش المرابط في المدينة واخذ منذ ذاك الحين الامير فيصل ثالث انجال الملك حسين في سرايا من عرب الحجاز يشادلي ساحل البحر الاحمر متقدماً الى سمت الشمال نحو الشام وينضم اليه اسرى الجيش التركي من العرب الذين أسروا في ثورة السويس وشبه جزيرة سيناء وساحة العراق . ففتح يذبح البحر والوجه وهنا تألف الجيش الشمالي الذي قاده الامير فيصل اماشقيقه الامير عبدالله النجل الثاني فكان في الطائف يحاصرها حتى سقطت ، اي ان الامير علياً كان يشاغل الحامية التركية في المدينة ويفتح رابع ويجعلها ميناءه ، وشقيقه الامير فيصلاً يحاول الابتعاد عنها للانضمام الى الجيش البريطاني في شبه جزيرة سيناء .

وفي تموز ١٩١٧ اي بعد احد عشر شهراً من ثورة صاحب الحجاز على الترك فتحت العقبة بمعارنة الشيخ عودة ابي تايه من مشايخ الحويطات ومن شجعان العرب ، وقد ابلى بلاءً ليس بعده بلاء وذلك في هذه الواقعة وفي اكثر الوقائع التي اشتبك فيها الجيش العربي مع الجيش التركي وكانت له الفضل باسقاط الطفيلة والبي الاسل والكويرة وغيرها من المواقع التي احتلها العرب في ارائل البلاد الشامية من الجنوب وقد أسر في فتح العقبة تابوراً تركياً برمته تام الأهبة لم يفلت منه ولا اركان حربه ورجال شوراه الحربي استسلموا كلهم لابي تايه فعاملهم ارقى معاملة مدنية . وكان للدافع الاسطول البريطاني من البحر اولاً يد طولي في اخلاء الترك للعقبة وبسقوطها

حمى العرب مؤخرة البريطانيين في سيناء وكان الاتراك يأتون من معان الى بادية سيناء يضربون البريطانيين وباستيلاء العرب على العقبة استطاع الانكليز ان يهجموا على غزة وبئر السبع ، اما الاتراك والامان فقد دافعوا عن العقبة دفاعاً عظيماً ولكن البريطانيين كانت لهم السلطة على الساحل وأهل البلاد من العرب يحاربون باجسادهم وارواحهم مع صاحب الحجاز واولاده .

استولى العرب على الطفيلة ووادي موسى وحاولوا الاستيلاء على معان الواقعة على الخط الحديدي فردوا عنها مرتين بخسائر خصوصاً يوم ٢٢ تموز عندما هاجموا محطة ام الجرذات (الجردونة) فكانت خسائرهم عشرين ضابطاً ومائتي جندي واستولوا على ام الجرذات ثم تخلوا عنها . وارسل الاتراك من الكرك اربع كتائب ومصرية من البغلة بغية احتلال الطفيلة وبينما كانت سائرة في وادي موسى بلغ العرب خبرها فتحصن محافظ الطفيلة الامير زيد رابع انجال ملك الحجاز في مائتي جندي نظامي وقوة قليلة من البدو في رؤوس الجبال واخرج اهل الطفيلة وسلاحهم وفرقهم على الجبال التي في اطراف الوادي وجعل العسكر التركي في شبه حصار واطلق عليهم النار فارتبك الجيش الزاحف وجفلت البغال وقتل حامد نخري بك القائد التركي المعروف عند الاتراك بفاتح بكرش فسقط في يد الجيش وانهزم اكثره وسلم الباقي واخذ العرب ما يربى على ستائة اسير تركي وغنموا اربعة مدافع مربعة الطلق ولم يكن معهم سوى مدفعين قديمين . اما الكرك على حصانها فان الاتراك اخلوها من انفسهم . وانضمت الى الجيش العربي في الوقائع الاخيرة سرية مدفعية افرنسية كما كانت الطيارات الانكليزية لا تغفل يوماً عن كشف موانع العدو وتهيئة سبل التقدم لهم واخبار المقاتلين من البدو ممن كانت وقائعهم مع الترك على الاكثر اشبه بمناوشات عصابت لا بحروب منظمة . والامير فيصل ينظر اليه نظر قائد عربي يتلقى الاوامر من المار يشال اللبي ولقبه قائد الجيوش الشمالية .

جاء في نشرة وزارة الحربية البريطانية في آب ١٩١٧ ان خطة العرب في بدء نهضتهم خطة حسنة تحوي في مطاوعها حذقاً وحزمًا ودهاءً فقد خربوا قسماً من السكة الحديدية واستولوا على مراكز الاتراك على جاني الطريق وكانوا على جانب من

البسالة يتغلبون غالباً على جيش أكثر منهم عدداً وُعدداً . وقال ليمان سندر س
الاماني : ان العرب من اول شهر ايار الى التاسع عشر منه خربوا خمسة
وعشرين جسراً .

ولقد خرب العرب محطة القطرانة واسروا عدداً من الترك وبعد اسبوع هجموا
على الحسا فأخذوا قطاراً كان هناك ودمروا قسماً من العدة والذخيرة ولكن الاتراك
اخرجوهم بعدئذ من الحسا فتهتمروا جنوباً وهم يخربون في الجسور والخط . وفي تشرين
الثاني ١٩١٢ واقعت القوى البريطانية حامية الترك في عمان فسقطت السلط في
ايدي البريطانيين والعرب وعاد الاتراك فهاجموها في آذار ١٩١٨ وردوا البريطانيين
الى غربي الاردن . وكانت حال تلك البلاد مثل الصلت ومعان وعمان وغيرها
تعسة جداً لان الاستيلاء عليها كان متبادلاً بين الفريقين المتحاربين واهلها بين نارين
خصوصاً نار العثمانيين الذين كانوا يعاقبون الاهلين لدى عودتهم الى بلد انهمزوا منه
بحكم الطبيعة او القواعد الحربية بما يخرج عن حد المألوف تشفياً وانقاصاً .

لما صدر الامر بالهجوم العام لضرب الجيش التركي الاماني الضربة القاضية فاض
البريطانيون الامير فيصلاً ان يجهز حملة تسير من ابي الاسل الى جسر تل شهاب في
حوران لقطع خط الرجعة على الجيوش التركية فتألفت الحملة من الجيش النظامي
يرافقها شرذمة من البدو . ويظهر ان القيادة التركية شعرت بذلك لان من البدو من
كانوا يجسسون للعرب وعليهم ولترك وعليهم ، ومن عادة البدوي ان ينحاز الى صفوف
الغالب وينقض على المغلوب بعد ان كان في صفوفه لان هدفه الوحيد السلب
والنهب — فاعرض القائد التركي الى الحامية ان تدافع عن معان بالهجوم على الجيش
العربي في الوهيدة لاشغال الحملة عن المسير الى تل شهاب وسار الالماني مع
الاتراك من الشمال على الشوبك والطفيلة ليلتقوا مع الجيش التركي الذي خرج من
الشرق على معان فباغتت الحامية ليلاً على تل سمينة المطل على معان واستولوا على حصونها
وبضبطها أصبح الجيش العربي في خطر فبلغ الامير فيصلاً ذلك بالهاتف من الوهيدة
بين معان وابي الاسل وتبعد عن كل منهما زهاء ساعتين او اكثر وكانت مقر الجيش
العربي ومقر الامير وراءها في ابي الاسل ، فاهتم للامر لتناقص عدد الجيش العربي

الذي انضمت اكثر ريته الى الحملة المنوه بها وكانت بارحت قبل هذا الهجوم بيوم المقر من جهة الطريق الشرقي البعيد عن الخط الحجازي مسافة نهار تقريبا وهو من جهة الجفر وباير (ماآن لاهل البادية) فندب الامير اخاه الامير زيدا واستعاد حصون تل سمينة وكانت الاتراك ينوون ان يتقدموا منها للاستيلاء على الوهيدة مقر المعسكر العربي ولو لم يتقدم احد ابناء العرب ممن كان مع الجيش التركي و يفاوض بالهاتف مركز الجيش العربي و ينذره سوء العقبى و يسارع الامير فيصل بارسال عبيده وعددهم مائة وخمسون و يسيروا كالبرق الخاطف يقفون امام الجيش التركي و يشاغلونه ريثما تقدمت فرسان الجيش العربي وتبعها المشاة — لولا هذا لما ورد الاتراك عن معان و هلك الجيش العربي بأسره .

ومن ذاك الحين انقلبت حامية معان من طور الدفاع الى طور الهجوم وعهد الامير فيصل بالقيادة العامة في مقر ابي الاسل الى أخيه الامير زيد والتحق بالحملة يرافقه قليل من الجند النظامي وحرسه من العبيد وبعض المتطوعة من بدو ومن حضر قاصداً الازرق ليتخذ مقر القيادة للحملة وضرب موعداً للنوري بن شعلان ان يلاقيه بالازرق مع شردمة من قبيلته كما اوعز الى عوده ابي تايه ان ينزع مع شردمة من قبيلته من الجفر الى الازرق وهكذا كان ولكن جنده كان قليل العدد والبدو الذين ارادهم على ان يوافوه تخلفوا عنه فاصبح موقفه في خطر، وكانت في وسع مئة جندي عثماني لو هموا به ان بأسروه ومن معه ، ولكن قذف الرعب في قلوب المحاربين من الترك وظنوا ان هناك جيوشاً جرارة لاقبل لهم بها ، وزاد حراسة الموقف تشويشاً ان بعض مشايخ قرى جبل الدروز بعثوا الى الامير يخبرون على احتلاله الازرق بدعوى ان احتلاله يوغر عليهم صدر الحكومة التركية لان الازرق وان كان مقدمة بادية الشام وغير مملوك لاحد لكنه يعتبر في نظر الدروز ونظر القبائل الرحل ملحقا بالدروز ، ولم يؤثر هذا الاحتجاج في نفس الامير فيصل لعلمه ان لاقية له بالنسبة الى زعماء الجبل المواليين له وفي طليعتهم سلطان باشا الاطرش الذي اخلص كل الاخلاص للثورة العربية وعاونها بماله وجاهه ، ولعلمه انهم متجرون بهذا الاحتجاج غير انه اورث اضطراب الافكار خشيه تجسسهم للاتراك وبعد خمسة ايام ارسل احد شيوخ قبيلة بني صخر وهو الوحيد في موالة

الجيش العربي دون بقيه شيوخ القبيلة الذين كانوا موالين للحكومة التركية و يقطعون السابلة على كل قافلة تلتحق بالامير فيصل في ابي الاسل، وجيزه بغثة من المتطوعة لتخريب جسر عمان لقطع المواصله بين القيادة التركية ومعان وجاء على الاثر الكولونل لورانس الانكليزي، ملتمن الثورة العربية والمشرف عليها الذي دعي « ملك العرب غير المتوج » واخبره بسقوط نابلس وما وراءها الى الشمال وانه وقع في اسر الجيش البريطاني من الجيش التركي زهاء ستين الفاً وكان الفضل الاكبر في ذلك لتخريب جسر تل شهاب . وصباح اليوم السادس ورد على الامير فيصل نجاب يخبره بسقوط معان واسر حاميتها وسوقهم الى العقبة، وبعد ساعتين جاءه نجاب آخر من عمان يحمل اليه اوراق الحكومة التركية فيها مبرهنات على سقوطها وانجلاء الترك عنها قبل تخريب الجسر . فرأى الامير فيصل عندئذ نقل انقر الى بصرى عاصمة حوران ، مخافة ان يضم الاتراك شملهم في درعا دفاعاً عن دمشق ولم يكده يستقر بها حتى بلغه سقوط درعا بيد الجيش العربي . الانكليزي ومتطوعة الحورانيين فسار اليها ونظم حكومتها واخذ منه القلق لانه كان جرى اتفاق بينه وبين الحلفاء اي بينه وبين البريطانيين ان كل فريق من العرب أو البريطانيين يسبق جيشه الى فتح مقاطعة أو بلد يكون حق احتلالها وادارة شؤونها لذلك الفريق الى أن يُبت في المصير ، وحافظ الجيش الانكليزي على هذا الوفاق فكان اذا سبق ففتح بلداً أو اسقط حصناً في البلاد التي يريد اعطاءها للعرب يتوقف ريثما يدخل العرب فينسب الفتح اليهم ولا سيما في بلاد الشام الداخلية . ولذلك خف السيد نسيب البكري من الازرق بامر الامير فيصل الى جبل الدروز ولقي صديقه سلطان باشا الاطرش وجيش هذا من الجبل نحو مائتي فارس وذهبوا الى بصرى وهناك التحق بهم بعض الحورانيين ولا سيما آل مقداد وساروا الى دمشق على طريق الكسوة فناوشهم جيش الاتراك قليلاً في حصون جبل المانع ريثما يتمكن من الهزيمة بانظام ، ودخلت هذه الحملة التي كانت مؤلفة من نحو خمسمائة فارس ماعدا المشاة من اهالي البلاد الى دمشق وانفق دخول هذه الحملة مع أوائل الحملة البريطانية الزاحفة على الفيحاء من طريق جسر بنات يعقوب — القنيطرة .

سقوط حوران ودمشق } وفي ١٧ ايلول ١٩١٨ قطع الجيش العربي الخط
 بيد الجيوش البريطانية } الحديدي على عشرة كيلومترات من شمالي درعا
 (اي بين خربة الغزالة ودرعا) بمعاونة الطائرات الانكليزية ، وكذلك خط درعا--حيفا
 اي من المزيريب وخط عمان--درعا فانقطع الخط في نصيب واصبحت حامية درعا مقطوعة
 عن كل مدد وفي اليوم الثاني كان الهجوم البريطاني العام فوجه الترك الى العرب بقسم
 كبير من قوتهم فلم يبق فيها الجناح الايسر من الجيش البريطاني الا بقية ما لبثت
 ان تفرقت شذرمذرا ، وأسر العرب في هزيمة الاتراك تسعة آلاف اسير ، وغنموا تسعة
 آلاف بندقية وثمانية مدافع وأربعة وخمسين رشاشاً . وفي ٢٦ منه هجم الجيش العربي
 بعد ان انضم اليه عرب الروثة وعرب عنزة وعدد من الدروز على سكة الحجاز على ١٥ ميلاً
 جنوبي درعا ، فحربوا جسراً وقصفاً من الخط .

وفي ٢٨ منه احتلت القوات النظامية درعا وفي ٣٠ منه تغلبت فرقة استرالية على
 نجدات الاتراك في قطنا ، وتقربت عند المساء الى أبواب دمشق وفشل الاتراك أي
 فشل ، ونزل الجيش البريطاني يتبع المنهزمين حتى بلغ ضواحي دمشق يوم ٣٠ ايلول
 وكان ناوش المهاجمون بمض الحاميات في المدن التي ذكرت ولا سيما في الناصرة (٢٠ ايلول)
 وقد نشب قتال فيها بين الر يطانيين والالمان من الساعة الخامسة صباحاً الى الظهور ،
 وعمدها أخلى ليان سندرس الماصرة وركب سيارته الى دمشق .

وعلى هذا كان أدل من دخل دمشق فرقة من الحياالة الاسترالية والفرقة البر يطانية
 جاءت من درعا على طول الخط الحجازي ومن الغد (أول تشرين الاول) دخل
 البر يطانيون والجيش العربي في يوم واحد ، وقد تأثر الجيش البر يطاني بقايا المنهزمين من
 الجيش التركي بين ربوة دمشق وقرية دمر فهلك من الجند المنهزم نحو مئة وعشرين ،
 وسرقت خزينة الجيش التركي وكانت في القطار في مركبتين بين الشادران ودمر
 فنهبا الفلاحون وغيرهم من المعطافين ، وطار دالفرسان البر يطانيون والاستراليون المنهزمين
 من الاتراك ممن حاولوا المقاومة اولاً في سنج جبل قلمون قرب دومة فظن الترك ان الالمان
 اموأبناصرة الجيش البر يطاني فاستلموا نخف اهل قرية حنير من أعالي الجبل لرد الاتراك
 فاعا عن قريتهم . وكان بعض سكان حوران اعتدوا في الايام التي سبقت سقوط دمشق

على بعض المنهزمين من الجيش لآخذ سلاحهم على الأكثر ، ولكن الأمير طاهر أ الحسني وابناء عمه الأمير سعيد والأمير عبد القادر كانوا الفوا من المغاربة سرايا من المطوعة واخذوا الف بندقية من الحكومة التركية فخرجوا الى اذرع وخففوا و يلات الجيش التركي وساعده على الهزيمة ، ولما خلت دمشق من حكومة كانت مسائل الامن فيها لاناس من اهل البلد والوجاهة في مقدمتهم احفاد الأمير عبد القادر الحسني الجزائري فلم يقع ما يكدر في النفس والاموال .

وقبل سقوط مدينة دمشق عقد الاتراك مجلساً حربياً حضره قواد الجيش من الترك والالمان والنمساويين والمجريين ورجال الشورى الحربى ، فكان يرى القسم الاعظم من المؤتمرين نفس جميع الاماكن الاميرية في دمشق ، وكان الالمان اعدوا لذلك العدة وقال بعض الراوين بل نفس مدينة دمشق ، الا ان القائد النمساوي اقنع رفاقه بان هذا عمل غير معقول ، لان الدمشقيين حاربوا مع الدولة العثمانية وقاموا بكل ما فرض عليهم باخلاص ، فليس من العدل وقد خسر الترك الحرب ان يعاملوا دمشق هذه المعاملة القاسية فرج القضية ، وكانت حجتهم داحضة . وكان جمال باشا المرسيني المعروف بجمال باشا الصغير من رأي القائد النمساوي سرّاً فعاضده و اشار الى من استلموا زمام البلد من الوطنيين ان يعلنوا استقلال الشام ، فرفعوا العلم العربي على دار الحكومة ضحوة يوم ٣٠ ايلول وبعد ان هنا جمال باشا الصغير الحاضرين من الدمشقيين باستقلالهم ، غادر دمشق على سيارته الى رباق ، وكان آخر قائد تركي خرج من عاصمة القطر ، بعد ان ملكها الاتراك اربعمائة واربع عشرة سنة .

وبعد يومين استدعى من فوض اليهم الامن في البلد من وجوها حضرة الأمير فيصل بن الملك حسين قائد الجيش العربي ، وكان مرابطاً في الجيدور فدخلها ونزل في دار آل البارودي في القنوات وهناك شرع بتأسيس الحكومة العربية . وكان البريطانيون عهدوا الى اللواء علي رضا باشا الركابي من قواد الجيش التركي ومن أبناء دمشق بان يكون حاكماً عسكرياً لمدن الداخلية دمشق وحلب وما اليهما بالنظر لما ثبت للبريطانيين من حسن بلائه في خدمتهم ، ويقال انه كان أرسل اليهم مصور الحصون حوالى دمشق وكان وكل اليه الترك عمالها ، وأرسله القائد التركي قبيل

سقوط دمشق ببضعة ايام ليجمع شمل المنهزمين من الجيش التركي في القنيطرة وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال ، فادعى ان العربات سلبوه ماله وثيابه ، وانضم الى الجيش الانكليزي ، وهكذا ذهب من دمشق قائداً تركياً وعاد اليها بعد ايام حاكماً عربياً بريطانياً .

وأطال بعض اهالي بعلبك أيديهم على المنهزمين من جند الترك ، وأخذوا سلاحهم وسلبوه ثيابهم وعتادهم وقتلوا نحو ثلاثين جندياً ، وذل الاتراك في الشام بعد ان كانوا أعزة ، وكانت الاتحاديون العلة الاولى في هذه الذلة ، وذهاب هذا الملك العظيم ، وخدم الاتحاديون الدولة باديء بدء اذ حموا الدستور كما قال كامل باشا لكنهم بتدخلهم في السياسة وبسط سيطرتهم على السلطة الاجرائية ، أصبحوا حكومة في حكومة ، وأضحوا خطراً على الدستور قلنا بل قد صاروا بعد خطراً على المملكة كلها ، ضاربوا بها في سوق السياسة الالمانية فحسروها .

سقوط بيروت والساحل } وكانت الطيارات البريطانية يوم ٢٩ ايلول
والهدنة } أمطرت قنابلها على مستودعات محطة رباق نقطة
اتصال الجنوب بالشمال ونهب ملحم قاسم من اهالي بلاد بعلبك انابير رباق وحوش حالا
في جماعة من رجاله ، فنسف الالمان ما بقي من المؤن والعتاد في المستودعات والانابير ،
وانهزموا في السكة الحديدية الى الشمال ، ولم يتركوا احداً من الترك معهم فنجوا
بأنفسهم باستعمال الشدة ، وفي ذاك الحين قذف الالمان في بيروت المؤن والمواد
الحربية في البحر ، وأصلاهم الحلفاء ناراً حامية خلال هزيمتهم ، ولم تنفعهم ولنفع
الاتراك خطوط الدفاع التي كانوا جعلوها في الجبل المطل على بيروت ، كما لم تنفعهم
والترك ايضاً الخطوط التي انشأوها في جبل المانع والمزة وقاسيون المحيطة بدمشق من
غربها وجنوبها وشمالها وهكذا لم تصب دمشق وشرها بيروت باذى يوم الهزيمة على
نحو ما كان العقلاء يحاذرون .

لم يجر استيلاء الحلفاء على بيروت الا يوم ٧ تشرين الاول اي بعد سقوط
دمشق بثمانية ايام فأرسلت الحكومة العربية في دمشق برقية الى رئيس بلدية بيروت

بأمر الأمير فيصل غداة وصوله الى دمشق تأمره فيه برفع العلم العربي ، ووصل الى بيروت من دمشق اللواء شكري باشا الايوبي تحف به شزيمة من الفرسان ، واحتل دار الحكومة ، وبعد اربعة ايام وصل القائد الانكليزي وأمر اللواء العربي بالعودة الى دمشق ، وأنزلت الراية العربية وعين الكولونل بيا باب الافرنسي حاكماً على بيروت ، وأخرج الفرنسيين جنساً الى البر بين تصفيق الاهالي ولا سيما الطوائف الغربية ، ثم صدر أمر القائد اللنبي الى الأمير فيصل ان يحتل جيشه حمص وحماة وحلب ، وكانت الجنود الانكليزية والاسترالية تتقدمه اولاً ، ففتحت حمص يوم ١٤ تشرين الاول ، وحماة يوم ١٦ ودخل الجيش العربي حلب يوم ٢٥ منه مساءً بعد مقاومة خفيفة ومناوشة الفرسان البريطانيين والاستراليين لبقايا الجيش التركي الذي دافع لاشغال الجيش المهاجم حتى يتسنى له الانسحاب من حلب بانظام وسلام خشية الاسر ، ويتم له نقل الموظفين وعياله والبقود والاوراق والسجلات ، وطلب الشريف ناصر بن علي قائد الحملة العربية الى قائد الفرقة البريطانية الجنرال مكاندرو ان يمدّه بسرية من جيشه ليضمها الى فصيلة عربية يمدّها بها السرية التي كان انفذها لاحتلال حلب فرفض الجنرال طلبه وبعد الاحاح عليه صرح بان القائد العام امره ان لا تطأ قدم جندي واحد من الجيش الانكليزي مدينة حلب الا بعد دخول الجيش العربي ورسوخ قدمه بها وهكذا لم يدخل الجيش البريطاني حلب الا بعد دخول الجيش العربي باربع وعشرين ساعة وتألّف الحكومة العربية الموقّعة وصرح القائد مكاندرو في خطاب له في احدى المآدب بحضور المستر تارك سايكس والمسيو جورج بيكو بعد ان أثنى على شمم العرب وذكائهم ونبوغهم وشجاعتهم بقوله : « ومما يلفت النظر انهم بفرط بسالتهم واقدامهم سبقونا الى حلب يوم كامل اربعاً وعشرين ساعة » .

احتل العرب قلعة حلب ودار حكومتها ، وقد فقدوا اربعة وخمسين جندياً ، وأحصوا اربعمائة قتيل تركي في الشوارع . ودعى الترك لانهم أصبحوا بين عدوين الجيش المهاجم والاهالي وانقض زعماء بادية حلب على الجيش التركي عندما كان يدافع على سلامته على أبواب حلب للسلب والنهب . وفي ٢٦ تشرين الاول بدأ الجيش العربي بمهاجمة الاتراك في القسم الشمالي الذي كانوا فيه من المدينة فأجلوهم

وتبعهم فرسان البريطانيين في اليوم التالي فواصلوا الزحف شمالاً الى ان بلغوا المكان الذي نلقطع فيه سكة حديد بغداد وسكة حديد سورية ، وقد وقعت في قطعة معركة شديدة بين الاتراك والبريطانيين قتل فيها كثير من الفريقين انتهت بانهزام الاتراك الى الشمال والجيش البريطاني ثنائهم ، والاتراك يرتكبون الفظائع في القرى المستضعف أهلها ، ووقف البريطانيون على كيلو مترات قليلة من شمالي حلب فأبلغت انكثرا قائد جيوشها بعقد الحلفاء الهدنة مع الاتراك يوم ٣١ تشرين الاول ، وكان الاتراك يتذرعون بالهدنة منذ بدء الهزيمة الكبيرة في فلسطين ، ولكن بريطانيا العظمى سوفت في الامر ريثما أخرجت الترك من الشام كله بالقوة على ما يظهر وبعد الهدنة ظلت سرازم من الجيش التركي في حارم وانطاكية وبيلان واسكندرونة لم تستطع اللحاق بالجيش المنهزم فنفسخت وتحللتها الفوضى فاقبلت الى شبه عصابات تسلب وتنهب وتؤذي الاهلين ، الا انها لم تلبث ان انضمت الى المنهزمين وراء جبال طوروس او دخلت في الطاعة واستسلمت .

ومن شروط الهدنة مع الاتراك تسليم حامية الحجاز وعسير واليمن والشام وما بين النهرين وانتحاب الجيوش من قلقية عدا من يحافظون على الامن ، وكانت الفريق نخري باشا محاصراً في المدينة المنورة في خمسة عشر الف جندي ، ولم يسلم الا عندما جاءه الامر من حكومته في الاستانة اي في كانون الاول . وبينما كان الامير فيصل لاول الاحتلال العربي في حلب ، وردت عليه برقية من وزارة خارجية بريطانيا العظمى بواسطة المارشال الانبي قائد الحملة على الشام تطلب حضوره الى باريس ليشهد مؤتمر الصلح للدفاع عن قضيته ، وعينه جلالة والده ملك الحجاز وكيلاً عنه في مؤتمر فرسايل ، اذ لم تكن له صفة رسمية ثابتة تغوله حضور جلسات المؤتمر بصفة قانونية ، فقدم للمؤتمر مذكرة قال فيها اننا نعتقد ان سورية هذه المقاطعة الصناعية الزراعية التي يقطنها عدد وافر من السكان من طبقات مقيمة هي بلاد كافية متقدمة نقدياً كافياً من الوجهة السياسية يمكنها ان تقوم باعباء امورها الداخلية ، ونرى ايضاً ان الاستشارة والمعاونة الاجنبية ستكون عاملاً ثميناً جداً لنمونا القومي ، ونحن مستعدون

لصرف ما يلزم من النقود مقابل هذه المعاونة ، ولا يسعنا ان نفادي مقابلها بجزء من الحرية التي أخذناها قبلاً بانفسنا وبقوة سلاحنا .

سبب سقوط الشام) عجب المارفون لسرعة سقوط الشام في أيدي الجيش
بايدي الحلفاء) البريطاني ، وكيف كان تقدم الجيش المهاجم على مقدار
سير خيول الفرسان ، ولا عجب فالجيش مها بلغ عدده اذا كسرت معنوياته ورأى
الافراد قادتهم يفرون ويختبئون ويرتعدون يدب فيه العشل ، ولم يكن الجيش التركي
في الشام والهجواز اكثر من مائة وعشرين الفا ، بقي في المدة الاخيرة منهم مع ليمان
ساندرس الالماني خمسون الف جندي على حين كان يلزمه مئتا الف ، وجميع مدافع
الترك على اختلاف العيارات لم تتجاوز الثلاثمائة ، ومعظم ما يستندون عليه المدافع
التمساوية ثم البطاريات الالمانية ، اما الاعتماد الحربية والقنابل منها بوجه خاص
فكانت قليلة جداً عند العثمانيين ، لا يبيعون استعمالها الا عند الضرورة الماسة ، على
حين كان البريطانيون يسرفون في إطلاق القنابل والقناير وأي إسراف . وقد ألقى
ليمان ساندرس التهمة على جمال باشا الكبير فقال في تقرير له الى وكيل القائد العام :
ان كل ما في سورية من انسان وجماد وحيوان (كذا) قد تسم من سوء إدارة جمال
باشا وان الثبات فيها لا يمكن ابداً .

وفي الحق ان سوء الادارة قضى بان يجوع الجند المحارب ولدى الدولة أنابيب
الاطعمة الكثيرة لم ينتفع بها . وما كان يظن ان الجند التركى وبه يضرب المثل
بالطاعة والشجاعة ان يبدأ بالحرب من هذه البلاد ، منذ بدت أمارات الفشل والبؤس ،
فكانوا يهربون زرافات في الجبال الى آسيا الصغرى وهم لا يعرفون الطريق وأهل
القرى يطعمونهم ولبسونهم ويهدونهم السبل . على ان الثبات أمام الجيش البريطانى
لم يعد فيه ادنى فائدة مادام حلفاؤهم البلغار قد طلبوا الصلح وأمارات الانهزام بدت
بجميع أعراضها في الساحة الغربية في أوروبا .

وقصارى القول ان هذه الحرب كانت على الشام من أشأم الحروب لانها حاربت وهي
تجيب السلم ، فكان حربها تبعاً للدولة ، وفقدت انبائها واموالها وخرب عمرانها .

فقد منها نحو عشر سكانها في المعارك والجوع والامراض أي نحو ثلاثمائة الف رجل على اقل تعديل وخسرت من حيوانها وشجرها وذخائرها وبهوتها وجسورها ما يساوي الملايين من الدنانير ، و يصعب تعويضه الا في السنين الطويلة ، هذا عدا ما قتل من السورين في الحرب مع الحلفاء فقد تطوع من الشاميين من غير المسلمين مع الحلفاء أكثر من عشرين ألفاً منهم خمسة عشر ألفاً كانوا في الجيش الاميركاني .

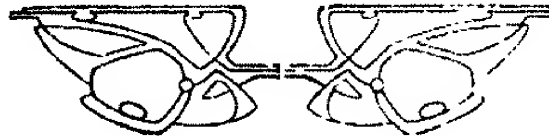
قبض الاتحاديون على زمام السلطنة العثمانية من سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) الى سنة ١٣٣٦ (١٩١٨) ولم نغلبها الا اشهر معدودة خرج الحكم فيها عن يدهم الى الاحزاب الاخرى ، وكان من عملهم الاول اعطاء الحرية لامة لم تشترك في طلبها بل تولدت من فكرة بعض الضباط والاحرار ، ثم قضاوا على تلك السلطنة العظيمة ، وجنوا جنوناً عظيماً بسياسة تترك العناصر ، حتى خرجوا عن طور العقل ولم يحبوا أن يسمعو بالعرب والعربية وحقوق العرب وبلادهم ، فضلاً عن مراعاتهم وهم نصف سكان المملكة ، وفي ارضهم اشرف معاهدها التي كان سلاطين العثمانيين يسيطون بواسطتها نفوذهم المعنوي على العالم الاسلامي . قاصر أنور وطالت وجمال بالمملكة العثمانية كأنها سلعة في السوق فحسروا رأس المال ، وكانوا يعلمون آمالهم ان يضيفوا اليه أضعافاً مضاعفة ، و بسقوطهم دب الفشل في الدولة العثمانية نفسها ، وكيف لا يدب وقد خرجت رازحة بديونها ، فاقدة أكثر من نصف مملكتها .

رأي مؤرخ تركي في) نسب احدهم مؤرخي الترك المعاصرين اسباب انقراض
انقراض الدولة العثمانية ا) الترك العثمانيين الى عوامل كثيرة أهمها في نظره
(١) انقطاع البطولة من المسلمين وقيام الاتراك سداً امام النصرانية وبذلك جابوا عليهم
خصومة اوربا المسيحية جمعاء ، فكانت مطارق المسيحيين تتساقط على رؤوس الاتراك مدة
قرون (٢) التغافل عن الوطنية التركية وعدم جعل التركية اساساً لسياسة الدولة فصانوا
اديان من وجدوهم من القوميات وابقوا على سنتهم بل ايدوها وناصروها فمنح محمد الفاتح
مثلاً الروم امتيازات مذهبية ، فأحدث بذلك دولة في دولة ، وارتكب خطأ فاحشاً ،
وعوضاً عن أن يجعلوا البلاد متجانسة صيروها كبرج بابل ، وما قاسته التركية بل هذه الدولة

في هذا السبيل مما لا استطاع تسطيره ، فان السلجوقيين حافظوا على جميع ما وجدوه في الاناضول من الاديان والقوميات الغربية ، وجرى العثمانيون على مثالهم فحافظوا على ما وجد باعيانه ، فلم يعرفوا ما هو التمثيل ، وكانت هذه العناصر كلها وجدت فرصة تستل من بناء الدولة حجراً وتذهب به ، وبصنعهم صارت الحال الى ما صارت اليه ، وقد اشتهرت ممانعة شيخ الاسلام زنبلي علي افندي لياوزخان (السلطان سليم) لما اراد أن يُسلم الروم ، فقاومه باسم الدين فبقيت هذه العناصر بحالها لفقدان الدعوة الى القومية التركية ووجود الشريعة . وهذه العناصر فتحت للاجانب سبيل التدخل في شؤون الدولة الداخلية فكانوا السبب في انقراضها ، فلم يهدأ لهم بال في هذا الشأن ، واجتهدوا في الوصول اليه ، ومن اسباب هذه الذهنية المشوومة الرأسية الاخرق القائل بلزوم الابقاء على صنف من الرعايا يؤدون الخراج للدولة . وهذا من اساليب العرب وأصولهم (٣) تدخل الدين في مصالح الحكومة ، وعدم قيام بناء الدولة على ما يجب (٤) جهل الملوك واستبدادهم وسفاهتهم (٥) تربيتهم ابناء الصرب والروس والاولاح والارمن والعرب والارناؤد والكرج والجركس وغيرهم من العناصر ، ثم تسليمهم امور الدولة اليهم بدلاً من ان يأخذوا بأيدي ابناء الترك ، وهؤلاء وان لم يكونوا اتراكاً كانوا يبذلون الجهد للقضاء على التركية واسدال الحجاب عليها ، وكانت الملوك يعتصمون بالاسلام فأورثوا بذلك التعصب قوة (٦) كانت الكنيسة الروسية الارثوذكسية عاملة على الانتقام لمملكة بيزنطية فبشعور روسيا بهذا الانتقام ، وحرصها على جعل الاتراك روساً في لغتهم ومناحيهم ، كانت تحارب تركيا ابداً وهذا من جملة اسباب الانقراض .

الى ان قال ان الحكومة العثمانية تذرعت بالمعنويات ولم تلتفت الى الماديات ، وهذا من اعظم خطيئات الترك العثمانيين ، وكان عليهم ان يجمعوا الاتراك باسهم تحت علم واحد ، وبدلاً من ان يجعل العثمانيون حريتهم نسقاً واحداً هبوا كلاسود الظمأى الى اواسط افريقية يلتمسون السراب عبثاً ، ومن طرف آخر انصرفوا الى اوربا كالطيور التي جعلت قلوبها كالسباع ، فنتطخوا برؤوسهم بلا موجب قلاع فينا ثم وقفوا ورؤوسهم دامية . ومن اعظم دواعي الاسف انهم فتحوا سبيل الرواج للسانين

العربي والفارسي فداس هذان العنصران لسانهم الخاص اي التركيه وعبت بالامة الفقير والجهل الخ . ونحن نقول ان السبب الاعظم تغافل الدولة عن تقليد الغرب في الماديات والمعنويات فظهر على توالي القرون الفرق بين الخامل والعامل ، وكان تركيب الدولة من عناصر مختلفة ، ومعظمه كان في بدء امرها من غير المسلمين ، من جملة الدواعي في عدم تركيبها تركيباً مزجياً ، خصوصاً ومعظم تلك العناصر ارقى من الترك الاصليين عنصراً واكثر ذكاءً واعظم تاريخاً ، ولا عيش للمتوسط مع الذكي واذا اخضعه له لمطانه بالقوة فالى حين .



العهد الحديث

« من سنة ١٣٣٦ — ١٣٤٣ »



تجزئة الشام بين } كانت نتيجة الحرب تجزئة البلاد بين فرنسا و بريطانيا ،
فرنسا وانكلترا } فاستقلت هذه بفلسطين وماليها ، واستأثرت فرنسا بالساحل
من صور الى ما وراء الاسكندرية ، وبقيت الداخلية اي الكرك والصلت ومعان
وعمان وحوران ودمشق وبعبك وحمص وحماسة وحلب مستقلة بإدارة الأمير فيصل ،
والموحدون اليه البريطانيون . اما القيادة العامة فكانت بأيدي البريطانيين ودعيت البلاد
كلها بلاد العدو المحتلة عملاً باتفاق سايكس بيكو الذي عقد يوم ٩ ايار ١٩١٦
بشأن تقسيم البلاد العثمانية غير التركية الى مناطق نفوذ ومناطق سيادة ، وانشاء دولة
او دول عربية متحدة في البلاد العربية ، وبموجبه تنازل الدول العربية داخلية البلاد
السورية وقسمها من العراق . اما دولة سورية العربية فجعل فيها لفرنسا وحدها حق
تمديد المستشارين والموظفين الاجانب بناء على طلب الدولة السورية نفسها ، او دول
الاتحاد العربي ، وقد خولت بريطانيا العظمى هذا الحق نفسه في دولة العراق ، ويقضي
هذا الاتفاق بان تنشئ فرنسا في ساحل سورية وفي قلمية ، و بريطانيا في جنوب العراق
وفي جملتها بغداد ، وفي موافي حيفا وعكا ، نظام الحكم الذي تريدها ، ونوع الادارة
الذي تستحسنه ، وان تنشأ في فلسطين حكومة دولية .

وسار الحال على ذلك مدة الى ان تم الاتفاق (١٥ ايلول ١٩١٩) بين الحكومتين
الفرنسية والانكليزية على ان تخرج بريطانيا عساكرها من الشام ، بشرط ان

لاندخل المساكر الافرنسية الى المدن الاربع منها اي دمشق وحلب وحمص وحماة ، لان بريطانيا قطعت للعرب عهداً ان تؤلف لهم حكومة عربية ، وهكذا كان فاش الجيش البريطاني تراجع الى شرقي الاردن وفلسطين . وعينت بريطانيا على فلسطين السير هربرت صموئيل اسرائيلي انكليزي مفوضاً سامياً ، وعينت فرنسا الجنرال غورو مفوضاً سامياً على سورية ولبنان ، ويعمل هذا القائد مستقلاً باسم دولته ، وكان من قبله من الفرنسيين بين يعملون حتى في لبنان بقيادة اللورد اللنبي القائد البريطاني العام . وجاء في هذا الاتفاق ان بريطانيا وفرنسا تضمنان لسكان ما بين جبال طوروس والخليج العربي ، استقلالاً واسماً بأمنون معه على حريتهم ، ويتمكنون من تجديد حضارتهم وكانت بريطانيا وفرنسا نشرتا بلاغاً قائلتا فيه ان السبب الذي من اجله حاربت فرنسا وانكلترا في الشرق تلك الحرب التي هاجتها مطامع الالمان ، انما هو تحرير الشعوب التي رزحت قروناً طويلاً تحت مظلم الترك — تحريراً تاماً نهائياً واقامة حكومات وادارات وطنية تستمد ساطتها من اختيار الاهالي الوطنيين لها اختياراً حراً . ولقد اجمعت فرنسا وبريطانيا على ان تؤكد ذلك بان تعاونا على إقامة هذه الحكومات والادارات الوطنية في الشام والعراق — وهما المنطقتان اللتان اتم الحلفاء تحريرهما — وفي الاراضي التي مازالوا يجاهدون في تحريرها ، وان تساعد هذه الهيئات وتعترف بها عندما تؤسس فعلاً ، وليس من غرض فرنسا وبريطانيا ان تنزلا اهالي هذه المناطق على الحكم الذي تريدانه ، ولكن هما الوحيدان ان يتحقق بمعاونتهما وساعدهما المفيدة عمل هذه الحكومات والادارات التي يختارها الاهلون من انفسهم ، وان تضمناهم عدلاً منزهاً يساوي بين الجميع ، وتسهل عليهم ترقية الامور الاقتصادية في البلاد ، باحياء مواهب الاهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ، ووضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية ، تلك هي الاغراض التي ترمي اليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الاقطار المحررة اه .

| | |
|---|-------------------------|
| كانت الدولة العثمانية في السنة الاولى للحرب | } فئنة الارمن واعتداؤهم |
| اجلت من الاناضول الى بلاد الشام عشرات | |
| | علي العرب |

الالوف من الارمن ، بعد ان أُعملت فيهم السيف وقتلت منهم مئات الالوف صبرا بطرق مختلفة ، لان بعض ابناء جنسهم قطعوا خط الرجعة على الجيش العثماني اثناء حربه في جبهة روسيا ، فصدر امر الحكومة العثمانية ان يقتل الارمن قتلاً عاماً ، يقال انه هلك فيه نحو مليون نسمة منهم ومن لم تستطع الدولة قتلهم بعثت بهم الى بلاد العرب ، رجاء ان تجد سبيلاً آخر لقتلهم ، ويقال ان الالوف التي جلبتها الى ديار الشام كانت توغر من طرف خفي بقتلها ، ولكن العرب أظهروا من الشّم والكرم ونصرة الضعيف ما فطرت عليه أخلاقهم فلم يمس الارمن باذى حتى في أقصى الشرق من الشام حيث تكثر الجهالة والهمجية .

ولما دخلت جيوش الحلفاء الشام كان في جملة كنائس فرنسا متطوعة من الارمن فوقع في نفوس بعضهم ان ينقموا من العرب عما جنته أيدي الاتراك على ابناء مذهبهم . فقابلوا احسان العرب اليهم بالاساءة . وبدأوا ببيروت فأطلقوا بنادقهم على بعض البيروتيين علناً وقتلوا بعض الوطنيين ثم أخذوا حيث ينزلون يبدون من امارات الغضب ما يتناول الابرياء مباشرة ، وقد تمردت هذه الكنائس حتى على الحكومة التي قبلتها متطوعة في صفوفها مثل الكتبية التي تمردت في الاسكندرون (١٩١٩) حتى اضطرت القيادة الافرنسية ان تنقلها الى أذنة ، ولم تقف معاملة الارمن للعرب بالسوء عند هذا الحد بل تكونت منها أسباب لفئة أهلية في حلب انتهت بقتل وجرح وأحكام بالقتل وإهانة أعيان البلاد . وقد سألنا صديقنا السيد امين غريب وكان في الشهباء قريباً من هذه الواقعة ففضل وكتب اليانا ما ثبته بنصه ، وقوله ثقة في هذا الباب قال :

كان الجيش الانكليزي محتلاً مدينة حلب وقد وقفت طلائعه في مسيحية وما حولها بسبب الهدنة بين الحلفاء من جهة والدول الوسطى من جهة ثانية . وكانت تركيا بحسب الشروط قد أخذت تسرح جيشها ، فالجنود العرب كانوا يعودون الى الشام بطريق أذنة حيث يمرون بالجنود الارمن الذين عسكروا في أذنة ونواحيها ، وكان هؤلاء الجنود الارمن قادهين مع الحلفاء (وأرجح ان قيادة امورهم كانت في أيدي الفرنسيين) فكان كل عربي يمر بالارمن لباساً ثياب الجيش التركي النخل

يهيج منظره العسكري عاطفة النعمة في قلوب الارمن اذ يتذكرون فظائع الاتراك بهم و باهلهم . ولا يمدرونه بانه عربي ، جاهلين الفرق بين هذا وبين التركي فيعاملونه بكل خشونة . وكنا في حلب نستقبل كل يوم عشرات ومئات من اولئك العرب مسرّحين وهم مهتمون الوجوه مجروحون مضروبون بايدي الارمن ، فكان هؤلاء الجنود ينشرون في حلب وينشرون بين أهلها أخبار تعدي الارمن عليهم انتقاماً منهم لما فعل الاتراك بهم ، وكان كثير من هؤلاء الجند من الحلبين المسلمين ، هذه اول مقدمة لحادثة حلب .

السبب الثاني . كان الانكليز عند دخولهم حلب قد أخذوا الارمن اللاجئين اليها ووضعهم في أماكن مخصوصة عنوا فيها باعاشتهم وترتيب امورهم وتحسين حالتهم فرأى الارمن من الانكليز حماة يدفعون عنهم ذلك الشر المستطير والضميم العظيم فصاروا كمن انتقل فجأة الظلمة الحساسة الى نور كهرباء ساطعة ، وتحولوا حالاً الى جواسيس متطوعين للانكليز يتلقون اليهم الاخبار المتنوعة ، وجراًهم هذا الانقلاب في حالتهم من تعاسة وشقاء الى حرية وإكرام فنشأت فيهم غطرسة غير معهودة لدى الحلبين فقابلها هؤلاء بالاشمئزاز الطبعي فازدادت نارها اضطراباً ، وصارت الخشونة في الحديث على رأس كل اسبأ أرمني نقر بياً ، فنكاثرت الحوادث البسيطة في جميع انحاء الشهباء .

السبب الثالث - الورقة المصرية ، فان الانكليز نشروها في حلب عند قدومهم وقد تناقصت في ذلك الحين قيمتها الحقيقية عن قيمتها الاسمية ، وكان الارمن يتناولونها من دوائر الاعاشة الانكليزية ويذهبون لصرفها عند الفوالين وباعة الحمص مثلاً ، فكان الارمني يأكل صحن فول بغرشين ثم يبرز للفوال ورقة بليرة ويطلب منه حسم الغرشين واعطاءه الباقي من المال الشجر ، وكانت قيمة الورقة ستين غرشاً ، فكان المسكين يضطر اما الى خسران كل موجودات محله وهي لا تزيد عن اربعين غرشاً واما الى مواجهة شرطي كان غالباً يعطف على خصمه الارمني لتنفيذاً للقانون ، وتعددت هذه الحوادث وتنوعت حتى امتلأت منها القلوب وغلت من حرارتها الخواطر .

جاء يوم الجمعة في ٢٨ شباط ١٩١٩ وهو يوم السوق النهارية هناك ، فكان

مسلم يبيع حماراً وقد ساومه عليه ارمني فاختلفا وتصايحا وتشاتما ثم تلاكما فكانت هذه الشرارة التي أشعلت النار في الهشيم . وفي سوق الجمعة وما حولها من الاماكن التي يكثرا الارمن فيها حصل النعدي عليهم وفي أقل من ساعة بلغ عدد القتلى ٥٢ والجرحى مئة ، وكلهم قتلى وجرحى بالمدى والخنجر وسواطير اللحم لا بالرصاص . وقد اجتهد الارمن يومئذ اجتهداً عظيماً كي يشركوا الحكومة العربية في الجناية عليهم بسبب وجود بعض الجنود والشرطة الاهلية في اماكن النعدي وعدم لقيانهم منهم عوناً . على ان هؤلاء الافراد حيث وجدوا انما كانوا يقصرون او يتعدون بدافع التأثير الشخصي المسوق اليهم مع التيار العام بين الاهالي ، لا باوامر من رؤسائهم ، اما عدد قتلى المسلمين الحلبيين فلم يرد ذكره أمامي لكنه يحسب ما سمعت لا يتجاوز العشرة .

وقد أقيمت ٩٢ دعوى على المتهمين بهذه الحوادث ، وآخر ما بلغني ان قد حكم على نحو ثلاثين بالقتل فقتلوا في اوقات مختلفة وصدر الحكم على كثيرين بالسجن . اما الثلاثون عيناً من أعيان حلب فقد قبض عليهم الانكليز يومئذ بتهمة تحريض الامالي على ذبح الارمن ، لكن هذه التهمة لم تثبت أمام التمهيص الذي اجرته لجنة من المحققين كنت عضواً فيها . ولهذا لم تقع عليهم محاكمة بتسائلاً ، لكنهم جعلوا قيد التوقيف مدة ريثما سكنت الحال ، واذكر ان القائد الانكليزي لما أراد ان يسرحهم اتى عليهم كلاماً ملخصه : انكم زعماء والزعيم لا يعذر على جهله ما يدور بين جماعته . اننا لم نجد عليكم ما يوجب اكم عقاباً قانونياً ، لكننا لا نبرئكم من التبعة في وجود أسلحة مع بعض أناس منتمين الى زعامتكم ، فعليكم كلاً علمتم بعد الآن ان احد الاهالي يحمل سلاحاً على شخصه او في بيته اعلامنا بامره ، والا فنحن نسب لكم التحقير حتى لا يبقى في أذهان الناس اثر لاعتقاد الزعامة فيكم » وهم جراً .

اعمال الحكومة العربية } لما جلت الجيوش البريطانية عن المدن الاربع ،
وحكومة الصهيوينيين } أخذت الحكومة العربية بامارة الامير فيصل بن الحسين تعد لها جيشاً من أهل البلاد ، وكانت بريطانيا تؤدي كل شهر لحكومة المدن الاربع مائة وخمسين الف جنيه مصري ، لتستعين بها على تنظيم شؤونها ،

وكان من هذا المبلغ يصرف جزء مهم على بث الدعوة وتنظيم العصابات ، فأخذت بريطانيا تفكر في قطعها ، ولكن الحكومة الوطنية زادت في معدل الجباية والرسوم حتى تسد العجز يوم انقطاع الاعانة الكبرى ، ودخل في السياسة الوطنية شبان متحمسون ، واكثرهم من غير ابناء هذه المنطقة الشرقية منطقة المدن الاربع ، وأصبحت لهم منزلة عند الامير يرمون وينقضون فأبعدوا عنه كثيراً من رجال الحل والعقد في البلاد ، وأصبح الامير يعمل هو والشبان ، والمستند في ذلك على طائفة من أرباب الفتوة والعوام ، وكثرت الاحزاب السياسية في دمشق حتى زادت على ثمانية ، وكلها بالطبع تريد استقلال الشام ، ومنها ما يدعو الى استقلال جميع العرب ، وكثرت المنازع واشتد التنارع بين أبناء الوطن ، وكلهم يريد له الخير ولا يهتدي الى طريق الصواب . لان عمال بريطانيا وفرنسا أخذوا يعملون في الشام ، وكل منهم يريد الاحتفاظ بحقوق دولته وإثبات الارجحية لها وتوطيد اقدامها .

وقد تأفف الناس من السياسة التي جرى عليها الامير فيصل في الاعتماد على الغرباء عن منطقة المدن الاربع ونزع ثقته من أعيان البلاد ومفكرها من دون سبب فأخذوا ينصحون له سراً بالعدول عن هذه الخطة ، وأوفد أعيان الدمشقيين ومفكروهم وفداً يبين له ما يجب السير عليه حرصاً على المصلحة فلم يلتفت الى كلامهم . وقال في بعض مجالسه : ان اولئك الغرباء الذين يعتمد عليهم قد خدموه اكثر من الدمشقيين وان هؤلاء لا مأرب لهم الا المال . على ان الايام أثبتت عكس ما قال ولكن السياسة تسود الابيض وتبيض الاسود .

وكانت المنطقة الساحلية اي التي دعيّت باسم المنطقة الغربية ، قد أقامت لها حاكماً افرانسياً على لبنان لاول عقد الهدنة ، وأخذت فرنسا تحل السواحل وما اليها الى قلقية ، ولم تمض على ذلك مدة حتى بدأت العصابات الترككية تسيء الى الجيش الافرنسي في قلقية وشمال الشام فقتل من الفريقين مئات . وكانت فلسطين منذ رحل الترك عنها في قبضة الجيش البريطاني فلما مضت السنة الاولى للهدنة أصبحت بريطانيا تفي للاسرائيليين الصهيونيين بما وعدهم به وزيرها بلفور مدة الحرب ، اذا عاونوا بريطانيا باموالهم بان تجعل لهم من فلسطين وطناً قومياً . فجعلت اللغة العبرية

لغة رسمية في فلسطين بمثابة العربية والانكليزية ، وأخذت الوظائف تنتقل من ايدي المسلمين والمسيحيين الى ايدي الاسرائيليين ، وخص الاسرائيليون بالرعاية على ما لم يكن لهم به عهد ، فشق ذلك على اهل البلاد الاصليين ، واجتمع المسلمون والمسيحيون وألّفوا جمعية تطالب بريطانيا بالعدول عن هذا الوعد البلفوري ، وكثرت الوفود منهم الى اوربا والى مصر مركز القيادة العامة للجيش البريطانية ، فشعرت بريطانيا بصعوبات حقيقية في ادارة فلسطين (آب ١٩٢١) وحدثت فتنة في يافا والقدس وغيرها من المدن الفلسطينية وتوقفت الاعمال ، والقوم لا عمل لهم الا ارادة بريطانيا على الرجوع عن وعدها للاسرائيليين ، وقد ملأ أبناء فلسطين من غير الاسرائيليين ، وهم ثمانية اضعاف اليهود ، العالم سياحا وعويلا ولم ينفس لهم كرب ، ولم يدركوا الهمة . وهكذا كان من شبح الصهيونية ما أخاف المسلمين والمسيحيين ، فاتحدوا اتحاداً صادقاً وجامعهم في اتحادهم ، وحدة المصلحة على طراز كان فيه شيء من الغرابة .

ولما تركت الحكومة العربية في دمشق وشأنها على اثر انسحاب الجيوش البريطانية الخط الذي عينته معاهدة سايكس بيكو في فلسطين ، رأى الامير فيصل ان يذهب (١ ايلول) الى لندن وباريز ليفهم ساستها حقيقة اماني الامة السورية و يعرف موقفه من معاهدة بريطانيا وفرنسا المتعقدة في ١ ايلول ١٩١٩ وخلاصتها تسليم قلمية والمنطقة الغربية من بلاد العدو المحتلة اي ساحل سورية الى الادارة الفرنسية ، فسحبت بموجبه الجيوش البريطانية الى ما وراء الخط الوهمي الذي عين الحدود بين المنطقتين المنوه عنه بمعاهدة سايكس بيكو ، اما المنطقة الشرقية وبلاد العدو المحتلة اي المنطقة العربية فتبقى الحكومة بدمشق قابضة على زمامها ، بشرط ان تقدم لها الدولة الفرنسية المساعدة الضرورية التي نصت عليها معاهدة سايكس بيكو .

فلم يستطع رجال بريطانيا ان يذبلوا الامير فيصلاً رغائبه ، وأحاطوه على فرنسا لان الانتداب في الشام أصبح لها دون سواها ، وفي فلسطين تم الانتداب لانكلترا وكذلك العراق . فبذل الامير غاية جهده حتى يفهم رجال السياسة في بريطانيا وفرنسا ما هي المسألة السورية ، وبعد الجهد العظيم لم يبال الاتفاق مع رئيس الوزارة الفرنسية المسيو كليمانسو وتعهد له ان يكون مع فرنسا ويرضى بانتدابها على الشام ، واعترفت

فرنسا لاهل الشام على اختلاف مذاهبهم بالاستقلال وحكم أنفسهم بأنفسهم ، وذلك في اللائحة التي تم توقيعها بين الحكومة الجمهورية وصاحب السمو الملكي الامير فيصل يوم ١٦ كانون الاول ١٩١٩ واعترف الامير بان السوريين لا يستطيعون في الوقت الحاضر لاختلال النظام الاجتماعي الناشئ عن الاضطهاد التركي والخسائر المحدثه اثناء الحرب ان يحققوا وحدتهم ، وينظموا إدارة الامة دون مشورة ومعاونة أمة مشاركة ، وطلب باسم الشعب السوري هذه المهمة من فرنسا ، وقد جاء في المادة الخامسة من هذه اللائحة ان صاحب السمو الملكي الامير فيصل يتعهد بان يسهل بالمشاركة مع فرنسا تنظيم دروز حوران بشكل استقلال إداري داخل الدولة السورية ، تكون مجهزة باوسع استقلال يلتئم مع وحدة الدولة ، وجاء في المادة السابعة انه يعترف بالعربية لغة رسمية في الادارة والتدريس ونعلم اللغة الافرنسية كما تعلم لغة مساعدة وبصورة إجبارية ومختارة .

وتعهد الامير بان يقضي على العصابات التي كانت تعتدي على المنطقة الغربية التي يخفق عليها العلم الافرنسي ، وعلق اعترافه بالاننداب الافرنسي جهازاً على إدماج لبنان في الشام ، ثم عاد الى الشام (٣ شعبان ١٣٣٧ - ايار ١٩١٩) فاستقبلته السلطان الافرنسية والبريطانية استقبال الملوك ، وكان استقباله في دمشق فخماً للغاية فخطب في بيروت خطبة رضي عنها الفرنسيون ، ولما جاء دمشق خطب خطبة تحالفها إجمالاً وترضي المذاين بالاستقلال التام الناجز ، وبدأ النقل في سياسته والنساقض في أقواله ، لانه كان بين عاملين العامل الافرنسي والعامل الانكليزي وهذا أشد وأقوى وان لم يكن ظاهراً للعيان ، وذلك بالنسبة لحالة والده ملك التجاز ، ولان انكسرت اذا غضبت ثنقطع عنه المعاونة المالية الشهرية ، وبدونها يستحيل القيام بشيء من اعمال المقاومة والدعاية .

| | | |
|--|---|---|
| المؤتمر السوري ومبايعته | { | وكانت الحكومة العربية بدمشق دعت مؤتمراً |
| فيصل ملكاً على الشام | | تألف من اكثر ابناء الشام ومنها فلسطين ، |
| لوضع القانون الاساسي للبلاد وتعين شكل لحكومتها ، فقرر اعلان ملكية الامير | | |

فيصل (١٦ جمادى الثانية ١٣٣٨ - ٧ آذار ١٩١٩) فبويع له بالملك على الاصول باسم فيصل الاول ، وأعلن شقيقه الامير عبد الله ملكاً على العراق ، وان يكون ولي عهده اخوه الاصغر الامير زيد ، بايع أهل الحل والعقد الملك الجديد فرحين مغتبطين ، ولم يحضر قنصل بريطانيا حفلة التنصيب وحضرها معتمد فرنسا فرحاً مسروراً ، وكان محباً للعرب مجاهراً باستقلالهم ، وتألفت وزارة قالت اولاً انها لا تقبل بالانحداب الافرنسي الذي كان قرره على الشام مؤتمر سان ريمو في ١٦ نيسان (١٩٢٠) . فدهش المفكرون لهذا التبدل في السياسة ، وذهبت في ذلك الظنون كل مذهب ، فمن قائل ان الامير نودي به ملكاً بايعاز انكثرا لانها ذكرت خدماته وخدمات والده واخوته لها في الحرب ، فأرادت ان تكافئهم وتقوم بما وعدتهم به . ومن ذاهب الى ان فرنسا رأت ذلك من مصلحتها ، لانها كانت عرضت على الامير ان يقبل بالانحداب الافرنسي على الشام ما عدا فلسطين وهي تدخل له لبنان في سلك ملكه فلم يقبل . ثم تبين بعد ايام ان المسألة ليست منبعثة الا عن آراء الاحزاب لان من اساطينها من كان يذهب منذ حين الى ان اوربا اذا رأت أهل البلاد ينادون بالامير فيصل ملكاً عليهم ، لا يبتازعهم في ذلك لان البلاد بلادهم وهم أحرار فيها . ويكون ساسة اوربا أمام امر واقع لا يجرأون ان يقضوا ما أبرو !! وفي ١٨ آذار اي بعد البعثة بعشرة ايام أبلغت فرنسا وانكثرا الامير فيصلاً بانهما لا تعترفان بصحة قرار المؤتمر السوري الذي بايعه ملكاً ، ودعي الى الحضور الى اوربا لعرض قضيتهم أمام مجلس عال ، فاعتذر بان أعمال مملكته الجديدة لا تسمح له بمغادرة البلاد ، وأرسل من قبله رسولا الى لندرا وطلب الى فرنسا وانكثرا معاونتهما ليعترفاه باستقلال الشام . وكان الامير يرى من معتمد فرنسا لدى حكومته عطفاً ومعاونة ، وكذلك من معتمد ايطاليا التي أرسلت الى دمشق قنصلاً برتبة سفير صغير ليحسن تمثيل دوائه أمام الدولة السورية الفتية . اما ملكية الملك فيصل فان انكثرا كانت على ما قيل تميل الى الاعتراف بها ولكن فرنسا عارضتها في ذلك .

العصابات بين الساحل والداخل } واخذت العصابات في المنطقة الشرقية تخمس
 فأرسلت الدولة المحتلة في المنطقة الغربية
 (كانون الثاني سنة ١٩٢٠) كتبتين من الجند بدلالة بعض نصارى جديدة مرجعيون
 ودير ميباس والقلعة فضربوا قصر الامير محمود الفاعور امير عرب الفضل في الخصاص
 من ارض الحولة فلما رأى عرب الفضل انهم المقصودون بالذات حملوا على الجند
 حملة منكورة كانت فيها لهم الغلبة وقتل كثير من الجند الافرنسي وقليل من العرب
 وعندئذ هجم نحو مئة وخمسين رجلاً من العرب وارباب القرى المجاورة على جديدة
 مرجعيون فأحرقوا نحو اربعين داراً ونهبوا بعضها وقتلوا نحو عشرين رجلاً من
 اهلها . وادعى العرب انه قتل من الجند نحو اربعمائة ولم يقتل منهم سوى سبعة
 اشخاص وادعى الفرنسي ان المهاجمين من العرب كانوا نحو اربعة آلاف معهم
 ٢٥ مدفعاً رشاشاً ومدفعان من مدافع الصحراء وادعى العرب انهم لم يكونوا اقل من
 ثلاثمائة ولا مدافع لهم ولا رشاشات ولم يكونوا ستة الى واحد كما ادعى الفرنسي بل
 كانوا اقلية .

وبعد خمسة اشهر (١٥ حزيران) تكررت هذه الحوادث في عين ابل والقلعة
 والجديدة نفسها ، وضربت الحكومة النندبة على أهل جبل عامل مائتي الف ليرة ذهباً
 جزاءً عن العصابات في جبلهم . وذكر الريحاني ان الجباة الماهرين جمعوا من هذا
 الجبل اربعمائة وخمسة وثمانين الف ليرة دفعوا منها تعويضاً لاهل الجديدة خمسين
 الف ليرة

ووقعت وقائع كثيرة في بلاد بشارة وانطاكية وتل كلخ ، كانت العصابات العامل
 الاقوى فيها ، كما ان المنطقة الغربية حاوت انشاء عصابات مثل عصابات المنطقة الشرقية
 لتدفع الشر بالشر ، وارصدت في بعض الروايات ثلثمائة الف ليرة ذهباً لهذه الغاية
 ولكن عصابات المنطقة الشرقية كان عملها اعظم وافظع واكتفت بها الحكومة المحتلة
 وابثت ترنقب نتائج عملها وربما جثمت امرها وهوات فيه اكثر من الحقيقة . ومما
 حدث وقائع النصيرية والاسماعيلية (نيسان ١٩١٩ — ١٣٣٧) فاغار النصيرية
 على الاسماعيلية في جبل الكابية في قرى عقر زيتي وخربة الفرس وجمعه شبه وغيرها

من قرى الاسماعيلية ، وفي ناحيتي الخوابي والقدموس ، وسكانها اسماعيلية ، فنهب
القدموس على بكرة ابيها وخربت بعض بيوتها ، وكانت المعركة دامية بين الطائفتين
قدر بعضهم قتلاها بمائتين وزاد آخرون الى اكثر من ذلك ، فزحفت كتيبة من
الجيش الافرنسي على قرية الدويلية فاحرقتها ، واحرقت قرى بقي كاف الجوع والسلورية
ثم سارت الى المرقب مقر الشيخ صالح العلي زعيم الثورة ومن المعتقدين عند النصيرية ،
وكان جمع القلوب حوله بدهائه ، وعشائره تبلغ خمسة آلاف ، ومعهم عشائر المتاوردة ،
فتألفت كتلة مؤلفة من اثني عشر الف مقاتل من اهالي جبال النصيرية وتعاهدت
على قتال الجيش الافرنسي ، فاحرق الجيش بيوت الشيخ صالح فهاجم هذا الحملة
ودامت المعركة بينهما سبع ساعات ، ثم تراجعت الحملة الى القدموس ومنها الى
بانياس وطرسوس .

ومن الاحداث خلال هذه السنة ما وقع في شباط (١٩١٩) بين امراء الاسماعيلية
وجماعتهم من الفلاحين من الاختلاف الذي انقلب الى فتنه ، اضطر معها الامراء ان
يستجدوا بمشايع النصيرية ليعينوهم على ابناء مذهبهم فعاونوهم حتى انتصروا على جماعتهم ،
واراد الفلاحون من الاسماعيلية بعد كسرتهم ان ينتقموا لانفسهم فهاجموا قرى النصيرية
القريبة من بلادهم ، وارتكبوا انواع القسوة وحرقوا الدور ونبشوا قبور الاولياء من
شيعتهم فاضطرت السلطة كما قال الكولونيل نيجر الى التدخل واشتعلت نيران الفتنه
ولم تحمد الا في تموز ١٩٢١ قال : وكادت هذه الفتنه تم الجبل كله ، ولم يعلن
استقلال بلاد النصيرية ، وذكر في تقرير له عن تلك البلاد ان المفاوضات كثرت
بين جبال النصيرية وانقرة اي الحكومة التركية ، وانقطعت بعد عقد الصلح بين
فرنسا وتركيا ، وان البنادق التي جمعتها السلطة من الجبل بلغت خمسة عشر
الفا منها ماوزر حديث جداً ، ومنها انكليزي ، وكان الشيخ صالح زعيم العلويين يرسل
انقرة على الدوام . وذكر الجنرال غورو في احدي خطبه انه اشترك مع عصابات
مرجعيون زعيم وخمسة ملازمين و ٣١٧ جندياً عربياً ، واعانتهم الحكومة العربية
باربع رشاشات ثقيلة وثلاث خفيفة ، وخمسين صندوق ذخيرة ، وان مذابح عين ابل
وفتنه العاملين كانت بتحريض من المنطقة الشرقية اي حكومة فيصل في دمشق ، والغالب

ان عمال الافرنسيين كانوا يبالغون في اخبار العصابات ويؤكد الخبيريون ان العسكر العربي ما اشترك مع العصابات اصلاً ولا في وقعة من الوقائع .

على ان بريطانيا وهي الصديقة المحبة الى حكومة الامير فيصل لم تخل من اعتداء العصابات عليها ، فانها اعتدت على اطراف سمخ في المنطقة البريطانية ، كما اعتدت على قطار في الشمال يحمل عسكرياً بريطانياً . ومما جرى خلال تلك الفترة اتفاق بريطانيا وفرنسا اتفاقاً عسكرياً على ان تحتل الثانية بعلبك ورياق وحاصبيا وراشيا فزحفت الجنود الافرنسية لاحتلال هذه الاقضية وكانت من عمل الحكومة العربية الفيصلية ، وبعد مناوشة في وادي جربان دامت اربع ساعات بين الجيش العربي والجيش الافرنسي دخل هذا بعلبك ، ثم سعى الامير فيصل فاخرجهم من تلك المقاطعة ثانية .

ترامت اخبار العصابات الى الغرب وتجمعت بالطبع على العادة في نقل الاخبار ، وشكا العقلاء من اهل البلاد وخافوا عاقبة هذه السياسة ، واسفوا لنقاتل ابناء الوطن ولتجدد نعمة الدين ، ولم يكن قنصل الدول غافلين عما يتيم وكانوا ينقلون اخبار الوقائع في الجملة على وجه الصحة واخذت العلائق لتوتر بين الامير فيصل وحكومة الانتداب في الساحل ، وكانت فاتحة اعمال الجنرال غورو في الشام ان طلب الى الامير فيصل ان يعطيه البقاع لينقل على الخط الحديدي ما يحتاج اليه الجيش الافرنسي في جهات عينتاب فابي الامير اجابة الطلب .

استفتاء البلاد في الدولة
التي تريد انتدابها

زينت بريطانيا للحلفاء ارسال وفد يستفتي اهل الشام ولبنان ، في الحكومة التي يختارونها للانتداب عليها فجاء الشام (حزيران ١٩١٩) وفد اميركي مندوب من الدول ليدرس حالة البلاد ويعرف ما يرضيها من الحكومات فبدأ عمله من الجنوب الى الشمال ، وجاء دمشق فاجتمع العلماء والرؤساء والقادة ، فكانت الكلمة في المدة الاربع مجمعة على طلب الاستقلال التام ورفض المعاونة الفرنسية وطلب المساعدة الاميركية او البريطانية فقط ، وكذلك مدن الداخلية ، اما السواحل فالموارنة والكاثوليك طلبوا فرنسا . ويقول الريحاني ان الاقلية اللبنانية فقط طلبت الانتداب الافرنسي ولم تشمل هذه الاقلية

الطوائف المسيحية كلها قال : ومما يدعو الى الاسف ان قد كانت اللجنة الاميركية عاملاً آخر من عوامل الشقاق لانها في طريقة الاستفتاء عززت من حيث لا تدري مبدأ العصبية الدينية والطائفية .

وقد قالت هذه اللجنة الاميركية انها زارت ٣٤ مقاطعة من مناطق العرب والانكليز والفرنسيين ، (فلسطين وساحل سورية وداخلها) وان مجموع أهل سورية ٣٦٢٤٧١٥٠٠ نسمة منهم ٢٦٣٦٥٦٠٠٠ من المسلمين و ٥٨٥٦٥٠٠ من المسيحيين و ١٤٠٦٠٠٠ من الدروز و ١١٠٦٠٠٠ من اليهود و ٤٥٠٦٠٠٠ من الطوائف الاخرى . وهو احصاء تقريبي وانه بلغ مجموع العرائض التي تلقتها اللجنة ٩١٠٧٩ عريضة وفي كل واحدة خمسون توقيعاً على الأقل ، وان مطالب الاهالي تُنحصر بطلب انشاء مملكة ملكية ديمقراطية دستورية لامركزية .

ولما جاءت اللجنة الاميركية الى دمشق ، اصدر المؤتمر السوري قراراً فحواه طلب الاستقلال التام لسورية ، والاحتجاج على المادة الثانية والعشرين من التناونف جمعية الامم ، ورفض المساعدة الفرنسية وطلب مساعدة الولايات المتحدة لمدة عشرين سنة وإن لم تقبل هذه فبريطانيا العظمى بنفس هذه الشروط ، وقال : ان العزم معقود على تأسيس حكومة ملكية سورية ديمقراطية برأسها الامير فيصل ، وثقوم على أسس انقومية وتحفظ حقوق الاقلية . وكانت الاكثرية المطلقة في بلاد الحكومة العربية بجانب اميركا في مسألة الانداب ، وفي الساحل كانت بالطبع بفرنسا ولما كانت اميركا لا تقبل بان تنادب على بلد لا شأن لها فيه فالانداب يكون لبريطانيا ، وهذا ما كان يريداه الامير فيصل لتكون البلاد العربية كلها ذات انداب واحد ، وتكون روحها واحدة وهي الروح البريطانية وخالفه فريق صغير فقال بان في تعدد الاندابات فرجاً للشام يقرب ايام استماعتها بحريتها ، ناجية من اشراف الدول المنذبة ، وقد كانت ثقة الامير بالانكليز السكسونيين في القضية السورية عظيمة جداً . كتب الى صاحب هذه الخطط من باريز يوم ٤ آذار ١٩١٩ كتاباً خاصاً جاء فيه : « واذا استثنينا بعض من يريد الاستعمار فجميع اصوات العالم معنا فلا يشق عليكم ما يبلغكم من بعض الجهات

فهي قواقع وضرب دفوف لاخوف منه هذا بشرطان نكون . وجددي الفكر والعمل
الامة الاميركية والبريطانية معنا وسنصل الى ما نحن نتمناه .

افكار الامير فيصل | تجلت افكار الامير فيصل بمجيء اللجنة الاميركية كل
والعبث بالسياسة | التجلي وكانت الدعوة اولاً منذ يوم رفع العلم العربي
على البلاد الداخلية ان الاستقلال تام للبلاد العربية لتناول الوحدة الشام والحجاز
والعراق وسائر الاقطار العربية في الجزيرة ، وما فتئت الدائرة تضيق حتى اخذوا يدعون
الى الشام بمحدوده الطبيعية ، ثم سكتوا عن فلسطين لان العلم البريطاني كان يخفق عليها
منذ خروج الاتراك منها ، ثم اکتفوا بالدعوة لاستقلال سورية ، ثم تخلوا عن لبنان
واكتفوا بالدعوة الى استقلال المدن الاربع وهذه ايضا لم تسلم لهم على ما يراد لها .
وذكر الريحاني انه كان لفصل رأي في تقسيم البلاد الى المقاطعات وفقاً لحالتها
الطبيعية والعرقية والتهذيبية صرح به خصوصاً للوفد اللبناني الذي جاء دمشق يهنئه
بعودته من باريز ، وليؤكده ان فريقاً كبيراً من اللبنانيين يتمنون الانضمام الى سورية .
وقد اخذت الحكومة العربية بعدان نودي بالملك فيصل ملكاً على الشام تزيد في الضرائب
واخذت بالتجنيد (كانون الاول ١٩١٩) وجعل البدل النقدي عن الخدمة العسكرية
ثلاثين ليرة عثمانية لستة اشهر حتى زادت وارداتها من ١٦٨٠٠٠٠٠٠ جنيه الى
٢٦٣٠٠٠٠٠٠ وذلك لتستعين بهذا المال على مقاومة فرنسا ، وقد دفع الناس الاموال
تخلصاً من الخدمة العسكرية ، وكان في البلاد نقد كثير بقي من الحرب العمومية ، ومنه
ما صرفته الحكومتان البريطانية والعربية عقيب الاحتلال ، وكيف يقاوم جيش جديد
جيش حكومة كبرى وهو قليل العدد والعُدَد ، فيه ظواهر ومظاهر لاحقائق يعول
يوم البأس عليها ، حتى بانث المسألة اشبه بالهزل منها بالجد .

لما سألت الوزارة امراء الجيش بحضور الملك فيصل عما عند الجيش العربي
من الذخائر والعتاد وفي كم يوم تنفذ اذا اشتبكت الحرب ، اجابوا انها تنفذ في
ساعتين وقد لا تنفذ في يومين . فسألتهم الوزارة وعلى ماذا تستندون في الحرب
بعد نفاذ الذخائر ، فاجاب بعضهم انهم يأملون في اول ملحمة ان يدحروا الجيش

الافرنسي الزاحف ويستولوا على ذخائره وعتاده وعلق بعضهم آماله على الجيش العربي في حلب . وقال آخر : اننا ننسحب الى رؤوس الجبال ونعتمد على مواقفنا الحربية . ونحارب حرباً دفاعية بالمناوشة . ولما سألتهم الوزارة على ماذا تعتمدون في هذه الحرب ، وعلى اي شيء نتمكن في المقاومة ، اجابوا على حماسة الامة ومعاونتها فاجابهم احد الوزراء : دعونا من البحث في المعنويات فانا نقدرها مثلكم واخبرونا عن قوتكم الفعلية المادية . وكم يمكنكم المقاومة فقالوا : ست ساعات اذا اشتد لظى الحرب دفعة ، ولم نوفق لدحر العدو وهزيمته .

وهكذا كان الامناء على مصلحة الامة يفكرون ويتناقشون قبيل ان ساقطت فرنسا جيشها من الساحل الى الداخل ، اما العامة ومن كان يحمسهم فقد رعب مبلغهم من الخيالات ولا حرج . ولقد قال يوماً احد دعاة العامة ممن اضرروا كثيراً بحماسة قضية الاستقلال في مجلس عقد بدمشق من خاصة القوم ليقروا الحرب مع فرنسا او الصلح وتأليف عصابات تغزو المنطقة الغربية : « ان فرنسا عجزت بعد الحرب العامة ان ترسل الى الشام بضعة انفار من جيشها ، وليس لديها مال وما تهددنا به من قوتها لا تستطيع انفاذه ، فالاولى ان نتكل على الله ونبدها بالحرب . » فأجاب صاحب هذه الخطط وكان في الجلسة من جملة المدعوين : « لست من امراء الجيش حتى اعرف ما عنده من القوى المادية ولكنني اعرف فرنسا وقوتها ولا اكون الى المبالغة كثيراً اذا قلت ان فرنسا تستطيع ان تكتسح الشام من جنوبه الى شماله اذا ارسلت علينا عوران حربها الاخيرة فقط ، فيجب علينا ياسادتي ان لانغش انفسنا وننذرع بالمحال » .

حملة فرنسا على المدن الاربع | كانت الحكومة العربية في ايدي العامة والهازلين من امراء جيشها وخطط الاحزاب متضاربة واعضاء كل حزب متعادون متشاكسون بينهم وكان الجنرال غورو المفوض السامي في سورية ولبنان يعزز جيشه في الساحل ويستدعي من فرنسا فرقاً من الجند فارسل يوم ١ تموز ١٩٢٠ الى الملك فيصل كتاباً مطلعاً : بينما كانت السكينة سائدة في سورية اثناء الاحتلال الانكليزي ابتدأ الفساد يوم حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية ولا

يزال آخذاً بازدياد منذ ذاك الوقت . وارسل اليه ايضاً يوم ١٤ تموز ١٩١٩ بلاغاً يدور على خمس مواد وهي ان يعطى لفرنسا الخط الحديدي من رياق الى حلب ، وان تلغي حكومة فيصل القرعة العسكرية التي اخذت تجمعها و يقبل الاندباب الافرنسي والنقود السورية و يضرب على ايدي الاشقياء . فطلب الملك ملة اربع وعشرين ساعة فانتهت مدة الانذار الاول في ١٨ تموز الساعة الحادية العشرة والنصف تقريباً ثم مددت اربعاً وعشرين ساعة أخرى ثم مددت ثانية وانتهت يوم ٢٢ تموز . ووقع تأخير في ارسال الجواب بالاجاب اي بقبول مطالب فرنسا وكان الداعي اليه انقطاع الاسلاك البرقية فامر الجنرال غورو جيشه بالمسير الى دمشق بقيادة الجنرال غوايه يوم ٢١ تموز فسار الى البقاع واحتل رياق واخذ يصعد الكلات مجدل عنبر وكان الجيش العربي اتخذ له حصوناً في تلك الكلات وكان تجمع بعض عامة دمشق وبضع مئات من البدو عسكر البيشة الحجازي واخذوا يخفون الى مقابلة الجيش الافرنسي الزاحف فوصلوا الى جبال ميسنون وفي يوم ٢٢ تموز خرجت كتيبة عربية من حمص مغيرة على الجند الافرنسي في تل كلخ فانهزمت الكتيبة واخذ منها ١٥١ اسيراً بينهم ضابطان وثلاثة مدافع رشاشة .

وفي ٢٢ تموز اعلم الجنرال غورو الملك فيصل انه مستعدان يتوقف عن الزحف اذا قبل بمواد الانذار وبالشروط التالية (١) تنشر حكومة دمشق منشوراً كتب مسودته الفرنسيين وبيّنوا فيه السبب الذي حملهم على اعطاء الاوامر للجنود بالزحف على دمشق والسبب الذي توقف من أجله ذلك الزحف . (٢) الموافقة على بقاء الجنود الفرنسية حتى نهاية الخط الذي وصلوه وقتئذ ليوم تنفيذ جميع شروط الانذار . (٣) تسليم خط السكة الحديدية من رياق الى التكية للفرنسيين وبقاؤه بأيديهم في هذه المدة . (٤) سحب جميع الفصائل الشريفة الى شرقي هذا الخط وجعل الدرك تحت رعاية الفرنسيين بالمنطقة التي تم احتلالها . (٥) تتوقف حكومة دمشق عن ارسال المعاونات للعصابات المنظمة التي تعمل في المنطقة الافرنسية . (٦) نزع السلاح من أهالي دمشق ومن الجنود الذين سرحوا . (٧) قبول بعثة افرنسية بدمشق تقف على صورة تنفيذ شروط الانذار ، وترسم خطة للمباشرة بتطهير الاندباب الافرنسي على الشام .

كان الجيش الافرنسي الزاحف على دمشق مؤلفاً من عشر كتائب مشاة وست كتائب فرسان وسبع بطاريات من الجنود الافرنسية والسنغالية والمراكشية والجزائرية والجيش العربي مؤلفاً من بضعة الوف ولكن على الورق لا بالفعل مشتتاً في حلب وحمص ودمشق وليس له وحدة في القيادة وصدر الامر الى الجند المرابط في حصون المجدل من الجيش العربي بالتسليم وفض الجيش ثم عاد فصدر الامر ثانية الى جماعة الحصون ان يبقوا على المقاومة ولم يكن عددهم يزيد على مئة وعشرين جندياً واصبح الحكم في دمشق للغوغاء الذين كانت يحمسه زعماءهم وهجموا على القلعة لاختد السلاح منها فنهبوا الذخائر فاضطرت الحكومة لحفظ الامن ان تستعمل فيهم القوة فقتل منهم نحو مئتي انسان وبات الناس في كرب عظيم وهكذا حدث تبليد ، ولم تصل برقية الملك فيصل الى المفوض السامي للجمهورية الافرنسية بقبول شروط فرنسا كلها الا بعد ان تقدم الجيش الافرنسي ووصل الى ميسنوت من طريق دير العشائر الى الميلاس وقطع خط الرجعة على العرب فدارت الحرب في عقبة الطين بين الجيش الزاحف وبين سرايا الجند العربي وجند البدو والمتطوعة وكان الجيش العربي اربعمئة جندي ومئتين من الهجانة يصحبهم ويتبعهم من الاهالي والعربان عدد يختلف بين الاربعة والخمسة آلاف على رواية الريحاني فقتل في اربع ساعات بقنابل الطيارات وقذائف البنادق والرشاشات كثير من الفريقين وفي مقدمة الوطنيين يوسف بك العظمة ناظر حرب المملك فيصل وكان من اكبر القائمين بالمقاومة وعرف انه غلط في تقدير القوة وسبق السيف العذل بعد صدور امر الملك بفض الجيش وتراجع القوة المنظمة في الحملة فآثر الانتحار في خط النار واستشهد في ساحة الحرب محافظاً على شرفه العسكري ، وقد قتل الجيش الزاحف طائفة من الاهالي الذين حاربوه بعد ان سقطوا أسرى في يده لان قانون الجندية لا يسمح بقتل غير الجند اذا اشتركوا في المعركة وفي رواية انهم أجهزوا على الجرحى الوطنيين ايضاً وحفروا قبورهم بأيديهم قبل ان يرموا بالرصاص . وترك الجيش العربي في ساحة الحرب ١٥ مدفعاً قيل ان بعضها كان معطلاً قبل ان ينصب في اما كنه و ٤٠ رشاشاً وذخائر كثيرة . حدثني ثقة زار ساحة ميسنوت غداة الواقعة رواية عن ضابط سنغالي برتبة وكيل

ان قتلى الوطنيين في ميسنون من ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ وانه قال له الضابط : أقسم بالله انه لم يلوث احد السنغاليين يده بدم احد من الوطنيين . قال محدثي : ان كل من رآهم مجندين من قتلى الجيش الداخل هم من السنغاليين ليس فيهم احد من الجنس الابيض .

وعاد المنهزمون من ساحة الحرب فدخل الجيش الافرنسي من الغد الى دمشق (٢٥ تموز) وابلغ رئيس البعثة الافرنسية الكولونيل تولا الملك فيصل ان يعادر دمشق عملاً بقرار حكومة الجمهورية باسرع ما استطاع في السكة الحديدية الحجازية مع عائلته وبطائه على قطار خاص أعارته اياه فأذعن وعين قبيل رحيله علاء الدين بك الدروبي رئيس وزارة على ان يختار بنفسه من يشاء من الوزراء ، اعطاه تقليد الوزارة قبل سفره ايملاً بالوزراء الذين يختارهم دليل الثقة به . فلم يلبث ان الف وزارته ومن الغد القى خطاباً في دار الحكومة حط فيه من كرامة ولي نعمته الملك فيصل فاشتمأ ازباب الوفاء من مصانعته ، ولم يلبث ان أرسل اليه برقية يقول فيها ان السلطة العسكرية تبلغ جلالتم انما تطلب خروجكم من حوران وانها وضعت تحت امركم قطاراً فان لم تفعلوا ضربت قنابل طياراتها قرى حوران .

سقطت دمشق يوم ٢٤ تموز بعد وقعة ميسنون ، وسقطت حلب يوم ٢٣ يهد الجنرال دي لاموت عقيب مناوشة طفيفة ، وحمص وحماة يوم ٢٨ منه بدون صعوبة فقبضت فرنسا على قياد المدن الاربع وحكم الديوان الحربي الافرنسي على ٥٨ رجلاً من الوطنيين اكثرهم من حاشية الملك وبعضهم من أهالي جبل عامل وتركت الحكومة المنندبة لهم المجال حتى انهزموا ومنهم من لحق بالملك ومنهم من سار الى شرقي الأردن او فلسطين او مصر .

لم يسمع للعقلاء رأي قبيل هذه الحوادث ، وكثير منهم كان يكتم فكره لئلا يرمى بضعف الوطنية ، ومنهم من لم يسمعهم السكوت فصرحوا وأوذوا وهجوا ، ونال العامة منهم بايعاز الزعماء . ولكن كان اهل المصالح الحقيقية في البلاد يحاذرون التهور ، و يودون لو ثفاهم الحكومة الوطنية مع حكومة الانداب ، ولطالما نصحوا سرّاً للقائمين بالدعوة الى الاستقلال ان يتروا في الامر ولا يعمدوا الى المقاومة الفعلية لاعتمادهم

مضرة ذلك وان يجعلوا سلاحهم المناقشة بالحسنى. املاً تنزل فرنسا المدف الرابع حرباً ، وان يقبل مستشاروهم وبعض مطالبهم الخفيفة ، وان يرسل الى باريس ولندرا وفد من ارباب المكانة والمعرفة يطلب شروطاً موافقة للانداب في الشام وهو واقع لا محالة ، اذ ليس في يد الملك فيصل ولا في يد ابيه الملك حسين عهد وثيق من دول الحلفاء يثبت له او لابيه ملكية الشام ، وغاية ما ربحه الملك حسين من اتحاده مع الحلفاء في الحرب استثنائه بملك الحجاز . وكان الحلفاء وعدوا ان يمنحوا العرب استقلالهم ويساعدونهم على نياله . وبهذه الوعود انضم نحو ثمانين الفا من العرب الى صفوفهم وقاتلوا معهم الاتراك بقيادة الامير فيصل الذي كانوا ينظرون اليه نظرهم الى قائد من قوادهم ، ولكن الحلفاء لما تم لهم الظفر لم يفوا بوعودهم على ما يرضي العرب .

بعد وقعة ميسنون المحزنة فصلت إدارة البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا عن احكام المدين الرابع واستقل الجنرال دي لاموت باحكام حلب ودير الزور والاسكندرونة وظلت دمشق وحمص وحماة وحوران دولة ذات وزارة وكانت عجلون والصلت وعمان ومعان جعلت حكومة برأسها سموها حكومة شرقي الأردن ثم دعيّت حكومة الشرق العربي بامارة الامير عبد الله شقيق الملك فيصل وهكذا دخلت المدن الرابع في الانداب الافرنسي كما دخل الساحل لاول عهد دخول الحلفاء منذ السنة الماضية .

وخطب الجنرال غورو في دار الحكومة بدمشق ان فرنسا ما جاءت الى هذه البلاد مستعمرة وسترونها أمينة على نقاليتها ، رغبة في ان تضمن استقلالكم في عهد الوصاية الحر ، وقال : ان العصاة التي كانت تهاجم الجيش الفرنسي لم يكونوا من الاشقياء فقط بل كان يقودهم ضباط الجيش النظامي وتمد بالاسلحة والاعتاد والمال ومع ان فتكها لم يكن شديداً في جنود فرنسا فان أضرارها كانت عظيمة على الشعوب الغير المسلمة اذ هدمت بيوتاً ودمرتها تدميراً وأحرقت القرى والساكنون هبت الاموال والمواشي وكانت أعمال الحكومة الشريفة الرسمية لا تقل بازاء فرنسا عداء عن أعمال عصاباتهم . وكان نشر منشوراً في الطيارات على أهالي سورية قبيل وقعة ميسنون قال فيه : « قيل لكم ان فرنسا ترغب في استثماركم وانها تريد استعبادكم وما ذلك الا افك مبین . ان فرنسا قبلت الانداب التي عهد به اليها مؤتمر السلم على

سورية وهي عازمة على ان تدع الموظفين الوطنيين يزاولون أشغالهم بشرط ان لا يعملوا بسلطتهم ضدها فيخونون هكذا اليهود والمواثيق المقطوعة » .

تعريف الانتداب وسياسة (أ) أما الانتداب فلفظ حديث يراد به الاشراف الاتراك فيما يتعلق بالشأن (ب) أو الكفالة وهو لا يخرج عن الحماية الا باعتبارات قليلة . وقد جاء في صك عصبة الامم في تعريفه ان الشعوب التي جعلت تحت حكم الانتداب المحدد والموقت والذي طلبوه من أنفسهم هم مستقلون وان المنتدب عليهم هو المرشد الموقت ريثما يصبحون قادرين على حكم أنفسهم بانفسهم . وقال بوانكاره من سياسة فرنسا : لسنا في الشرق لنضم بلاداً اليها ولا نضع حمايتها وإنما نحن هناك بموجب انتداب تلقيناه من عصبة الامم تنفيذاً لماهدة فرساي . وقال ديبوي من علماء القضاء في فرنسا : الانتداب انفق ما جاءت به سياسة الحرب العظمى فهو عبارة عن حماية مستترة . وفي المجلة النيابية ان مدة الانتداب تقسم الى ثلاثة ادوار ابتداء الدور الثاني في ٢٩ ايلول ١٩٢٣ وينتهي في ٢٩ ايلول ١٩٢٦ وهذا الدور يسمونه بدور تنظيم الانتداب وفي انتهاء الدور الثاني يجب ان يكون هناك حكومات وطنية وعندها يدخل الانتداب في دور التصفية وبعد انتهاء الدور الثالث للانتداب تعقد معاهدة تحالف مؤقتة تقوم مقام النظام الحالي وتحدد بانفاق مشترك حقوق المنتدبين والمنتدب عليهم وسلطتهم وهذا يعد انتهاء للانتداب . ولم يحدد مدة معينة للانتداب في سورية ولبنان وفلسطين .

جملت معاهدة صلح فرساي (١٩١٨) الانتداب ثلاث طبقات فما رُمز له بحرف (ا) هو الانتداب الخفيف مثل انتداب فرنسا في سورية ولبنان والانتداب البريطاني في فلسطين والعراق و يقضي على الدولة المنتدبة على هذه الاقطار ان تقصر مهمتها على تقديم مساعدتها لها . ومن الانتداب ما رُمز له بحرف (ب) وهو الانتداب ببعض الشروط . ومنه ما رُمز له بحرف (ج) وهو انتداب امة على بلادها تعدها جزءاً من أملاك الدولة المنتدبة . فجملت الشام من الصنف الاول من الانتداب اي انه اعترف باستعدادها للاستقلال اذا دربت عليه زمناً .

قال الرئيس و يلسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة في شروطه الاربعة عشر :
 أما الامم الاخرى التي هي تحت النبر التركي فيكفل لها كيان آمن ويمكن لها حتى
 ترثني في استقلالها من غير عمامة ، وقيل انه كان يضم ان يجعل الاندباب على الشام
 للارجنئين وعلى فلسطين للبرنقال ، وانه كان يؤثر ان يقوم بهذه المهمة دول بعيدة عن
 الوسط الاوربي بعيدة عن المطامع ، لها القدرح المعلى في تمدن الشعوب ولكن هذا الرأي
 يصعب تحقيقه من وجوه . ولم يسمع ان احداً من اهل السلطات الاجنبية في الشام قال ان
 هذه البلاد غير مستقلة منذ سقطت في ايدي الحلفاء وقال احد كبار رجالهم ان ما
 عملته فرنسا في الجزائر في القرن الماضي يتعذر جداً عمله في هذا القرن والناس هنا
 غيرهم هناك ، والاحوال في الشام غير الاحوال في الجزائر . وفي المادة الاولى من
 نص الميثاق الوطني التركي الذي تباع الاثراك على العمل به بعد سقوط الدولة العثمانية
 ما نصه : ان البلاد التي تسكنها اكثرية عربية من بلاد المملكة العثمانية تلك البلاد
 التي كانت تحتلها الجيوش المحاربة حين عقد الهدنة في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨ ينبغي
 ان تعين هي نفسها مصيرها باستفتاء الرأي العام فيها استفتاء حراً . وهكذا كان كرم
 الاتراك مع اخوانهم العرب اجازوا لهم ان يعلنوا استقلال الشام عند آخر ساعة من
 سقوط عاصمة البلاد بيد الحلفاء ورفضوا لهم ان يعينوا مصيرهم بانفسهم في ميثاقهم
 الوطني وهم يومئذ لم يكونوا يملكون لانفسهم حولاً ولا طولاً ، ولما عرضت المسائل
 العثمانية على بساط البحث في مؤتمر لوزان لم يجر ذكر الشام الا من حيث الحدود التي تم
 الاتفاق عليها بين فرنسا وتركيا بصورة لاتزال سرية عرف منها انه اقتطع جزء عظيم
 من التخوم الشمالية في الشام اضيفت الى آسيا الصغرى بدون حق . هذا والاتراك
 كانوا ظافرين باعدائهم اليونان الذين كانوا استولوا على معظم ولايات ادرنة وازمير
 وبروصة بعد الحرب العامة فقويت جمهورية تركيا التي جعلت مقرها في انقرة بدلاً
 من الاستانة وهزمت جيش اليونان شرهزيمة وذلك في شهر آب ١٩٢٢ فاخذ الاتراك
 من اليونان ٤٥ الف اسير وقتلوا اكثر من ١٥٠ الفاً وقتل الاتراك اليونان في بلادهم
 ما خلا الاستانة قتلاً عاماً وكان ظفراً داوى به الاتراك جراحهم بعد هزائمهم في
 الحرب العالمية .

نصت المادة ٩٤ و ٩٥ من معاهدة الصلح التي عقدت في مدينة سيفر يوم ١٠ آب ١٩٢٠ بين الحلفاء والمشاركات معهن من الدول وبين الدولة العثمانية ان المتعاقدين على اتفاق بان الشام والعراق وفلسطين عملاً بالفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من الجزء الاول (عهد جمعية الامم) انه معترف بها مؤقتاً دبل مستقلة على شرط ان تبذل لها النصائح والمعونة من دول مندوبة عليها تقودها في ادارتها الى الزمن الذي يستطعن ان يسرن بانفسهن وان المنشدب على فلسطين يكون مسؤولاً عن تنفيذ التصريح الذي صرحت به حكومة بريطانيا يوم ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ووافقت عليه الدول المحالفة بشأن تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين على ان لا تمس الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين ولا تمس الحقوق والانظمة السياسية التي يستفيد منها اليهود في كل بلد . وكان الحلفاء تفاوضوا مرات بشأن الشام فرأوا ان تكون فلسطين دولية ولكن الاتراك لما هاجموا ترعة السويس عرف الانكايذ مكانة هذا القطر الخربة فرأوا ان يجعلوها منحدراً لمصر ويفصلوا بين عرب الشام وعرب مصر فاخذوا يطالبون بحيفا وعكا ثم بفلسطين كلها وتعهدوا لليهود ان يجعلوها لهم وطناً قومياً وتعهد الحلفاء تعهدات مبهمه بشأن الشام حتى يعاونهم برجاله ونفوذهم .

| | |
|---------------------------------------|---|
| غادر الملك فيصل دمشق في زمرة من عماله | } تأثر الحورانيين بعوامل الفيصليين ومقتل وزيرين وقتل اليهود في فلسطين |
| واكثرهم من السوريين ، وخرج من الجنوب | |
| غداة نجاء الجيش الفرنسي من الغرب ، | |

فاخذت الحكومة المحتلة تجتمع السلاح من البادية والحاضرة ، ووضعت على المدف الاربع غرامة حربية قدرها مئتا الف ليرة عثمانية ذهباً ، ولكن اهل حوران لم يخضعوا للامر ومردوا على الحكومة وبث فيهم بعض اعوان الملك فيصل فكر الثورة ، فرأى رئيس الوزارة علاء الدين بك الدروبي ان يذهب بنفسه لالقاء النصائح عليهم مستصحباً معه وزيرين من وزارته احدهما عبد الرحمن بك اليوسف رئيس مجلس الشورى ومن كبار اعيان دمشق ، فهاجمهم بعض الحوارة في محطة خربة الغزالة وانزلوهم من القطار وقتل الدروبي واليوسف بايد اثمته ، وقتل بعض ركاب القطار ، مع ان رئيس الوزارة

كان عارفاً بأفكار الحوارة من جهة حكومة دمشق ، ووصمهم لها بالخيانة لانها سلمت البلاد للاجانب . وانجحت وقعة حوران عن جمع غرامة قدرها مئة وعشرون الف ليرة عثمانية ذهباً منها دية الوزيرين لكل من أسرنها عشرة آلاف ليرة وحكم على بعض المتهمين بمقتل الوزيرين فزادت حوران لذلك خراباً فوق خرابها .

وفي آب ١٩٢٠ زار المندوب السامي في فلسطين السر هيرت صموئيل الشرق العربي ومما قاله في خطاب له في الصلت : ان الحكومة الفرنسية كررت تأكيداتها بانها لا تريد ان تتدخل باي شكل كان في شؤون هذه المقاطعة وبما ان الحكومة الفرنسية قد عززت نفوذها في دمشق فقد اصبح من الضروري فصل هذه المقاطعة عن ادارة دمشق . تسألوني عن نوع المساعدة التي تريد انكثرا ان تقدمها لكم فاجيبكم انها لا تريد ان تغممكم الى الادارة الموجودة الآن في فلسطين بل ننشيء لكم ادارة منفردة تساعدكم على ان تحكموا انفسكم بانفسكم ، وسترسل اليكم عدداً قليلاً من الضباط السياسيين ورجال القضاء ذوي الخبرة الواقفين وقوفاً تاماً على اللغة العربية واحوال الشعب العربي فيسكنون البلدان الكبرى في هذه المقاطعة وانتم تعرفون اكثرهم شخصياً وسيساعدونكم في تنظيم الدفاع تجاه اي هجوم خارجي وتنظيم الشرطة لصيانة الامن في الداخل وترقية التجارة وتأييد العدالة وانفاق ما تدفعونه من الضرائب بامانة تامة على مصالحكم واحتياجاتكم ويستشيرونكم في الغاية التي تدفع لاجلها الاموال واصلاح الطرق وترميمها وانشاء المدارس وتقديم المعاونات الصحية . الى ان قال : وستكون التعليمات العمومية التي ترسلها الحكومة البريطانية الى موظفيها هنا مبنية على قاعدة مساعدة اهالي البلاد ليحكموا انفسهم بانفسهم ، فراعاة هذه المبادئ المؤسسة على العدل والشرف اللذين تمتاز بها الادارة البريطانية في جميع انحاء العالم هي الاسس الصالحة لكل حكومة صالحة . ١٠٠ هـ . وفي كتاب «علمان في عمان» : وقد قول هذا البيان من اهالي المنطقة بفتور دل عليه ان زعماءهم جمدوا بعد ان سمعوه جمود الحيرة لا يدرون اشرأر يد بهم ام اراد بهم ربهم رشداً . . . ولما سئلوا عما يجول في نفوسهم وقف احدهم وقال : يظهر ان ادربا عدلت عن فكرة اعتبار الكفالات في الامم ورجعت الى القرعة فهي بينما تمنع سورية ولبنان وفلسطين الاستقلال تعترف به لشرقي الاردن ١٠٠٠

واشتد الهياج بين الصهيونيين واعدائهم من سكان البلاد في حيفا في نيسان ١٩٢٠ ونشبت الفتنة في القدس سفكت فيها الدماء ونهبت مخازن اليهود ولولا مهارة الادارة البريطانية لامتد لهيب العداة الى سائر مدن فلسطين لما ملئت به النفوس من الغيظ من الصهيونية والصهيونيين .

* * *

استقلال لبنان وحكومة العلويين
ومجلس فلسطين ودولة شرقي الاردن
ودولة جبل الدروز وخراب البلاد
واقسيمها

وفي اول ايلول ١٩٢٠ أعلن استقلال
لبنان في حرج بيروت بحضور الجنرال
غورو وأعيان البلاد ، وأضيف الى
لبنان الاصل الذي عرف بمحدوده
بعد سنة الستين جبل عامل ووادي النيم والبقاع وبعلبك وطرابلس وعكار والحصن
وصافيتا فاحتج فريق من أهالي بيروت وطرابلس مع بقية البلدان المنضمة من الداخل
الى متصرفية جبل لبنان قائلين ان هذا الضم جرى بدون رضا الاهالي وبغير استفتاء ،
وان ذلك مخالف لتصریحات وزارة الخارجية في فرنسا وبريطانيا القائلة بان البلاد
التي انسلخت عن الدولة العثمانية مستقلة وللاهابي الحرية التامة في تقرير مصيرهم
وتأسيس حكوماتهم الوطنية ، وان الحلفاء لا يرون سكان تلك البلاد على قبول
نظام معين .

وجعل للبنان حاكم فرنساوي ، لان فرنسا رأت ان الاختلاف بين طوائفه لا يمكن
معه ارضائهم كلهم ، اذا عين أحد أبناء الطوائف الاخرى حاكماً ، فعادت نفمة
الطائفية الى الجبل بصورة أشد مما كانت على عهد الترك وقسمت مقاعد الحكم على
الطوائف ، وأقيم للبنان الذي دعي لبنان الكبير مجلس نيابي لتنفيذ المفوضية العليا
للجمهورية الافرنسية في سورية ولبنان ما تراه صالحاً من مقرراته ، وقسم لبنان الى
ألوية وأقضية يدير شؤونها موظفون وطنيون و يدير الحكومة المركزية في بيروت
عدة مديرين او وكلاء او وزراء يتقلد زمامها الوطنيون ، وكل مدير منهم مستشار
افرنسي . وتمت للموارنة في لبنان أمنيته التي طالما نشدوها من حكم فرنسا لهم ، ونجت
الشام من تهديد بطريقهم وكانت انتدبته طائفته الى مؤتمر الصلح لينظر في استقلال

لبنان ، فقال وقد هدد بان لبنان يبقى محصوراً في حدوده القديمة اذا أصر على الرفض :
« اننا نفضل الموت جوعاً في ظل صخورنا على ان نكون تابعين لدمشق » .

واقنطعت بلاد النصيرية وأصبح يقال لها بلاد العلويين جعلت حاضرتها اللاذقية وحاكمها فرنساوي وإدارتها اشبه بانتداب الدرجة الثانية ممارمزله بحرف (ب) وكان تقسيم البلاد على هذا المنوال مبدأ خرابها الاقتصادي بل من أهم العوامل فيه فاضطرت الى تأليف عدة وزارات ومجالس وإدارات ومنها ما لا عمل له في الواقع ونفس الامر الا قبض الرواتب من مال المكلفين ، وشوه هذا الاسراف في اموال الحكومة على مقياس واسع وقد حاولت الحكومات غير مرة ان تقتصد وما برحت الاموال تصرف في الامور المستهلكة اكثر من الامور المستحصلة ولا نسبة بين رواتب كبار الموظفين وصغارهم .

وفي تشرين الاول ١٩٢٠ انتخب في فلسطين مجلس شوري . وُلف من عشرين عضواً نصفهم من رجال الحكومة والنصف الآخر نصبتهم الحكومة ، وهم اربعة من المسلمين وثلاثة من المسيحيين وثلاثة من الاسرائيليين ، ووظيفة هذا المجلس استشارية فقط . فقامت فلسطين مسلموها ومسيحيوها محتجين على هذا المجلس . وفي تشرين الثاني ١٩٢٠ قدم الى عمان الامير عبد الله بن الملك حسين ملك الحجاز لاسترجاع دمشق من فرنسا وإرجاعها الى السلطة الشريفة فأرضته بريطانيا ان جعلته اميراً على بلاد عبر الاردن على ان لا يمس أراضي الانتداب الافرنسي باذى ، وقد حدثت بعض حوادث على التخوم بين حوران والبلقاء وتألفت هناك عصابات لغزو الاراضي التي جعلت تحت الانتداب الافرنسي وبعد ان قصدت احدى العصابات اغتيال الجنرال غورو المفوض السامي في ٢٣ حزيران ١٩٢١ على ٤٠ كيلومتراً من دمشق في طريق القنيطرة ، ولم ينالوه باذى بل قتل أحد ضباطه ، طوي بساط العصابات والمؤمرات وكان امر هذه العصابات مما دبر في الشرق العربي .

وفي الخامس والعشرين من حزيران (١٩٢١) أعلن استقلال جبل الدروز وكان من قبل بين تاملين العامل البريطاني والعامل الافرنسي فلما جاء الجيش الافرنسي الى دمشق كان من أهل الجبل من يرحبون بالفرنساوين فنالوا استقلالهم (٥ نيسان ١٩٢١)

وأصبحت بلادهم وهي نحو مائة وخمسة عشرة قرية دولة برأسها جعلت السويدياء عاصمتها ، ونصب على الجبل امير من أهله ومستشار فرنساوي ، فانتزع ايضاً من حكومة دمشق التي جعلت دولة لها حاكم ، وذلك بعد اربعة أشهر من استلام الفرنسيين زمام الامر في دمشق ، وجعل لهذه الدولة مديرون بدلاً من وزراء وجعل لكل من دولة لبنان الكبير ودولة العلويين ودولة حلب ودولة دمشق ودولة جبل الدروز الواقعة تحت الانتداب الفرنسي علم خاص لكل دولة منها ، يحمل في مطاويه العلم الفرنسي المثلث الالوان ، كما جعل لفلسطين علم آخر واقتصر شرقي الاردن على العلم العربي ، وبذلك أصبحت الشام سبع دول وكانت على آخر عهد الترك ثلاث ولايات (دمشق وبيروت وحلب) وثلاثة ألوية مستقلة (القدس - لبنان - ديرالزور) .

متاعب لبريطانيا وفرنسا } وفي شباط ١٩٢١ عقد مؤتمر في حيفا مؤلف من
واعتدأت } رجال فلسطين مسلمين ومسيحيين نظم احتجاجات
على وعد بلفور وطلب تأليف حكومة وطنية وانتخاب جمعية تأسيسية ينتخبها السكان العرب . وفي ١٥ آذار خرج الزعيم السيد فؤاد سليم من اربد في مائة وعشرين فارساً للقبض على بعض الاشقياء من عرب الشقيرات وعلى كليب الشريدي وولده عبد الله وابن أخيه رشيد الجروان الشريدي من زعماء الكورة في جبال عجلون فأحاطت بالقوة العسكرية أهالي ست قرى بقيادة كليب الشريدي وابنه وساعدتهم الغصابات ووعورة الاراضي وسقط ربع الجنود بين قتيل وجريح وفقد ثلث الخيل ثم استسلم الباقون للعرب النازحين الذين سلبوا الضباط والعسكر عتادهم واسلحتهم والبستهم . قال الزعيم المشار اليه : وقد توفقنا بعد سنتين من هذه الحادثة المشؤومة للتغلب على أهل الكورة والاقتصاص منهم فقضينا على روح الثورة وأرغمناهم على احترام الحكومة الوطنية وخسرت الكورة في ثورتها الثانية خسائر كبيرة وذل أهلها بعد ان كادت روح التمرد التي نشرها كليب الشريدي في رجال قومه ان تنفخ في عجلون ايضاً وفي سائر الجزء الشمالي من الشرق العربي روحاً من التصدي للحكومة والاستخفاف بها .

والتي المندوب السامي في فلسطين في ١٨ نيسان ١٩٢١ خطاباً في عمان حاضرة الشرق العربي ومما قال فيه ان الحكومة البريطانية تقدر الخدمات التي قدمتها جيوش العرب في الحرب وترغب في ان ننوطد في زمن السلم دعائم التحالف الذي بني في خلال الحرب، وقال : يساعد الضباط البريطانيون منذ شهر آب الماضي في إدارة شؤون البلاد الواقعة وراء نهر الاردن وسيواصلون العمل بصفتهم مستشارين بالنيابة عني للامير عبد الله وموظفيه في انحاء البلاد المختلفة . وقال ان الضباط البريطانيين الذين يقومون بهذه المهمة في جميع انحاء المنطقة يعطفون على السكان وعلى آداب اللغة العربية وان الحكومة البريطانية عولت على ان لا تكون البلدان الواقعة فيما وراء نهر الاردن مركزاً للعداء سواء ضد فلسطين او سورية .

وفي أول أيار ١٩٢١ نشبت فتنة بين الصهيونيين وأبناء البلاد في يافا انجلت عن قتل ٤٨ رجلاً من العرب وجرح ٧٣ منهم وقتل من اليهود ٤٧ شخصاً وجرح ١٤٦ . وفي سنة ١٩٢١ دخل الاتراك الى عينتاب وأخرجوا الكتائب الفرنسية منها بعد حرب شديدة وقتل منها أناس وباغت عربان الزور الفرقة الفرنسية والسورية وقتلوا بعض ضباطها فخل بهم العقاب، فتخلت فرنسا عن قلقية باجمعها وانحصرت قوتها بالشام من حدود كليس في الشمال، وكانت العصابات مؤلفة من بعض الأشداء من أبناء البلاد في جهات حارم وكفر تخارين وادلب وجبل الزاوية والمرة وصهيون لقاوم الجيش الفرنسي وجرت بينها وبينه معارك هائلة قتل فيها كثير من الفريقين وكان بعض رؤساء تلك العصابات من الاتراك .

وقد فقدت فرنسا من جندها هناك وهنا بضعة الوف وقال الجنرال و يغاند المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في حفلة ازاحة الستار عن النصب التذكارى الذي أقيم لقتلى جيش الشرق في بيروت سلخ ذي القعدة ١٣٤٢ (حزيران ١٩٢٤) : بعد الهدنة سكت المدفع في اوربا الا في الشام وكانت الامهات الافرنسيات يعتقدن بانهن سيشاهدن اولادهن الى جنبهن فاضطرت فرنسا الى ارسال اولادها الى ساحات القتال في مرعش واورفة وميسنون حيث تم تحرير سورية بقيادة سلفي الجنرال غورو وقد بلغ عدد القتلى نحو تسعة آلاف و ٢٥٠ ضابطاً فيمكن ان تذكر اولادكم

واولاد اولادكم بذلك اهـ . ولم يقتل هذا العدد في ارض الشام بل معظم من قتل في قيلقية .

توحيد حكومات سورية } لم يرتض اهل الداخل و فريق عظيم من سكان
وعدم رضى الاهلين } الساحل هذا التمزيق الذي حل بالشام ، فكثير
الناقمون والناقدون ، وزعم بعض ولاة الامر من المنشدین ان هذا التقسيم كان يرضى
الاهلين ونزلت فرنسا على رغائبهم وبعد التجربة الاولى رأّت المفوضية العليا ان تعيد
المدن الاربع الى جمعها بعدالشتات فاعلن الجنرال غورو في اليوم العشرين من حزيران
١٩٢١ في دمشق اساس الوحدة السورية بانشاء مجلس اتحادي لها مؤلف من دول
العلوبين وحلب ودمشق فقط ، على ان يكون اساساً للوحدة والتي خطاباً مثل خطاب
دمشق في مدينة حلب يوم ٢٨ منه بحضور مندوبي الدول الثلاث ومما قال فيه : وكان
العمل الاول الذي قامت به فرنسا لتوطيد اتحادكم وحررتكم الوطنية تأسيس الحكومات
المستقلة وكانت الغاية من ذلك مراعات النزعات الخاصة ووضعها في قالب يتألف منه
مجموع متناسب الاجزاء . قال ولم يفتني قط وجوب احكام الصلات بين هذه الدول
التي ينبغي ان يؤلف مجموعها سورية المستقلة اي سورية التي طالما رغبت فرنسا في
انشائها قال : والواجب اولاً تنظيم هذه الدول ومنحها قسطاً اوفر من الحرية ، وتأسيس
صلة اتحاد بينها ، ولا اذكر لبنان بين دول الاتحاد لان تقاليد الخصوصية تقضي عليه
بالسعي على انفراد وراء التقدم وبمشاركة قليلة في الاتحاد السوري لا تتناول الا
الوجهة الاقتصادية دون سواها ، الى ان يقرر من تلقاء نفسه الدخول في هذا الاتحاد .
وبدي من قابل يجعل بعض فروع الادارة الاتحادية كالبريد والبرق والعدلية
والمعارف العالية والتمليك وجعل للاتحاد مجلس مؤلف من خمسة عشر عضواً خمسة
عن كل دولة ، واجتمع المجلس في حلب في السنة الاولى وفي التالية نقل مقره الى
دمشق بصورة دائمة ، ويختار هؤلاء عضواً رئيساً من بينهم فعين لهذا الغرض
السيد صبحي بركات الخالدي واختار لدوائر الاتحاد مع العرب جماعة من الاتراك
والارمن والروم فتأثر الوطنيون لذلك لان اللغة العربية لغة البلاد لم ترع لها حقوقها

وحرّم الوظائف بعض اهل البلاد وتولاها بعض من ليس لهم بهذه الارض صلة ، ولا بالعرب والعربية قرابة . وفي خريف ١٩٢٢ ذهب الى انكلترا الامير عبد الله بن الحسين امير شرقي الاردن وفي ١٧ ايار عرّضت بريطانيا العظمى ان تعترف باستقلال بلاده الواقعة في عبر الاردن وان تجعل لها حكومة دستورية . وتعقد معه اتفاقاً على ان نعهد حكومته بالاعتراف بالحقوق الدولية . وانشأت حكومة الشرق العربي تمنح لقب باشا لمن تريد تشريفهم او تأليف قلوبهم من المشايخ وغيرهم والتف حول امير تلك البلاد بعض جماعات من الوطنيين الذين كانوا اشغلوا مع اخيه الملك فيصل في دمشق ولم يلبثوا ان انفصوا من حوله بطرق اتخذتها حكومته ، وكان ينقاضي لها معاونة سنوية من بريطانيا ١٥٠ الف جنيهه ولنفقاته الخاصة ٣٥ الفاً من الجنيهات ثم انزلت المعاونة الى ٨٠ الفاً ومخصصاته الى عشرين الفاً .

وفي صيف سنة ١٩٢٣ كثر اعتداء دروز الشوف على جيرانهم المسيحيين في لبنان واغتيل بعضهم ، فقابلهم المعتدى عليهم بالمثل ، واختل الامن في اواسط لبنان وكاد يتعدى الى بلاد بعلبك ، فعنيت حكومة الاندباب بجمع السلاح من الايدي وعاقبت الفاعلين ، ووضعت غرامات على بعض القرى التي خالفت اوامر الحكومة فاستقامت الامور .

وفي سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٤ كثر اغلاق الحوانيت في دمشق وحمص وحماة احتجاجاً على كثرة الضرائب ، وتقريب بعض اشخاص من الحكومة المنتدبة يوسعون مجال الخلاف بين المنتدبين والمنتدب عليهم ، ويسودون الناس بوشاياتهم للاحتفاظ بكراسيهم واغلقت دمشق خمسة عشر يوماً متتابعة احتجاجاً صامتاً على انتخاب اعضاء المجلس التمثيلي بالاكرام واستعمال الحكومة وسائط الارهاب في المدن والقرى .

| | |
|--|--|
| وجاء في معاهدة لوزان (٣٠ شباط و ٢٤ تموز ١٩٢٣) التي عقدت بين الدول وبين تركيا ان الحدود التركية السورية | } سنك الاندباب وموافقة الدول الكبرى عليه واشكال جديدة من الادارة |
|--|--|

قد ذكرت في المادة الثامنة من الوفاق الافرنسي التركي المؤرخ بيوم عشرين تشرين

الاول ١٩٢١ — والغالب ان هذا الاتفاق المعروف باتفاق فرانكلين بويون ولم ينشر للناس خلافاً لما ادعته السياسة في العهد الحديث بعد الحرب من انه لا تعقد بين الدول محادثات سرية بعد الآن — واثبت مجلس جمعية الامم في جلسته المنعقدة يوم ٢٩ ايلول ١٩٢٣ ان الانتداب على الشام (سورية ولبنان) والانتداب على فلسطين قد دخلا كلاهما في دور التنفيذ ، وقد جاء في المادة الاولى من هذا الصك ان الدولة المنتدبة تضع نظاماً اساسياً لسورية ولبنان في خلال ثلاث سنوات تبتدي من تاريخ الشروع بتطبيق الانتداب ، و بعد هذا النظام الاساسي بالاتفاق مع السلطات الوطنية ، وينظر فيه بين الاعتبار الى حقوق جميع الاهليين في الاراضي المذكورة ، والى مصالحهم وامانيهم ، و ينص فيه على اتخاذ التدابير التي من شأنها ان تسهل لسورية ولبنان سبيل النمو والتقدم المتوالي كدولتين مستقلتين ، وتسير ادارة سورية ولبنان طبقاً لروح هذا الانتداب ريثما يشرع في تنفيذ النظام الاساسي ، وتؤيد الدولة المنتدبة الاستقلال الاداري المحلي فيها ، بكل ما تسمح به الاحوال . وجاء في المادة الثانية انه يمكن للدولة المنتدبة ان تبتقي جنودها في الاراضي المار ذكرها لاجل الدفاع عنها ، ويمكنها ايضاً الى ان ينفذ النظام الاساسي و يعاد الامن الى نصابه ان تنظم القوات المحلية اللازمة « المعروفة بالميليس » للدفاع عن تلك الاراضي ، وان تستخدمها في هذا السبيل وفي حفظ النظام ، ولا يجند افراد القوات المذكورة الا من اهل الاراضي المذكورة ، وبعد ذلك تصبح تلك القوات تابعة للسلطة المحلية مع الاحتفاظ بما يجب ان يبقى للدولة المنتدبة من حق السلطة والمراقبة عليها ، ولا يجوز استخدامها لغايات غير التي تقدم ذكرها الا بترخيص من الدول المنتدبة . وما من شيء يمنع سورية ولبنان من الاشتراك في الاتاق على القوة العسكرية النازلة في اراضيها من قوات الدولة المنتدبة ، ويحق للدولة المنتدبة في كل حين ان تستخدم المواني والخطوط الحديدية ووسائل المواصلات في سورية ولبنان لنقل جنودها وجميع المعدات والمؤن ومواد الوقود . وفي المادة الثامنة ان الدولة المنتدبة تضمن للجميع حرية الضمير التامة كما تضمن حرية القيام بجميع الشعائر الدينية التي لتفق مع النظام العام والآداب ولا يجوز ان يتبع شيء من التمييز وايفاء المساواة بين سكان سورية ولبنان بسبب اختلاف الجنس او الدين او اللغة

وتقوم الدولة بانماء التعليم العام باللغات الوطنية الشائعة في اراضي سورية ولبنان .
وعقد مؤتمر في الكويت في خريف سنة ١٩٢٣ لتسوية الحدود بين سلطنة نجد
والعراق وشرق الأردن والحجاز وكان مؤلفاً من مندوب من كل هذه الدول مع
مراقب انكليزي للسهر على مصالح بريطانيا ثم تأجل اجتماعه في كانون الاول ١٩٢٣
واستؤنف انعقاده في شباط سنة ١٩٢٤ فادى الموقف الذي وقفه الملك حسين صاحب
الحجاز يومئذ الى فشل المفاوضات . وصادقت الولايات المتحدة (١٩٢٤ — ١٣٤٣)
على صك الانتداب الافرنسي في سورية ولبنان الذي وضع موضع التنفيذ منذ ٢٠
ايلول ١٩٢٣ وقد جاء في المادة الخامسة منه للاميركان الحرية التامة في انشاء المعاهد
والصروح والملاجيء العلمية والدينية والفنية في جميع اراضي الانتداب الافرنسي مع
التعليم باللغة الانكليزية ولم تعترف الولايات المتحدة بالانتداب البريطاني الا في
اواخر شباط ١٩٢٥ مشترطة ان يكون للرعايا الاميركيين مثل الحقوق التي
لرعايا الانكليز .

طبقت مواد الاتحاد في حلب ودمشق بعض الشيء مع وجود الدولتين دولة حلب
ودولة دمشق ، اما دولة العلويين فلم تتحد بغير الامور العدلية . وفي يوم ٢٦ حزيران
١٩٢٤ (٤ ذي القعدة ١٣٤٢) أعلن المفوض السامي الجنرال ويفاند في حديقة الامة
بدمشق الوحدة السورية وتأليف الدولة العربية السورية من حكومتي حلب ودمشق
فقط ، فخرجت دولة العلويين ودولة جبل الدروز كما خرجت دولة لبنان الكبير بالطبع
من باب الوحدة ، فأصبح بذلك عدد دول الشام ستاً بدلاً من سبع اي ان المدن
الاربعة عادت فألفت حكومة واحدة على نحو ما كانت زمن الحكومة الفيصلية ولكن
بتشذيب بعض أطرافها اذ نزع من جسمها دولتا الشرق العربي وجبل الدروز وخطب
القائد قائلاً : ان هذه الدولة الجديدة الفخورة بماضٍ يحوي أعظم ما نظره الشرق
والتي ستضم اليها أهم مدن الاسلام التي كانت منبع الترقى الفكري في جميع
الازمان ٠٠٠ ان مثل هذه الدولة تقدر ويجب ان تكون في الشرق الاوسط مركزاً
مشعاً وجذاباً . والسلطة التشريعية تكون بيد مجلس نيابي والسلطة الاجرائية تسلم
الى شخص يدعى رئيس الحكومة السورية بالانتخاب ويكون له مجلس وزراء يجتمعون

تحت رئاسته يكون كل واحد من هؤلاء الوزراء مسؤولاً شخصياً عن دائرته أمام مجلس الأمة .

وفي حزيران ١٩٢٤ (ذي القعدة ١٣٤٢) التقى أحد رجال بريطانيا بيانا قال فيه : ان مهمة بريطانيا في فلسطين هي انشاء وطن قومي لليهود من ناحية وصيانة مصالح السكان غير اليهود من ناحية أخرى ، وقد سعت بريطانيا لمعاملة السكان على قدم المساواة ، ولكنها صادفت متاعب كثيرة بالنظر لعدم تجانسهم ، وانشأت إدارتين مختلفتين احدهما في غربي الاردن حيث يوجد الوطن القومي لليهود والاخر في شرقي الاردن حيث للعرب الاغلبية ، ولكنها تسعى دائما الى التوفيق بين مصالح اليهود والمسلمين .

غزوة النجديين عبر الاردن } حكومة عبر الاردن او شرقي الاردن او الشرق
واستيلاؤهم على مكة } العربي هي بمثابة حاجز يمنع فلسطين من اعتداء
البادية ، وقد كثر اعتداء عرب البلقاء وما اليها مثل عشائر الحويطات وبني عطية
على تجار نجد يسلبونهم بضائعهم وجمالهم ، وشكت حكومة السلطان عبد العزيز بن
سعود صاحب نجد الى حكومتي الحجاز والشرق العربي فلم يسمع لها شكوى ، فأرسل
صاحب نجد نحو الف وخمسمائة مقاتل من رجاله في ١٠ آب ١٩٢٢ وهاجموا ام
الحمدة في البلقاء ، وقتلوا اهل الطنيب وأعملوا السيف والنار في عرب بني صخر
واشترك الأديان من عرب البلقاء في قتل النجديين ، وتلاحقت أنفاز بني صخر
ورجالهم من العيسى والزبن والخريشة ، وجاء بمض بني حميدة النازلين الى الجنوب
الشرقي من مادبا حتى وادي الموجب ، واشتركوا في رد هجمات الوهابيين اهل نجد
فازاحوهم الى بئر عمري وهناك تشردوا في الاودية والتلال ، وقيل انه قتل منهم
نحو ثلثمائة وقتل من اهل الشرق العربي كثيرون وقد تأثرت الدبابات الانكليزية
الوهابيين الى عمري فعادوا وجنودها يزعمون انهم لم يهتدوا الى الطريق . وجاء
النجديون ثانية بقيادة درزي بن دغمي السميز زعيم الرولة المتديبة ، وأغاروا على عرب
الحويطات في وادي موسى ، وعلى أطراف معان ، ونشبت معركة ألي فيها الحويطات

بلاءاً حسناً وعاونهم بعض بني عطية النازلين حوالى معسان الى تبوك ، وجاء النجديون في ١٤ المحرم ١٣٤٣ الى الكاف (قريات الملح) الواقعة على الحدود بين نجد والشام في ٢٢٠٠ مقاتل ٢٦٠٠ مقاتل كما قدرتهم حكومة الشرق العربي واستولوا في طريقهم على الكاف واخذوا حاميتها وهي أربعون جندياً وضابطان وقتلوا المفزة البريطانية النازلة في محطة الطيران في الزيزاء وعددها اثنا عشر جندياً وضابط ، ووصل الجيش الى مضيق رأس العين محلة عمان ، فخرج أهالي الصلت وعمان ومنهم شراكس وششن من النازلين في قرى الناعور وعين صويلح ووادي السيرا شتركوا مع الجند العربي في القتال من الصباح الى العصر حتى تراجع النجديون الى محل يبعد ثلاث ساعات عن قصر المشتى لجهة الشرق وكان تأثير الطائرات البريطانية في النجديين كثيراً هاجت لاصوات قنابلها ابلهم ، وقد قتل النجديون من قابلهم بالسلاح من أهالي الزيزاء والابن وام احمد والطبيب والقسطل ومادبا ويادودة والرجيب وسحاب والموقر وعمان ، وادعت حكومة الشرق العربي أن النجديين خسروا الف قتيل وجريح على اقل تعديل وأن عدد قتلى عرب المنطقة مادبا وعمان لا يتجاوز المئة والعشرين وان خسائر الجنود والبدو المرافقين لهم بلغت عشرين رجلاً وامرأة ، وقد عزز الجيش البريطاني في فلسطين قوة الشرق العربي بارب دبابات وستمئة جندي . وقال العارفون من الاهل أن قتل من أهالي المنطقة نحو ستمئة ولم يتجاوز قتلى النجديين المئة وأربعين قتيلاً وأن قتلى بني صخر فقط ثلثمائة قتيل . وبنو صخر هم المقصودون من هذه الغزوة لان اعتداءاتهم على تجار نجد كثيرة وقد عاونهم العيسي والزين والخريشة والحديد والمجارمة والدعجة وذكروا انه كان في جملة النجديين كثير من عرب حرب النازلين بين الحرميين لانهم مغاضبون لملك الحجاز فالتحقوا بالاخوان نكابة به . وذكر بعض الواقفين على مجرى السياسة ان الجنهات الانكليزية وجدت بكثرة في جيوب الاخوان الذين غزوا بلاد الاردن للمرة الاولى وان حملتهم لم تنقدم نحوها الا بعد زيارة المستر فيلي المنسوب الانكليزي في الشرق العربي لبلاد نجد . وفي اليوم الاول من كانون الثاني ١٩٢٥ (١٣٤٣) اعلنت الوحدة بين دولتي دمشق وحلب فقط وعينت الوزارة برئاسة صبحي بك بركات الخالدي على ان لا تسأل وزارته أمام مجلس النواب

شأن سائر الوزارات في العالم ولا تسأل الوزارة عما نفعل وتستمد قوتها من المفوضية العليا والمستشارين القول الفصل في كل الامور ، وهكذا الحال في نظار لبنان الكبير فهم غير مسؤولين الا عند المفوضية العليا .

وأعلن الجنرال سارايل المفوض السامي الجديد يوم وصوله الى بيروت اول هذه السنة إخراج الحاكم الافرنسي الذي كان يتولى لبنان الكبير وان يباشر المجلس النيابي اللبناني بانتخاب حاكم وطني فاختلفت آراء النواب فحل المجلس وبوشر انتخاب جديد ، وأخذ التعصب الديني بعض نواب الامة اللبنانية فأثروا حكم غريب على واحد من قومهم .هما كانت نحلته ، اما حاكم العلويين فقد ظلّ افرنسياً ، ومن المظاهر الغريبة ان تستحكم اللغة الافرنسية في مجلس لبنان الكبير استحكام اللغة التركية من مجلس وزراء سورية وان يعد بعض اولئك النواب والوزراء الفرنس والنترك من امارات الظرف والفضل في بلاد أرضها وسماؤها عربيتان ، وهي مسئلة بالاجماع ، وال لغة اول اداة في ادوات الاستقلال وحجر الزاوية في بنيانه .

وفي كانون الثاني ١٩٢٥ (رجب ١٣٤٣) رأى بعض المفكرين في حاب وحماة وحمص ودمشق ان الوقت ملائم لعرض مطالب الشمامهين على المفوض السامي الجنرال سارايل الذي عينته في هذا الشهر حكومته الاشتراكية المعتدلة التي تولت الاحكام في السنة الماضية في فرنسا ، فتألفت وفود من الأعيان والمفكرين من المدن الاربع وقصدت الى بيروت وعرضت مطالب الامة على المفوض السامي ، وخلاصتها ان الحلفاء اعترفوا باستقلال الشام في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ وانه يحق لها حق تقرير مصيرها وانه فككت اجزاءها وأنشئت فيها دو يلات صغيرة قضي بها على وحدة البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وان القائمين بالامر أثاروا النعنين الطائفية والدينية ، ومنحوا المدارس الاجنبية ذات البعثات الدينية المساعدات المادية والمعنوية ، انقصموا عرى الرابطين الوطنية والقومية ، ولتتمكنوا بهذا التفريق من القضاء على استقلال البلاد ووحدةها ، وان البلاد السورية بمحدودها الطبيعية هي وطن واحد بلغتها وقوميتها وعاداتها وأخلاقها وثقاليدها وتاريخها فلا مسوغ لتجزئتها وجعلها دو يلات عديدة ، وان أسلاف المفوض السامي اتخذوا اختلاف المذاهب

والمساومات السياسية معاول لتقويض بناء الوحدة السورية ، فسلخوا القسم الشمالي منها وأعادوه الى الحكومة التي أنقذ منها في باديء الامر ، ولم تزل طامعة بالاستيلاء على القسم الآخر فخرموا هذا الوطن حدوده الطبيعية وخطوط دفاعه ، والحدود اذا لم تكن عسكرية طبيعية لا سبيل الى ضمان استقلالها .

وان المنسدين السابقين لم يكتفوا بان يحفظوا للبنان الصغير امتيازاته ، بل عمدوا الى ضم أرجاء أخرى من داخل البلاد وساحلها مما يزيد عن مساحته الاصلية مرتين ، ويزيد على عدد سكانه مرة وجعلوه في صورة دولة لبنانية مستقلة ، كما سلخوا جبل الدروز وجبال العلويين وجعلوها دولتين . وطلبوا تأليف لجنة تأسيسية واعطاء حق التشريع للامة والحريية الشخصية وحرية الاجتماع والجمعيات والصحافة والغاء القرارات الاستثنائية والمحاكم الاجنبية وان تدار الاوقاف الاسلامية والخط الحجازي الذي هو وقف إسلامي بمعرفة الحكومات الوطنية ، وان تمنع الهجرة الارمنية الى الشام لان عدد المهاجرين الى هذا القطر بلغ مائة وثمانين ألفاً زاحموا الوطنيين في الاعمال الصناعية والتجارية مزاحمة لا تحتمل الى غير ذلك من المطالب مثل الورق السوري ورفع الحواجز الجمركية وذلك بان تعقد اتفاقات مع الحكومات المجاورة كما عقد بين سورية وفلسطين للتبادل التجاري ، وطلبوا الغاء الديون العمومية وإبطال الضمانات الكيلومترية التي تعطي لبعض الخطوط الحديدية لانها ترجح ولا تحتاج الى هذه المعاونة ، وان توحد النظم الادارية ، ويلغى قانون العشائر ويجعل حد لتدخل المستشارين في صغار الامور وكبارها ، وتسند الوظائف الى أهل الكفاءة من بني الوطن الاصليين و يقنصر على استخدام الوطنيين في جميع الوظائف المحلية .

وقد وعد الجنرال المفوض السامي وفود المدن الاربع بدرس مطالبهم وانقاذ ما في وسعه ووسع حكومته انقاذه ، وأشار الى ان الواجب عليهم ان ينظموا صفوفهم ويؤلفوا أحزاباً تسير بعقل وروية لا يتخذها بعض أرباب الاغراض سلماً لبسوغ غاياتهم . وقد عاد الجنرال سارايل في خطاب له القاه في حمص (أيار ١٩٢٥) خاطب به أعيان البلاد بقوله : اعملوا على توحيد كلمتكم قبل اهتمامكم بالاستقلال ، فانس الاستقلال انما يحصل عليه المنفقو الرأي ، الى هذا أوجه نظرهم ، اتحدوا أولاً فان

الباني انما مباشر وضع الاساس قبل ان يهتم بالتوزيع والدمان اهـ . وبالفعل تأسس في سورية حزبان حزب من جميع طبقات الشعب واسمه حزب الشعب وآخر ينحصر الحكومة الحاضرة واسمه حزب الوحدة كما تألفت في لبنان أحزاب .

صاحب الوعد للصهيونيين ومطالب
الفلستينيين والسوريين وكوائن
البريطاني صاحب الوعد للصهيونيين يجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود الذي صرح به
في تشرين الثاني ١٩١٧ باسم بريطانيا العظمى فاحتج المسلمون والنصارى فيها على
مجيئه وأضربوا عن الاعمال إضراباً تاماً، وكان مجيئه للاحتفال بافتتاح المدرسة الجامعة
العبرية في بيت المقدس ، وقد أرسلت برقيات الاحتجاج من أطراف الشام على من
فصل بعماله فلسطين عن أمها الشام وجاء مساء يوم ٨ نيسان الى دمشق فأظهر الدمشقيون
نرتهم منه ومن وعده ، وأغلقت المدينة صباح الغد مخنجة على وعده وبعد الظهر
تجمع جمهور لا يقل عن خمسة آلاف في ساحة الشهداء أراد الدرك منعهم من
التجمع بالتهديد والضرب فرشقه بعض الفتيان بالحجارة ، فاضطر الدرك الى استعمال
السلاح في الهواء فخرج عشرون شخصاً هلك منهم اثنان واضطرت الحكومة للورد
ان يخرج الى بيروت فأركب البحر والبيرونيون يخرجون عليه كاحتجاج الدمشقيين
ولم يستطع ان يرى اللورد من دمشق غير جدران الفندق ومن بيروت الا الطريق الى
السفينة فقط .

وفي يوم ٢٩ رمضان ١٣٤٣ (٢٣ نيسان ١٩٢٥) خطب الشيخ عبد الحميد
العطار في آخر جلسة من جلسات المجلس التمثيلي خيفة مضار توظيف غير العرب في
وظائف دولة سورية فقال : ان العصر عصر القوميات ، لا تقوم الامم الا تحت
لوائها ، ولذلك نرى جمهورية تركيا أخرجت من خدمتها حتى الآذنين من غير جنسها ،
وان الواجب على حكومة سورية أن تخرج من خدمتها التركي والارمني والرومي
فقبل المجلس اقتراحه بالاجماع وقوبل بالتصفيق .

وفي ٢٨ ايار (١٩٢٥) اندرت بريطانيا العظمى الملك حسين بن علي ان يغادر

العقبة خلال سبعة أسابيع — وكان جاءها بعدان سقط الحجاز الاقليلاً في ايدي جيش السلطان عبدالعزيز بن سعود ملك نجد — المستلمها حكومة شرق الاردن وتضمها مع معان الى البلاد التي تديرها لانها ضمن الانتداب البريطاني وتحافظ عليها من الوهابيين الذين فتحوا مكة والطائف واخذوها من يد الملك حسين فأجاب جلالته انه لا يسعه بالنظر للعهود المقطوعة له من الحلفاء ولا سيما بريطانيا ان يتنازل عن هاتين البلدتين الحجازيتين (العقبة ومعان) وانه لا يعترف بالانتدابات المخالفة لتلك العهود وابان المحاذير التي ستنتج عن عملها هذا الذي سيدعو الى هياج عظيم في العالم العربي وبعد ايام سار الى قبرص ليقم فيها . وفي حزيران قتل الاشقياء قائدين افرنسيين في طريق دير الزور كانا يسيران في سيارة فبعثت السلطة طيارات امطرت عشار البواسرية التي فقد الضابطان — في أرضها وابلاً — من القذائف فهلك منهم اكثر من ثلاثين نفساً وتلف كثير من الخيل والابل والغنم . ثم حكمت على خمسة من الاشقياء بالقتل . وفيه جاء وفد من اعيان دروز جبل حوران وراجعوا السلطات الافرنسية يطلبون انضمامهم كما كانوا سابقاً الى حكومة دمشق على ان يكون لهم بعض الامتيازات المحلية اذ ثبتت لهم مضرة الانفصال . كما ان وفداً من اللاذقية قابل بعض رجال تلك السلطة وابانوا له الاضرار التي نشأت من فصل بلاد العلويين عن امها سورية وطلبوا ارجاعهم الى حكمها .

وفي شهر نيسان ١٩٢٥ جاء فلسطين وزير المستعمرات البريطانية فقابلته وفود الامة يتقدمها وفد اللجنة التنفيذية ووفد الحزب الوطني وتسكلم غير واحد من رجال الوفد معرباً عن ظلامه الفلسطينين وضرر الوطن القومي فرد الوزير على اقوالهم ومما قاله انه رأى فلسطين أسعد من الاربعين مستعمرة التي يهتم بشؤونها وقد قدمت له الوفود تقريراً هذا ملخصه :

أ — ان عرب فلسطين قد قدموا تقارير كثيرة وارسلوا وفدهم الى لندن مرتين وفي كل ما قدموه بينوا المناقض الغريب الذي يظهر في مسلك الحكومة الانكليزية في بلادهم على الرغم من ا — نص عهد جمعية الامم . ب — العهود المقطوعة للملك حسين . ج — البلاغ المنشور من القائد اللنبي قائد الحملة الفلسطينية . د — بعض مواد صك الانتداب . ه — البيانات الرسمية والشبه الرسمية الصادرة من الوزارات .

٢ — ان السياسة التي تسير عليها الحكومة في فلسطين جرت البلاد الى حالات اقتصادية صعبة لا يمكن للبلاد ان تستمر على تحملها ودوام الحال على هذا الشكل دون ان يجد العرب آذاناً صاغية عادلة يؤدي حتماً الى سقوط البلاد في هوة اشد عمقاً من الحالة الحاضرة اذ انهم ا — يكلفون بضرائب باهظة للانفاق على ترتيبات واسعة لا تتحملها البلاد لتنفيذ السياسة الصهيونية التي لا يمكن ان تتفق مع مصالحهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ب — قد حرّموا ادارة بلادهم وتمتعهم باستقلال ذاتي على حين ليسوا أقل مستوى من سكان البلدان العربية الاخرى مثل العراق وشرق الأردن التي تتمتع بحكم ذاتي نيابي . ج — وقد حرّموا حتى مما كانوا يتمتعون به من بلديات ومجالس ادارة ومجالس عمومية منتخبة ومن ارسال اعضاء الى البرلمان في العهد التركي . د — قد فتحت ابواب بلادهم لهجرة يهودية ضخمة تحتوي على كثير من العناصر غير الصالحة لحياة البلاد وتحملها اقتصادياً واجتماعياً . ه — قد جعل للعناصر اليهودية ارجحية ظاهرة في ادارة البلاد الرئيسة وفي تسير المصالح اليهودية القومية والاجتماعية هذا وهم اقلية ضئيلة في البلاد عدداً ومصالحاً .

(٣) — ان العرب في فلسطين وهم يطلبون حقهم في الحكم التشريعي لم يريدوا قط ان يغمطوا حقوق اليهود الذين يساكنونهم ولكنهم يريدون ان يتمتعوا بحقوقهم باعتبار انهم اكثرية ساحقة في العدد والمصلحة ، وباعتبار انهم وعدوا بوعود صريحة وباعتبار ان عهد جمعية الامم يخولهم ذلك مع حفظ حق اليهود الوطنيين في الاشتراك معهم في الادارة والتشريع بحسب نسبتهم .

٤ — ان العرب يعتقدون انهم لن يطمثوا في بلادهم ويروا في الحكومة البريطانية النية الحسنة التي طالما أعلنتها بالنسبة اليهم اذا ظلت مستمرة في طرز الادارة والسياسة التي سارت عليها في فلسطين الى الآن مع أنهم يريدون دائماً أن يكونوا على وفاق تام معها في مصالحها الزمنية ويعتقدون أنه قد آن للحكومة البريطانية ان تفلح عن تجربتها العقيمة وان تعيد نظرها بصورة جدية في هذه السياسة التي جعلت البلاد وأهلها في حالة اضطراب روحي وانحطاط اقتصادي وقلق .

٥ — وما نحن نقدم لها مطالب البلاد بصورة صريحة واضحة أن تبدل علاقة الانتداب السيئة .

١ — تأسيس حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي منتخب من الاهالي الفلسطينيين بحسب التمثيل النسبي .

٢ — تسن جمعية وطنية منتخبة القانون الاساسي الذي يضمن بقاء الاماكن المقدسة بيد أهلها القديمين على أن لا يغير شيء فيها وحفظ حقوق الاجانب ومصالح الدولة المساعدة المتفقة مع مصالح البلاد وضمانة مشاركة اليهود الوطنيين بالحكم والتشريع بحسب النسبة على ان يراعى في وضعها تحمل حالة البلاد الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ضمانات التعهدات الدولية التي تحملتها الدولة المساعدة وهي التعهدات الصحيحة وحفظ الآثار وحرية الأديان ونحوها على النمط الوارد في المعاهدة المعقودة بين الحكومة الانكليزية والعراق اه .

تاريخ الصهيونية } ولما كانت الصهيونية من أهم المسائل التي تشغل بالـ
وعملها الاخير } الشاميين عامة واخوانهم أهل فلسطين خاصة وكان لها
مساس بسياسة البلاد وتاريخها عهدنا الى احد الواقفين على اسرارها^(١) وكتب اليها بالفصل
الآتي قال : اليهود قبيلة سامية نزحت من العراق الى فلسطين وسكنت فيها حيناً ،
ثم هاجرت الى مصر فمكثت هناك مدة طويلة وانقلبت اليها ، وفحتها فتحماً عسكرياً
رسلت على بعض شعوبها . وقد أسسوا شبه حكومة ثم مالبتوا ان دب فيهم الفساد ،
فانشطروا الى قسمين شمالي وجنوبي ، وامسوا عرضة لمهاجمة حكومات مصر وآشور وبابل
لان بقعتهم في الطريق الوحيد بين الدول المتزاحمة ، ثم تغلبت تلك الدول عليهم فسبواهم
واخرجوهم من فلسطين ، وهنا بدأت نفوسهم تنحن اليها ، وتشوقوا الى اعادة مملكتهم
القديمة واحياء قوميتهم المنقرضة ، وقد كبر هذا الرجاء في نفوسهم ، واشتعل الامل في
صدورهم وحاولوا مرات استردادها من ايدي الرومانيين ففشلوا ، وخرب نيطس هيكلهم

(١) كاتب هذا الفصل الباحث الثقة السيد عمر الصالح البرغوثي في القدس .

وشتتهم في اطراف الارض ، ولكنهم سرعان ما تخضت نفوسهم وثاروا بقيادة ياركوخبا ومساعدة الحاخام نعقيا فاختفوا وعجزوا عن الانتفلات من حكم الرومانين الثقيل .
ورغم هذه الصدمات أصبحت فكرة الرجوع الى فلسطين عقيدة دينية عندهم ، برزت في آدابهم الشعرية والنثرية ، وأظهروا من الحنين الى فلسطين والتأفف على زوال مجدهم ، ما خلد ذكرهم في تاريخ الادب . وقد قام كثيرون وتظاهروا بانهم جاءهم المسيح وبشروا بالرجوع الى ارض الميعاد فلم ينجحوا لان الاحوال الخارجية التي عاش فيها اليهود قرونًا حالت دون بلوغهم امنيتهم وحرمتهم الشعور بالروح القومية ، ولم نتوال عليهم عواصف الاضطهادات في اوربا التي أيقظتهم ودفعتهم الى إظهار الصهيونية ^(١) الحديثة التي أوجدها عاملان « الاول » الشعور بالقومية ، « الثاني » مضادة اليهود العامة . اما القصد من الصهيونية فهو عزل الشعب اليهودي عن الشعوب الاخرى ، وجعل فلسطين وطنًا خاصًا بهم ، يقوم على القومية و يعترف لهم اعترافًا دوليًا مضمونًا ضمانيًا شرعيًا .

وقد بدأت تظهر الصهيونية بمظهرها الحقيقي سنة ١٨٥٢ م حين حضّ هولانكسورث الانكليزي على اقامة حكومة يهودية في فلسطين لاجل حماية طريق الهند البرية . وسافر السر موسى منتفيوري الى فلسطين وطلب من محمد علي باشا المصري اسكان اليهود في البلاد فرفض طلبه . وقام كثيرون من الادباء والسياسيين واقترحوا اقتراحات مختلفة منها جعل فلسطين حكومة يهودية ، او عمل خط حديدي في العراق واسكان اليهود على جانبه او ايجاد مأوى لهم في شرق الاردن .

وقد حام كاليسر في كتابه مطلب صهيون حول استعمار فلسطين واستملاك الارض وانشاء مدرسة زراعية وتأليف حامية اسرائيلية عسكرية !! ومنزع الفكرة القومية بالروح الدينية وصرح فيه ان الخلاص الذي نوه به الانبياء يأتي متابعًا بمساعدة اليهود انفسهم . وسافر مراراً لترويج هذه الفكرة والجمعية الاولى الاستعمارية في فرنكفورت

(١) صهيون جبل جنوب القدس ثم شمل المدينة واصبح علماً عليها . والنسبة اليه تدل على الجماعة الذين يرغبون في الرجوع الى فلسطين .

سنة ١٨٦١ وحمل بعض الحاخامين على الاشتراك معه واعلن بعضهم ، ان الاستعمار في فلسطين من الامور المقدسة فألهمت تقوى اليهود هذه الجملة البراقة والفوا بضع جمعيات استعمارية في الممالك الاوربية وأسست المستعمرة الصهيونية الاولى (عيون قارة) في فلسطين ١٨٧٤ .

الا ان العمل شرع فيه بصورة جدية سنة ١٨٩٧ عندما عقد المؤتمر الاول واشترك فيه ممثلو خمسين جمعية صهيونية وبرزت الروح الاستعمارية بشكل جلي فقارومتها الحكومة العثمانية بوضعها الصعوبات والعراقيل أمام هجرتهم وقيدتهم بقيود جعلت هجرة اليهود الى فلسطين في حكم المستحيل الا قليلاً .

وكما كانت تلتعش الروح اليهودية القومية يشتد كره الامم لهم وهم لا يعابئون بذلك زاعمين انها موجة ستضمحل أمام الرقي العلمي المنتشر هناك ، فانتهت عاقبة هذا الرجاء بالفشل اذ وقعت عليهم اضطهادات ومذابح في كل الاقطار ، فاندفع الزعيم الصهيوني الكبير تيودور هرتسل والف كتابه الوطن اليهودي سنة ١٨٩٥ . وقد جاء فيه ان مضادة اليهود التي هي في نمو مستمر خطر على العالم بأسره ، لان اليهود شعب لا يمتزج بغيره والامتزاج الحقيقي يكون بالزواج المتبادل ، واقترح فيه انه يعطى لهم متسع من الارض في فلسطين او الارجنطين ليجمعوا بها ويقيموا لهم وطناً خاصاً بهم واذا سمح لهم بفلسطين فانهم يرون من الواجب ان تكون محلات العبادة المختصة بالطوائف الاخرى ملكاً ممتازاً لهم .

وأشار بتأليف جمعية تشرف على الاعمال العلمية والسياسية وتأسيس شركة يهودية كالشركات الانكليزية والفرنساوية الصناعية « الاستعمارية » العظمى يكون رأس مالها ٥٠ مليون ليرة انكليزية وتخذ لها مركزاً رئيساً في لندن ، ويعهد لهذه الشركة بالاعمال التي تهيمها اللجنة التنفيذية اليهودية وتسعى الطائفة الجديدة لترويج المهاجرة بطريقة منظمة ولم يعبأ هرتسل بقوانين الكنيسة فطلب فصلها عن السياسة ولما اختلط بقومه شعر بضرورة الموافقة الدينية لان ميل اليهود كان متعلقاً بفلسطين تعلقاً دينياً ويستحيل عليه ان يحولهم عن ذلك .

ولما زار هرتسل بلاد الانكليز لم يقبل اليهود على دعوته كما أقبل أهالي اوربا

الآخرون الذين ناصروه بالمال والرجال . واول من اعتقد بصحة مشروع الوطن اليهودي جمعية زيوف في النمسا التي طلبت تأليف جمعية يهودية عامة واقترحت تأسيسها في لندن ثم عرفوا هرتسل ان جمعيتهم قبلت مباديه . وهنا يظهر ان الذين استهوت قلوبهم فكرة تأليف الجنسية اليهودية هم الذين اعتبروا هرتسل زعيماً ومخلعاً لهم . ولكن المندوبين قاوموه عندما عرفوا ان بعض زعماء دعوته لادينيون . وتصدى له رؤساء الحاخامين في روسيا والمانيا والنمسا وانكلترا وقالوا : ان الصهيونية حركة بعيدة عن اليهودية وانها مخالفة لاوامر الله تعالى . وقال الكاتب الشهير لوسيان وولف : ان الصهيونية حماقة ، وقال غايكر : ان الصهيونية تؤدي الى حرماننا حقوقنا الدنية في الممالك الخارجية . اما بعض مسيحي اوربا فقد اظهروا عطفاً على الصهيونية وطفقت بعض جرائدهم تحض اليهود على استعمار فلسطين اتماماً لنبوءات التوراة فصادت دعوتهم رواجاً وتكاثر دافعوا الشاقل^(١) الذين انضموا الى الصهيونية على مقاومة انصار الدين لها وقد عقدت بين سنة ١٨٩٧ — ١٩١١ عشرة مؤتمرات ، فان عقد المؤتمرات قصد بها هرتسل احياء الشعور القومي وايقاظه بين اليهود ونشر الدعاية الصهيونية ، وقد نجح بفكرته هذه وتوفق لعقد المؤتمر الاول في مدينة بازل (سويسرا) سنة ١٨٩٧ فاشترك فيه أعضاء كثيرون بعضهم يمثل جماعات وبعضهم جاؤا عن انفسهم وقد قرروا ما يلي :

- (١) تعليم اللغة العبرية ونشر آدابها وانشاء مدرسة كبرى في يافا او القدس .
- (٢) انشاء مدارس يهودية في كل الاحياء الاسرائيلية لتعليم اللغة العبرية وتأليف لجنة تفتني بالآداب العبرية .
- (٣) انشاء صندوق توفير يهودي وقد وضعت قاعدة غرض الصهيونية وهي ايجاد وطن للشعب اليهودي في فلسطين مضموناً ضماناً شرعياً دولياً ولتجذب الوسائل للوصول الى هذا الغرض .

(١) الشاقل هو الشان او الفرنك : وكل من تصهين لا يحق له ان يندخرب او يندخرب حتى يدفع شلناً في السنة .

- (١) ترقية حال الزراع اليهود والتجار في فلسطين .
 - (٢) تحالف اليهود تحالفاً محلياً او عمومياً حسب قوانين بلادهم المختلفة .
 - (٣) تقوية الشعور اليهودي .
 - (٤) بذل المساعي الادبية للحصول على المنح الضرورية لضمان الغرض الصهيوني وقد أسست فروع عديدة للقيام بهذه المشاريع وجمعت ٤٠٠٦٠٠٠ ليرة انكليزية .
- وافتح المؤتمر الثاني في مدينة بازل ايضاً سنة ١٨٩٨ وتألف من أعضاء الجمعية الصهيونية العاملة وبعض الزعماء من البلاد الاخرى واشترك فيه عدد من حاخامي روسيا المعترف بهم رسمياً نواباً عن اليهود المتدينين ، وورد عليه اربعون برقية من الحاخامين المتعصبين يعارضون بها اعتقادهم بالصهيونية ، فانضم الى الجمعية الصهيونية نفر كبير من اليهود ، وقد أسس هذا المؤتمر جمعية استعمارية غرضها توسيع نطاق الاستعمار بشرط اكتساب رضى الحكومة التركية وتألفت عمدة من تسعة اشخاص برئاسة ولفسون وقد اقترح الرابي ارينزيس جعل اللسان العبراني لغة لليهود عامة وقبل اقتراح جاسترفيا يتعلق بالتهذيب .
- وانعقد المؤتمر الثالث في بازل ايضاً سنة ١٨٩٩ وصرح فيه هرتسل بان مساعيه كانت متجهة للحصول على امتياز من السلطان عبد الحميد ولكنه لم يتوفق . ثم نالت تقارير اللجنة العاملة فظهر منها ان معدل زيادة الجمعيات الصهيونية في روسيا ٣٠٪ وفي البلدان الاخرى ٢٥٪ وبلغ عدد دافعي الشاغل اكثر من ١٠٠ الف نفس أي ان ٢٥٠ الفاً من اليهود تصهبنوا في ذلك الوقت .
- وانعقد هذا المؤتمر في كوينس هال في لندن سنة ١٩٠٠ وقصدوا بانتخاب هذا الموقع التأثير في الرأي العام الانكليزي لان بعض الانكليز ارتاحوا الى الدعوة الصهيونية وناصروها لما لها من الارتباط بالكتاب المقدس . وبلغ عدد الجمعيات الصهيونية في روسيا ١٠٤٣ جمعية وفي انكلترا ٣٨ وفي الولايات المتحدة ١٣٥ وفي بلغاريا ٤٢ جمعية ٠٠٠ الخ .
- أما آمال الصهيونيين في فلسطين فقد كادت تقضى عليها لان الباب العالي أصدر تعليمات في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٠٠ تمنع مهاجري اليهود من الاقامة في فلسطين

أكثر من ثلاثة أشهر اذ عرف ان الحركة الصهيونية انتعشت وهي آخذة في التهام فلسطين واستملاك بقاعها والاستيلاء على واردتها وصادرها ، فاحتجت ايطاليا على هذه التعليلات بانها مجحفة وانها هي لا تفرق في بلادها بين رعاياها المسيحيين واليهود . وكذلك عرضت هذه المسألة على وزير الولايات المتحدة المسترهاي فأصدر امره في ٢٨ شباط سنة ١٩٠١ الى سفيرهم في الاستانة ليجتج باسم حكومتهم فرفض الاتراك كل تدخل بهذا الشأن . ثم توجه هرتسل الى الاستانة ومعه داود ولفسوت واوسكار مارموزك وقابل السلطان عبد الحميد في ايار سنة ١٩٠١ مرتين منفرداً عن رفيقيه وأنعم عليه السلطان بالوسام المجيدي الاول وعاد الى لندن وقابل جمعية الميكابيين في ١١ حزيران سنة ١٩٠١ وأعرب لهم عن ثقته في نجاح مهمته لدى السلطان . وانهقد المؤتمر الخامس في كانون الاول سنة ١٩٠١ وقبلت فيه القواعد الرئيسية وصودق عليها وهي : (١) عقد مؤتمر عام مرة كل سنتين . (٢) يعقد اثناء هذه الفترات اجتماعات يحضرها أعضاء الجمعية العاملة الكبرى وزعماء البلدان المختلفة . (٣) تأسيس هيئة إدارية في الامكنة التي يبلغ عدد دافعي الشاقل فيها خمسة آلاف نفس اذا هم طلبوا ذلك .

واكملت الاستعدادات انفتح المصرف واعطاء اعانة للمكتبة اليهودية في القدس وتأليف دائرة معارف عبرية وتأليف ادارة عامة تشتغل بشؤون الامة اليهودية . وانهقدت جلسة طويلة بشأن التهذيب انتهت بالقرار الآتي : المؤتمر يجذب التمسك بالروحيات وتعليم الطائفة اليهودية على قواعد عنصرية دينية وعلى كل صهيوني ان يعمل لهذه الغاية .

ثم انفض المؤتمر وانصرف كل من الزعماء لمتابعة غايته فذهب هرتسل الى القدس على رأس بعثة صهيونية فقابلوا امبراطور المانيا غليوم الثاني اثناء زيارته القدس وفادوه بمهمتهم فأجابهم : ان كل المساعي لترقية زراعة فلسطين والتي تعود بالمنفعة على الدولة التركية وتحترم سيادة السلطان توافق هواه ورضاه . فامتعض هرتسل وذهب الى الاستانة وقابل السلطان عبد الحميد وكانت خطته ترمي الى التفاهم على اساس تنظيم المالية العثمانية وان يتنع جلالته باخلاص الصهيونيين لانهم يعملون علانية

لا في الخفاء وان اليهود عنصر خاضع للقوانين لا يخالفون رغائب القوة الحاكمة . وطلب اليه ان يمنح اليهود سلطة واسعة للحكم البلدي الذاتي ويدفعون مقابل هذا الامتياز مبلغاً وافراً ويدفعون ٣٠٠٠٠٠ الف غرش مرتباً سنوياً مثل جزيرة ساموس ذات الاستقلال الاداري بجندھا الخاص ورايتها الخاصة ومجلس نوابها الخاص اي حكومة ذات استقلال داخلي . ففشل في سياسته ومفاوضته وظل اليهود يباشرون بعض الاعمال الاقتصادية والزراعية في فلسطين بكل تكتم .

وبعد ان أخفق سعي هرتسل مع الاتراك وجه نظره الى الحكومة الانكليزية آملاً أن يحصل على مقاطعة بجوار الارض المقدسة بأوي اليها مؤقتاً المهاجرون والمضطهدون فاستحسن طلبه و باشر مفاوضة لورد كرومر فعرض عليه استعمار شبه جزيرة سيناء وارسل الفريقان بعثة سنة ١٩٠٣ لترتاد الارض . وقد كاد هذا المشروع يتم لولا قلة المياه وان حكومة مصر رفضت اعطاء شيء من ماء النيل . وقد قالت دائرة المعارف الانكليزية المطبوعة سنة ١٩١٠ (ترسے لوسمحت تركيا بالارض المقدسة هل كانت المسيحية الكاثوليكية والارثوذكسية تسمع بها لليهود حتى ولو استثنيت الاماكن المقدسة) ولما حبط هذا المشروع عرض عليهم شامبرلان وزير خارجية انكثرا شرقي افريقية على أثر حرب البوير وبعث الى كنزبرغ كتاباً رسمياً في ١٤ آب سنة ١٩٠٤ . فاقترح هرتسل الدخول في المفاوضة بشرط احداث وطن يهودي في شرقي افريقية .

وعقد المؤتمر السادس في بازل في آب سنة ١٩٠٣ وبحثوا في اتخاذ افريقية وطناً قومياً ، فقبل هذا الاقتراح بالرفض وقد قال هرتسل : ان شرقي افريقية ليست صهيون ولا يمكن ان تكون كذلك وقال مكس نوردو : لو اتخذنا شرقي افريقية وطناً لتعذر علينا الا ان نكون في دار عزلة .

وفي هذا الوقت انعقد مؤتمر صهيوني في زمارين فلسطين برئاسة اوسيشكن شهده خمسون عضواً وستون معلماً وكان هذا المؤتمر مصغر مؤتمر بازل فأسسوا جمعيات ادارية لتهمين على المستعمرات وتراقب شؤونها . وفي ١ تشرين ايل سنة ١٩٠٣ اذن ملك ايطاليا بمقابلة مرغوليوث ومحادثته بمصالح الصيونييين ثم قابله هرتسل وقابل المسيو تيتيوني ناظر الخارجية وزار البابا والكاردينال دل فال . وفي ٣ تموز توفي هرتسل بعد ان اعلى

شأن الغاية الصهيونية وثبتها ووجد كلمة العاملين على اختلاف مذاهبهم ، وحول المسألة اليهودية من خيرية زراعية الى اقتصادية سياسية ، فأحدث موته دهشة في العالم الصهيوني واختلفوا في من يعينون خلفاً له في رئاسة الجمعية العاملة (اللجنة التنفيذية) .

وفي ٢٧ تموز ١٩٠٥ انعقد المؤتمر السابع وانتخب الدكتور مكس نوردو رئيساً له وكان تقرير اللجنة الفلسطينية خير التقارير التي قدمت لهذا المؤتمر ، لانه تضمن خبر انتشار جر بدتهم ونشاط حركتهم ، وقد أعيد البحث في استعمار شرقي افر يقية ، ولكنه قرر اخيراً ، بان المؤتمر الصهيوني السابع لا يتحول عن قاعدة مؤتمر بازل الرئيسة وهي اعداد وطن لليهود في فلسطين . وؤمناً تأميناً شرعياً ومعترفاً به اعترافاً علنياً وانه يرفض رفضاً باتاً كل استعمار خارج فلسطين .

وقد بحث ايضاً في عمل الجمعية الصهيونية في مستقبل فلسطين ونقرر بشأنها ما يلي : تطبيقاً للحركة الادارية السياسية ولأجل تقويتها يجب أن تروج على الاسس العلمية مقاصد الروح الصهيونية بموجب القواعد الآتية : (١) التنقيب عن الآثار . (٢) ترويج الزراعة والصناعة على المبادي الديمقراطية الممكنة . (٣) تحسين الحالة الاقتصادية والتهديبية وتنظيم يهود فلسطين باحداث نهضة فكرية جديدة (٤) الحصول على الامتيازات كمشتري الارض المملوكة والمتروكة والمزارع وغير ذلك .

وفي سنة ١٩٠٥ تأسست جمعية بصليل لترقية الحرف والصناعة في القدس . وفي سنة ١٩٠٧ عقد المؤتمر الثامن في لاهاي . وتأسست مدرسة الجناز اليهودية في يافا . وأسس مصرف داود ولفسون لبناء دور للعمال في فلسطين . وفي سنة ١٩٠٨ أسست اللجنة التنفيذية للجمعية الصهيونية في فلسطين واتخذت يافا مركزاً لها . وفي سنة ١٩٠٩ عقد المؤتمر التاسع في مدينة همبورغ ونقرر تأسيس مستعمرة يهودية على قواعد الاشتراك والتضامن .

وفي سنة ١٩١١ أنشئت الجمعية الاستعمارية لارض اسرائيل (فلسطين) وعقد المؤتمر العاشر في بازل . وكانت بين سنة ١٩٠٥ — ١٩١١ الفكرة اليهودية الوطنية جامدة وشعر قوادهم ان استرداد الارض المقدسة شيء بعيد المنال حتى ان الحصول

على قطعة من الارض كان يعد امراً عسراً . وفي سنة ١٩١٣ عقد المؤتمر الحادي عشر وكانت ابجائه جامدة وقد توالى على الحركة الصهيونية في هذه الفترة الخدلات والاضمحلال ، ولولا الحرب لعدلوا عن غايتهم القومية وارجأوا البحث في فلسطين الى حين ، والحقيقة انه منذ وفاة هرتسل حتى اعلان الحرب كان دور القهقري في تاريخ الحركة الصهيونية .

(١) المصرف اليهودي الاستعماري — ليست الاوضاع الصهيونية } مقاصد هذا المصرف مالية فقط بل سياسية ايضاً

وبما انه اكتسب حقوق الشركات ذات الامتياز فقد اتخذ اداة لهيئة الصهيونية العملية وغايته العمل في فلسطين او سورية او في بقعة أخرى اياً كانت اذا كانت مصلحة اليهود تستدعي ذلك . ولكن تعدل هذا النص وقيد بهذه الجملة « العمل في فلسطين وسورية وسائر انحاء تركيا آسيا فقط » وفتح فرع لهذا المصرف . وأسس سنة ١٩٠٥ فروع مالية لشركة انجلو فلسطين في القدس و يافا و حيفا والناصرة لنفس هذه الغاية .

(٢) البنك المالي اليهودي — وغايته توفير رأس مال دائم ليكون ملكاً للطائفة اليهودية ليستخدم في اغراضها الخصوصية مثل مشتري الارض في فلسطين و يشترط ان لا يمس رأس ماله حتى يبلغ مليون شلن او خمسين الفaira ويجب بقاء نصف هذه اقيمة في المصرف . وتجمع اموانه من استعمال طوابع البريد الاضافية التي تلصق على رسائل الصهيونيين ومن الدعوات والهبات الاختبارية وما شابه ذلك .

العمل التهديبي — كان توحيد التعليم اليهودي من اهم اغراض الصهيونية الرئيسة لذلك شرعوا في تأسيس غرف قراءة ومنتديات للخطب والدروس الليلية في اماكن مختلفة وفي سنة ١٩٠٣ انشأوا مدارس في داغستان واسسوا مدرسة البنات القومية في يافا وقد نظم سنة ١٩٠١ حايم ويزمان منهاجاً تاماً للجامعة عبرية وفتح لها فرع للآداب في القدس بعد الحرب وعملوا لها بضعة احتفالات ولم تزل في مهدها .

جمعيات الطائفة — لما انتشرت الفكرة الصهيونية تغلغلت في نفوس الطلبة اليهود في فينا وروسيا وغلبسيا ورومانيا وتواصوا بالمحافظة على الشعور اليهودي وتعزى الآداب

العبرية وكان شعارهم الى الامام . وانصرف اهتمامهم لاستعمار فلسطين وتآلفت بعد ذلك جمعيات عديدة من طلبة المكاتب وانفقوا اسماء وطنية تشير الى نهضاتهم السابقة وفتح لها فروع في فلسطين وانتشرت في كل انحاءها .

الجمعيات الرياضية — دعيت رياضية ولكن غايتها في الحقيقة عسكرية لاسيما وان اسماءها ترمي الى هذا الغرض ، وقد امتدت بسرعة الى الاستانة وبرلين وصوفيا وبخارا ومبورغ . الخ . وانتشرت فروعها في فلسطين تحت اسماء مختلفة وقد ظهرت بدارها والتمرين على حمل السلاح والحركات العسكرية وتنظيم الجند .

الصحافة — ان للصحافة اليهودية اثراً كبيراً في نشر الدعوة الصهيونية ، فاهم صحف عديدة في روسيا والنمسا والمانيا وانكلترا وايطاليا وغيرها من الممالك ، وهي تكتب المقالات الطويلة انتصاراً لقضيتهم ودفاعاً عن صهيونيتهم وقد كان لهم بضع صحف في فلسطين لاقية لها .

انتشار الصهيونية — راجت الفكرة الصهيونية عند كثير من اليهود فانضم اليها اشخاص ما كانوا يعرفون شيئاً عن الغاية الصهيونية وتبرع فريق منهم دون ان يكلفوا الى ذلك حتى وكدت لا تجد فئة من اليهود والا وبينهم صهيونيون فتطرفوا باظهار دعوتهم وجأهروا برفع رايتهم الزرقاء البيضاء في احتفالاتهم فاحتج العرب على ذلك على غير طائل فانا لا نزال نرى اللونين الازرق والابيض وفي نصفه المثلث المتقاطع ترس داود يرفرفان في كل ايام اعيادهم على صدورهم او على مرئفعات معاهدتهم او على طرفهم وسامهم .

الاحزاب الصهيونية — بذل اليهود جهوداً كبيرة لاستعمار فلسطين غير انه حصل تباين في آرائهم فانفصل بضع فرق عن جامعتهم وبرزت في المؤتمرات وكثيراً ما كانت المنافسة عنيفة بين هذه الفرق التي سنذكرها هنا : (١) فرقة الحكومة — وهي اتباع هر تسيل ومنهاجهم ما صرح به رئيس المؤتمر في جلساته العديدة من وجوب تأسيس وطن لليهود في فلسطين والبلاد المجاورة لها يضمن ضمناً شرعياً مع تمسكهم بقرار مؤتمر بازل بلا زيادة ولا نقصان . (٢) فرقة الوسط المزراحية — وهم عصبة اليهود المتدينين الذين ألفوا فرقهم اثناء انعقاد المؤتمر الخامس وهي فرع من حزب الرادبكال

(المتطرفين) وقد تزايد أعضاء هذا الحزب وعقدوا مؤتمرًا خاصًا سنة ١٩٠٤ وانتشروا في انكلترا وأميركا وروسيا والمانيا . وكانوا مظاهرين هرتسل في جميع المناقشات وغرضهم يرمي الى ان يكونوا هيئة صهيونية ارثوذكسية أمينة للتوراة والتقاليد في كل ما يتعلق بالحياة اليهودية . (٣) فعال زيون الحزب الديموقراطي — هو حزب اليسار الذي يوجد بين صفوفه عدد من مشاهير الاشتراكيين وعددهم قليل ولكنهم برهنوا على اقتدار وحذق وتغلبوا على حزب مندلستون في المؤتمر ، وكان مركزهم في النمسا وسويسرا ، ويوجد منهم فرقة متطرفة اسمها (فرقة العملة الاشتراكية الصهيونية) ويظن ان هذه الفرقة تخدم غرضها الاشتراكي اكثر من عملها الصهيوني . (٤) الزيون زيونست — توجد فرقة بهذا الاسم ضمن الجمعية العمومية نشأت على أثر المناقشات التي دارت في المؤتمر السادس وزعيم هذه الفرقة اوسيشكن واضع مبادئ الفرقة الجديدة والمصرح بان سياسة هرتسل فشلت والحركة الصهيونية تحتاج الى العمل السريع في فلسطين بدون انتظار منحة او امتياز ويجب مشترى الارض حالاً بقسم من مال المصرف القومي . (٥) التريتوياليين — قوام هذه الفرقة هم الذين رغبوا في المؤتمر قبول استعمار شرقي افريقية ثم عدلوا خطتهم وقرروا ان يستحصلوا على أي أرض في كل بلد بشرط ان ينالوا فيها استقلالهم الاداري . وظهرت فرق أخرى لم تنل شهرة مثل الفرق التي تقدم ذكرها . ومنها فرق الصهيونيين السياسيين الذين عقدوا اجتماعاً خاصاً سنة ١٩٠٥ (٦) الصهيونية السياسية الحقيقية — وهم يعتقدون ان طلب الحكم الاداري لليهود مبالغ فيه ويريدون ان يهتم الصهيونيون في سرعة مشروع استعمار فلسطين والبلاد المجاورة ، وهناك فرق صغيرة .

كان مركز القيادة الصهيونية العامة في برلين مؤلفة
من ستة أعضاء رئيسهم البروفسور واربورغ ، وكان
أربعة منهم في برلين وواحد في بطرسبرج (اينينغراد) والآخر في أميركا الشمالية ،
فلما أعلنت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ توقفت أعمال الصهيونية السياسية وأصبحت
مهدة ولم يلبثوا ان نقلوا إدارتهم العامة الى كوبنهاغن ونقلوا الادارة المالية الى

الصهيونية في الحرب

هولاندة وتظاهروا بالحياة التام أمام جميع الدول وتربصوا ليروا اين تكوث الغنية لينصرفوا اليها ، أماعضوهم في الولايات المتحدة فقد أخذ يجمع حوله الصهيونيين والف لجنة عاملة . ورغم جميع هذه الاستعدادات السياسية فان مركز الحركة الصهيونية لم يكن في كوبنهاغن ولا في امستردام ولا في نيويورك بل كانت في لندن اذ كانت محور العالم ، وفازوا بحمل بعض الدول على الاعتراف بحقوقهم التاريخية في فلسطين رغم ما كانت عليه الروح الصهيونية من الضعف في بلاد الانكليز . ولم تعلن تركيا الحرب في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ حتى انتبه الرأي العام اليهودي وتأكدوا ان المسألة الشرقية سيعاد البحث فيها فانتعشت آمالهم وابتهجت نفوسهم يوم صرح رئيس الوزارة الانكليزية المستر اسكويث قائلاً : « ان جرس جنازة تركيا قد دُق لا في اوربا فقط بل في آسيا أيضاً » فاستبشروا بان تأسيس دولة يهودية في فلسطين أصبح ممكناً ومعقولاً وبرز الدكتور حايم ويزمن استاذ جامعة منشستر واندفع حتى أصبح قائد الحركة الصهيونية العامة ، كانت هذا الدكتور صهيونياً ولكنه لم يشغل وظيفة مهمة في ترتيباتهم السابقة على انه كان دائماً يميز نفسه في المؤتمرات ، وكانت يحض اشدة على العمل في داخل فلسطين ويذكر ما يترتب عليه من الفوائد ، ويقاوم بعنف جميع الذين كانوا يطلبون ان تقتصر الجهود الصهيونية على السياسة فقط . وهو الداعي الى تأسيس جامعة عبرية في فلسطين وهو الذي اعتبر دخول تركيا في الحرب عهداً جديداً لفلسطين وفرصة نادرة يجب ان يستفاد منها .

فطار اسمه ولناقلت أخباره الصحف حتى انه طلب اليه ان يقابل المستر لويد جورج ناظر المالية حينئذ فأجيب بشرط ان يشهد الاجتماع السر هيرت صموئيل رفيق لويد جورج في الوزارة فقبل ذلك بكل سرور وقابله وبسط له آراءه وآماله يجعل فلسطين بلاداً يهودية فارتاح الى هذا الطلب ، ثم انصرف ويزمن وعمل على الاجتماع بالمستر بلفور فأنس منه كل تشجيع وهكذا فتح الدكتور ويزمن باباً للمفاوضات التي أدت فيما بعد الى تصريح بلفور المعلوم والى اتفاق سانت ريمو والى الاعتراف من الدولة الوصية بتسهيل تأسيس الوطن القومي اليهودي . وقد كان ويزمن يعمل بنفسه دون مشورة او مساعدة احد غير بضعة نفر من صفار الصهيونيين ، فرأى ان

يدعو الى لندن الدكتور شلينو والمستر سكولوف العضوين الروسيين في المؤتمر الصهيوني ليساعده في العمل وانضم اليهم فيلسوف الصهيونية المستر اشير كنزبرغ المعروف « باحاد هعام : احد القوم » والمشهور بتعصبه لشر العلم والتهذيب بين الصهيونيين فألفوا لجنة غير منتخبة لكنها ربما كانت موثوقة من اكثر الصهيونيين واتخذوا هدفهم ملامسة الحكومة البريطانية واكمال المفاوضات التي باشرها ويزمن على ان الدكتور شلينو مات بعد قليل واقتصر كنزبرج على اعطاء المشورة فوقع حمل المفاوضات والنيابة عن الامة اليهودية على عاتقي ويزمن وسكولوف ولكنهما كانا يطلعان قواد الصهيونية في اميركا وروسيا وغيرهما من البلاد على كل ما يجري معها و يأخذان موافقتهم على الاشياء المهمة .

وكانت حكومات الحلفاء تبحث عن كيفية تقسيم البلاد المنفصلة عن الامبراطورية التركية اذا انتصرت ، وبحثت في مسألة فلسطين ايضاً ، وكانت عقد اتفاق سري بين فرنسا وانكلترا عرف باتفاق سايبكس يكو أمضي في ربيع سنة ١٩١٦ ومآله ان تأخذ فرنسا شمالي فلسطين وانكلترا ميناءي حيفا و يافا وتعمل فلسطين وما فيها من الاماكن المقدسة تحت حكم خاص للاحتفاظ بمصالح دول الحلفاء الدينية وهذا الحكم يقرر بالاتفاق بين روسيا وفرنسا وانكلترا . ولم تذكر المسألة الصهيونية في هذا الاتفاق ولم يرد ذكر ما وراء الأردن والبحر الميت وخليج العقبة ولكن كان من المنظر ان تدخل هذه المناطق في الدولة العربية او الحلف العربي الذي كان في النية ايجاده بموجب معاهدة سرية عقدت مع شريف مكة السلطان حسين ومفوض بريطانيا مارك سايبكس الذي كان عضواً في مجلس النواب الانكليزي وله معرفة بسورية وفلسطين وما يجاورهما من البلدان ، وكان غير ميال الى الصهيونية وعندما اعترضه الدكتور ويزمن وسكولوف وأفهامه شيئاً عن آمال الصهيونيين ، تأثر من كلاهما واخذ يعطف على قضيتهما ، بل صار عضداً متيناً لهما وبينما كانت يفاوض زعماء العرب والارمن و يبحث في أمانهم الاستقلالية كان يعتقد ان فلسطين يهودية ليست عربية وهي أشبه بحلقة بين أرمينية الحرة والدولة العربية ! .

اما الحكومة الانكليزية فانها فوضته رسمياً بمفاوضة زعماء العرب والارمن والصهيونيين

فمعد اجتماعاً رسمياً مع الصهيونيين في شباط سنة ١٩١٧ ولم يشترك فيه احد من العرب وقد شهدته الدكتور ويزمن وسكولوف وهربرت بندو يش وكاون وساقر وهربرت صموئيل المندوب السامي السابق لفلسطين وحسن روتشلد. وبعد البحث الطويل توصلت العلاقات بين الصهيونيين والحكومة الانكليزية ووضعت القضية الصهيونية على أساس قانوني وفوض ويزمن وسكولوف ان يدوبا عن الصهيونيين فيما بعد ، وابلغت الحكومة الانكليزية هذه المعايضة الى الحكومة الفرنسية ، وذهب سكولوف الى باريس ليبين لفرنسا اعتراض الصهيونية وعلاقتها بالحالة السياسية الدولية الراهنة ، وقابل ناظر الخارجية المسيو كامبون وأخذ منه هذا التصريح « ان الحكومة الفرنسية لا يمكنها الا ان تشعر بالعطف على غرضكم الذي يتوقف نجاحه على فوز الحلفاء وانه مسرور باعلان هذا التأكيذ » .

ثم توجه سكولوف الى رومة واستحصل تأكيذاً بالعطف على الحركة الصهيونية من رئيس الوزارة الايطالية والبابا ، وفي هذه الاثناء انقلبت الوزارة الانكليزية وتولى لويد جورج رئاسة الوزارة الجديدة وبلغفور نظارة الخارجية ودخل فيها من الوزراء الذين هم أصدقاء الصهيونيين مثل اللورد ملزر والجنرال سمطس واللورد روبرت سسل .

وبعد فترة طويلة نشطت الحركات العسكرية في فلسطين وتقدمت بسرعة فائقة حتى احتلت القدس سنة ١٩١٧ فرن صداها في لندن وأجابها تصريح بلفور الشهير الذي ضمن في كتاب أرسل الى اللورد روتشلد وهذا نصه : « ننظر حكومة جلالة الملك البريطانية بعين الرضى الى انشاء وطن قومي في فلسطين ، ونبذل الجهد في سبيل ذلك على ان لا يجري ما يضر بحقوق غير اليهود في فلسطين الدينية والمدنية او ما يضر باليهود من الحقوق والمقام السياسي في ما سواها من الممالك » .

فقابل اليهود هذا التصريح بالترحيب واصطبغوا جميعهم بالصبغة الصهيونية وقاموا بمظاهرات في كل مكان واكتسب هذا التصريح موافقة دول الحلفاء الكبيرة فوافقت عليه فرنسا والمانيا واليابان سنة ١٩١٨ اما الولايات المتحدة فانها لم تكن اعلنت الحرب على تركيا لم توافق عليه ولكن الرئيس ويلسون ارسل في آب سنة ١٩١٨ كتاباً الى

رئيس لجنة الصهيونيين الاميركانيين هذا نصه : « راقبت برغبة شديدة العمل الاساسي الذي قامت به لجنة ويزمن في فلسطين بمساعدة الحكومة البريطانية وهاءنذا اتخذ هذه الفرصة لاطهر امتناني بتقديم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة وفي بلاد الحلفاء منذ تصريح بلفور المتضمن موافقة انكلترا على تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ووعد الحكومة الانكليزية بانها تساعد ما استطاعت وتضمن الوصول الى هذه الغاية بشرط ان لا يضر هذا العمل بحقوق غير اليهود (العرب) المدنية والدينية من سكان فلسطين او يعيث بحقوق اليهود خارج فلسطين .

اما لجنة ويزمن التي أشار اليها الرئيس ويلسون فهي لجنة صهيونية أرسلتها الحكومة الانكليزية الى فلسطين سنة ١٩١٨ ومنحتها سلطة واسعة ، اي ان تكون هذه اللجنة الهيئة الاستشارية للسلطات البريطانية في كل ما يتعلق بالمسائل التي تمس اليهود او التي تمس الوطن اليهودي القومي بموجب تصريح حكومة جلالة الملك .
 ونحصر أغراضها في ما يأتي : (١) ان تكون حلقة اتصال بين السلطات البريطانية واليهود في فلسطين . (٢) ان تشترك في توزيع الاحسان على أهالي فلسطين وان تساعد على إرجاع المنفيين من فلسطين واللاجئين اليها . (٣) ان تساعد على تقديم المستعمرات اليهودية وعلى تنظيم السكان اليهود في فلسطين كافة . (٤) ان تساعد المعاهد اليهودية في فلسطين لاعادة عملها ونشاطها . (٥) تسعى لإحكام العلاقة الودية بين اليهود وغيرهم من سكان فلسطين العرب . (٦) تجمع ما تراه مناسباً من المعلومات ونقدم تقريراً فيما يمكن عمله لترقي الاستعمار اليهودي وتقديم البلاد عمومًا . (٧) تبحث فيما اذا كان في الامكان تأسيس جامعة عبرية في فلسطين وتختار محلها ، فاختارت جبل سكويس (الطور) وافتتحتها بوضع الحجر الاساسي بحضور رؤساء الحكومة .

ولما غلبت تركيا وحلفاؤها وعقد مؤتمر باريز ، دخلت النهضة الصهيونية في طور جديد فذهب ويزمن وسكولوف الى باريز ليمثلا الصهيونيين و بيننا مطالبيهم وجاء غيرهم من صهيونيي البلاد المخلفة ، وقد سمع مجلس الحلفاء الاعلى اقتراحاتهم في جلسته المنعقدة في ٢٧ شباط سنة ١٩١٩ وهذه هي : اولاً — وجوب اعتراف الدول بحق اليهود التاريخي في فلسطين وشد أزهم لاعادة بناء وطنهم القومي . ثانياً — ان

تسلم سلطة الحكم العليا في فلسطين الى جمعية الامم وان يعهد الى انكثرا بالوصاية عليها وتكون مسؤولة أمام جمعية الامم . ثالثاً — ان يضاف الى صك الانتداب للحكومة فلسطين الشروط الآتية :

(١) ان توضع فلسطين في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية بضمن معها تأسيس الوطن القومي اليهودي ، وان يؤول ذلك في النهاية الى ايجاد حكومة مستقلة بشرط ان لا يعمل شيء يعيث بحقوق غير اليهود (العرب) في فلسطين او بحقوق اليهود التي يتمتعون بها خارج فلسطين .

(٢) وللوصول الى هذه الغاية تقوم الدولة الوصية : (١) بتشجيع الهجرة اليهودية واسكان اليهود في الارض الفلسطينية مع المحافظة على حقوق السكان الحاليين الثابتة من غير اليهود (العرب) .

(ب) تعضيد وكالة يهودية في فلسطين وفي العالم للاشراف على بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين وان يعهد بمراقبة التعليم اليهودي الى هذا المجلس .

(ج) بعد الاقتناع بان قانون هذه الوكالة لا يتضمن جلب الربح الخاص يجب ان يفضل على غيره باعطاء المشاريع الاقتصادية وتفتح له الأولوية في كل امتياز في الاعمال العامة او في استثمار الثروة الطبيعية التي تجدها الحكومة من الضرورة اعطاءها لها .

(٣) تساعد الدولة الوصية جهد استطاعتها على توسيع الحكم الذاتي للمقاطعات او المراكز الممكنة إقامتها بالنظر الى حالة البلاد .

(٤) تعطى الحرية التامة في ممارسة العبادات الدينية لجميع الاديان في فلسطين دون تمييز بين السكان مهما اختلفت جنسياتهم او حقوقهم المدنية .

ولم يقدم اقتراح بإدارة الأماكن المقدسة التي رأوا تركها لرأي الدول الكبرى .

وقد طالب ان يدخل ضمن حدود فلسطين المجرى الاسفل لنهر الليطاني وهضاب جبل الشيخ الجنوبية (منابع الاردن) ومن الشرق الجولان ونهر اليرموك وما يليها من المناطق الجنوبية التي كانت من نصيب فرنسا في اتفاقية سايكس بيكو واعتبرت هذه المناطق أساسية لتقديم الاستعمار في البلاد وأدلو بحجج تاريخية . فسمع مجلس الحلفاء أقوال الصهيونيين ولم يصدر قراراً حاسماً لانه كان مشغولاً بمسائل أهم من معضلة فلسطين .

كان اليهود واثقين بالحكومة الانكليزية وما خامرهم الشك في صداقتها ولم تحدثهم نفوسهم انها لنأخر عن مناصرتهم او إنجاز ما وعدتهم به ولكنهم قلقوا لانها لم تكن هي وحدها صاحبة الحل والعقد ولذلك كانت هذه الفترة حرجة جداً في تاريخ اليهود فاما ان يقضى لهم او يحكم عليهم . ولقد كان من المنظر إحداث تغييرات ثلاث في المطالب الصهيونية لان الحكومة الافرنسية صدقت على وعد بلفور، ومعاهدة سايكس بيكو بطلت لانحلال روسيا ، الا ان اتفاق الحكومة الانكليزية مع الملك حسين كان له شأن يذكر ، ونشاط الحركة الوطنية العربية في فلسطين ومقاومتهم الصهيونية ، كان لها أثر فقد أسمعت المراجع الايجابية صوتها وعاكست الخطط البريطانية المتحيزة للصهيونيين ، كما ان بعض المقامات الدينية المسيحية أظهرت استياءها مخافة ان يتمكن اليهود من السيادة في فلسطين ، أضف الى هذا ان اليهود اللاصهيونيين في اميركا واوربا كانوا يقاومون الصهيونية بشدة ، فمجموع هذه العوامل أخر سير القضية الصهيونية لكن العاملين الاولين (معاهدة الملك حسين ومقاومة العرب) كانت لهما الاثر الاكبر في ذلك .

كان العرب يستندون في سياستهم على الامير فيصل (ملك العراق) قائد الجيوش العربية وحليف دول الحلفاء الذي توج ملكاً على سورية ولم يدم سوى بضعة شهور وكان هذا الامير في مجران سياسي يتنازعه عاملان متناقضان ، احدهما العرب الذين كانوا يطلبون اليه بشدة مقاومة الصهيونية ، والعامل الثاني بعد نظره الذي جعله يسعى باخلاص للتعاون مع قواد الصهيونيين ، فتخرج مركزه بين هذه المطالب المتناقضة ، وغلب عليه العرب فلم يرض عن تأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين ، ثم عدل عن هذا الرأي وأرسل كتاباً الى الاستاذ فيلكس فرنك فتر احد زعماء اليهود الاميركان ، هذه خلاصته : « اننا نشعر ان العرب واليهود هم ابناء عم في الجنس وانهم تحملوا اضطهادات متشابهة من الدول القوية ، وقد ساعدتهم حسن الطالع بان يتمكنوا من الصعود معاً الى الدرجة الاولى من سلم آمالهم الوطنية ، ونحن العرب وخاصة المتعلمين ننظر برغبة شديدة الى النهضة الصهيونية ، وقد اطلع وفدنا في باريز الآن على الاقتراحات التي قدمتها أمس الى مؤتمر السلام ونحن نعتبر ان

هذه الاقتراحات معتدلة ولائقة ، وسنعمل جهدا وما في وسعنا لمساعدة اليهود ابداً ونتمنى لهم وطناً ينزلون فيه على الرحب والسعة . واني أتطلع وشعبي ايضاً الى مستقبل نستطيع فيه ان نتبادل التماون لتصبح البلاد التي نشترك في الاهتمام بها ذات مركز بين الامم المتمدنة في العالم » .

لقد حدثني أحد أخصاء الملك فيصل ان الكولونيل لورنس قدم اليه كتاباً باللغة الانكليزية وطلب منه ان يوقعه ففعل دون ان يعرف ما فيه . لانه كان موضع ثقته وعلى كل فالملك فيصل مسؤول سواي عرف ما تضمنه الكتاب او لم يعرف ولكن اذا نظرنا بحكمه نجد انه لم يفد الصهيونيين الا باتخاذ حجة على رضى العرب عن الصهيونية .

وقد مرت الايام واليهود يبذلون جهودهم لحل معضلة فلسطين المعقدة فلم يتوصلوا الى حل مرضي لان بعض الدول رفضت قبول مبادي الرئيس ويلسون وبعضها ترددت مساومة . وأخيراً اخلف اليهود والادارة العسكرية في فلسطين وتظاهروا ان البلاد بلادهم وما على العرب الا ان يرحلوا عنها ، فثار ثائرة العرب وتمردت روحهم الوطنية ووقفوا بالمرصاد للصهيونيين فانفق ان كانت جماهير جبل الخليل قادمة الى القدس للاشتراك في موسم النبي موسى سنة ١٩٢٠ فحرش بهم اليهود تحرشاً اعتبره أهل الخليل اعتداءً فهاجموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة .

وما كاد البرق يتناقل هذه الحادثة الى سان ريمو حيث كانت وزراء بريطانيا وفرنسا وايطاليا مجتمعين لتقرير صورة المعاهدة التي ستقدم الى تركيا والتي لم يكن فيها نص على فلسطين سوى ان تسلم بها تركيا الى الحلفاء وهم يفعلون بها ما يرونه مناسباً . وقد كانوا ينوون تأجيل النظر في مسائلها وتعيين شكل حكومتها النهائي ولكن حوادث القدس التي ربما كانت مدبرة من اليهود او الحكومة غيرت هذا المنهج وأسرع الحلفاء في تصفية الخلاف بينهم وبحثوا في فلسطين واعترفوا بمطالب الصهيونيين وأضافوا فقرة الى المعاهدة المصدقة في سان ريمو والتي وقع عليها الاتراك والحلفاء في سان ريمو بعد أشهر قليلة وهذه هي الفقرة :

توافق الدول الموقعة على هذه المعاهدة بموجب المادة ٢٢ من صك الاندباب

وتعهد بإدارة فلسطين بالحدود التي سنقررها دول الحلفاء الى دولة وصية تختار من الدول المذكورة وتكون الدولة الوصية مسؤولة بتنفيذ التصريح الذي فاه به بلفور في ٢ شباط سنة ١٩١٧ بالنيابة عن الحكومة البريطانية والذي وافقت عليه دول الحلفاء والوارد فيه تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين على ان لا يمس حقوق العرب المدنية والدينية ولا المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود خارج فلسطين . وقد نقرر ايضاً في سان ريمو بناءً على أماني الصهيونيين ان تكون الحكومة الانكليزية الحكومة الوصية على فلسطين . فأبدت الحكومة الانكليزية الادارة العسكرية في فلسطين بادارة مدنية وعينت على رأس هذه الادارة السير هربرت صموئيل (الصهيوني الحميم) الذي كان زار فلسطين ليدرس المشاكل الاقتصادية والسياسية فيها ، فجاء صموئيل وتولى منصبه مندوباً سامياً في فلسطين في ١ حزيران سنة ١٩٢٠ فقاطعه الوطنيون وجافوه واكسبه باشر بتأسيس ادارة مدنية وحاجبه مشككتان صعبتان وهما : (١) الحدود (٢) مواد الانتداب ، وحلت هاتان المشككتان بالتدريج وفي المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا ، اما الحدود التي اقترحتها الصهيونيون أمام المجلس الاعلى فلم توافق عليها فرنسا لانها أصرت على الحدود المقررة في معاهدة سايكس بيكو وبعد مباحثات طويلة تنازل الفرنسيين عن مقاطعة المطلة وبانياس اما صور وصيدا والبحري الاسفل لنهر الليطاني ومنابع نهر الأردن والشاطيء الشرقي لبحيرة طبريا والجولان واليرموك فقد أخرجت منها خلا عدة أميال أضيفت الى فلسطين من شاطيء اليرموك الغربي قبل ان يصب في الأردن .

وقد قابل اليهود هذا الحل باستياء شديد لانهم رأوه يؤثر في استعمار البلاد ويضر بفلسطين وسورية . وأظهر الفرنسيون انهم لن يتنازلوا عن مطالبهم الا اذا توفقت انكلترا وفرنسا الى تعديل الاتفاق فيعطى الى فلسطين ما يزيد من مياه الأردن الشمالي واليرموك للتمتع منها بتوليد قواها الكهربائية او استعمالها في ري الارض وغير ذلك . وهكذا قد أضيف الى صك الانتداب بعض ما يتطلبه اليهود وما يعود عليهم بالنفع ، وقد قدم صك الانتداب في كانون الاول سنة ١٩٢٠ الى عصبة جمعية الامم لاقراءه فتأخروا لان معاهدة تركيا في سيفر لم يكن صدق عليها .

كما ان الولايات المتحدة قد امتنعت ان تكون طرفاً في معاهدة السلم واقتصرت مطالبتها من فلسطين على ان تكون حقوقها التجارية مضمونة .
وكاد هذا التأخير يجعل مستقبل فلسطين السياسي غامضاً لان المفاوضات سارت ببطء ولم تنته حتى تموز سنة ١٩٢٢ حين بحث في الوصاية وصدقت عليها عصبة جمعية الامم .

وفي صيف سنة ١٩٢١ كان عدل صك الانتداب بشأن شرقي الاردن بفقرة هذا نصها : ان للدولة الوصية الحق بتأجيل او عدم تنفيذ بعض المواد الواردة في صك الانتداب الذي يتعلق في شرقي الأردن ، وهكذا خرجت الصهيونية رابحة بعض الربح من الحرب ولكن أعمالها لم تصطدم بقوة عملية بعد ، وانها وان كانت الآن في دور المد فسيأتي عليها دور الجزر فلا يجد رجالها مأوى يعودون اليه ويندمون على ما فقدوه من تجانسهم باهالي البلاد الذين عاشوا واياهم دهرأ طويلاً اه .

* * *

وضعت الحرب أوزارها وكل أمة تنتظر ان يصيبها الصهيونية بعد الحرب
قسط وافر من حقوقها المسلوبة . فكان اليهود المشتتون في أقطار العالم يتلمسون بصيص تصریح بلفور و ينظرون اليه نظرم الى صك هبة او بيع قطعي يخولهم امتلاك فلسطين ، فشغفت أنوفهم وأعان قوادهم ان فلسطين يهودية كما ان انكلترا انكليزية ، وما على العرب الا ان يرجعوا الى جوف جزيرتهم ، ونشروا راياتهم بكثرة وفي كل مكان وانشدوا نشيدهم القومي ، وأخذت الحكومة تصطبغ بالصبغة اليهودية فتولى رئاستها صهيوني صميم ورئاسة النيابات صهيوني متطرف وتغلغل الصهيونيون في جميع الدوائر وسيطروا على الادارة العامة وصارت اللغة العبرية لغة رسمية ، وظنوا انهم سيأتي الى فلسطين الوف من اليهود بسرعة يؤلفون الاكثرية الساحقة ثم ينشئون دولة يهودية تتم بها النبوات القديمة ، ولم يعلموا ما يقابلهم من الصعوبات والعراقيل في تحقيق أميتهم ، وتجاهلوا ان البلاد يسكنها ثلاثة ارباع مليون عربي يملكون أرضها ويستغلون مواردها ، فعبثوا بالرأي العام الانكليزي وتهاونوا

في ايجاد عمل للمهاجرين وعجزوا عن إعداد سبيل المعيشة لم فوقعت في أزمة اقتصادية وبقي قسم كبير من المهاجرين مدة طويلة بلا عمل .

اما الشعب العربي الجريء فانه كان ينتظر من الحلفاء انصافاً لا سيما بعد ان انشقوا عن حكومتهم التركية وشاركوهم في الحرب . فكانت نفوسهم تصبو الى الاستقلال التام او على الاقل الداخلي تحت إشراف بعض الدول المخلصة . ولما انقشع ظل الاتراك ظهر الحلفاء بمظهر الجشع وقسموا سورية الى حكومات وأجزاء فأدرك عرب فلسطين ان اليهود يسعون لتأسيس حكومة يهودية في مجرى لنفس جسم البلاد العربية ، فغضبوا وانشأوا الجمعيات الاسلامية المسيحية وألهبوا صدور الاهالي وأثاروا نفوسهم ، فاضطربت الروح الوطنية بين جوانحهم وعقدوا المؤتمرات واشترك مندوبوهم في المؤتمر السوري في دمشق وأعلنوا ان فلسطين جزء من سورية وأرسلوا وفوداً الى اوربا والحجاز لاستصراخ العالمين الاسلامي والمسيحي فقابلتهم الحكومة الانكليزية بكل جفاء وعيشت بمطالبهم وغالطت في التعابير الفنية والتفسير السياسية ، وأصررت على اتباع سياستها القديمة التي ترمي الى فصل العالم الاسلامي والعربي بعضه عن بعض بوضع الصهيونيين حاجزاً بين الشام ومصر والحجاز والشام .

وارتاب العرب في الشق الثاني من وعد بلفور الذي يضمن حقوق سكان البلاد الحاليين لانهم رأوا تناقضاً بينا بين شقي التصريح المذكور ، فلو آمنوا بالشق الثاني وسلموا بمبدأ مهاجرة اليهود الى البلاد وفقاً لنص الشق الاول فان اليهود يصحون اصحاب الاكثريّة المطلقة في مدة وجيزة ، فاذا السحب البريطانيون عندئذ فكيف يمكن تطبيق الشق الثاني .

لا شك ان العرب يقعون هنالك امام مشكل خطير وتصيح الاماكن المقدسة التي بأيديهم مهددة بخطر انتقالها الى أيدي أعدائهم لا سيما وانهم يعتبرون أنفسهم والعالم الاسلامي ينظر اليهم بانهم أوصياء يجب ان يحافظوا عليها ، فهاج هائج العرب وأبوا ان يذعنوا لحكم السياسة وتزعزعت ثقة اليهود في تصريح بلفور واجتمعوا عن الهجرة الى فلسطين فذهب المندوب السامي الى لندن وطلب بياناً من الوزارة بحجة إزالة مخاوف

العرب وقصد تأمين اليهود ليقبلوا على المهاجرة فأجيب طلبه وصدر بيان في حزيران سنة ١٩٢٢ وهذا ملخصه :

« لم تكن الغاية من تصريح بلفور جعل فلسطين يهودية والقضاء على الشعب العربي ولغته وآدابه او الخط من شأنها ، ولكن الغاية تأسيس وطن لليهود في فلسطين ، وليس للجمعية الموجودة في فلسطين نصيب في إدارة البلاد العمومية كما ان الجنسية التي ستمتع بها جميع سكان فلسطين تكون جنسية فلسطينية ليس لها علاقة باليهود او غيرهم . ان اليهود أعادوا في المدة الاخيرة بناء طائفة في فلسطين يبلغ عددها ٨٠٦٠٠٠ نفس يشغل سدسهم في الزراعة ، ولهم الطائفة هيئات سياسية خاصة فلها جمعية تنتخب لادارة شؤونها الداخلية ، ومجالس منتخبة في المدن ، وهيئة تشرف على مدارسها ولها رئيس حاخامين منتخب ومجلس رباني (محكمة شرعية) لادارة امورها الدينية ، وقد راجت لغتها العبرية وأصبحت لغة رسمية في دوائر الحكومة ، ولها صحافة عبرية نفي بحاجاتها . ويقصد من هذا العمل ان تقدم الطائفة اليهودية الحالية بمساعدة اليهود المنتشرين في العالم ليجعلوا البلاد مركزاً يكون فيه للشعب اليهودي أجمع مميزات قومية . وليعلم العرب ان محبي اليهود الى فلسطين هو حق ثابت لهم لا منة يمن بها عليهم وقد سمح لهم بزيادة أفرادهم بالمهاجرة بقدر تحمل البلاد الاقتصادي » .

وقد عرض هذا البيان قبل نشره على الجمعية الصهيونية فوافقت عليه ، ثم عرض على وفد العرب الفلسطيني في لندن فحاول تعديل بعض فقره فلم ينجح ، فزاد كره العرب لليهود واشتدت المعارضة للصهيونيين .

وكانت البلاد تمشي الى الانحطاط بمساعي المندوب السامي تطبيقاً للفقرة الواردة في صك اللنداب وهي وضع البلاد في حالة اقتصادية وسياسية لاقرارها وانتزاع الاملاك من أهلها ، فمنع تصدير الشعير حتى هبط سعره وخسر الاهالي خسارات باهظة ، وعمل أعمالاً أخرى أدت الى استياء العرب الشديد الذي طوره السياسة الصهيونية وأحالة الى كوارث فظيعة قصدت استغلالها لحدث الثورات الآتية .

ثورتا القدس } لكل بلاد اعياد، وفلسطين منبع هذه المواسم، فقد اشتركت
 فيها جميع الاديان . وموسم النبي موسى هو اعظم المواسم
 اذ يصادف عيد الفصح عند الطائفتين المسيحية واليهودية ، فالبلاد العربية الاسلامية
 البعيدة لها مواسم مستقلة من عهد المؤسس صلاح الدين الايوبي والبلاد القريبة تأتي
 متتابعة الى القدس ، وبلاد جبل الخليل اعلق الناس بهذه العادة ، فانهم يأتون بكثرة
 وجموع متراصة ينشدون الاهازيج البدوية الثورية ، فلما قدموا الى القدس في يومهم
 المعروف بتحرش بهم اليهود فهيجوم واثاروا حفيظتهم فحصلت معركة قتل فيها عشرة
 اشخاص من الفريقين وكسرت ابواب دكاكين اليهود ونهبت بضائع ليست بقليلة
 واضطربت القدس واعلنت فيها الاحكام العرفية .

اما الثورة الثانية فسببها ان اليهود اتخذوا يوم تصريح بلفور الواقع في ٢ تشرين
 الثاني عيداً لهم يتظاهرون فيه ويعلنون فيه سرورهم ، فقرر العرب جعله ذكرى حزن
 وبؤس يقفلون فيه حوانيتهم ويخرجون الى الحلفاء على هذا الظلم ، وفتيانهم يطوفون
 الشوارع وينشدون اناشيد الرثاء الوطنية فمانعتهم الشرطة وضرب بعضهم فاجابهم
 حقدهم واصطدموا باليهود وقتل بعض اشخاص ونهب المتاع .

* * *

ثورا يافا } يمكن ان نعد ثورة يافا ثورة سياسية تجلت فيها الروح العربية
 بكل مظاهرها . واسبابها ان فرع حزب بوعالي صهيون في يافا
 انضم الى حزب الاشتراكيين المتطرفين المعروفين (بالموبس) والذين من مبادئهم « ان
 القاء النزاع بين الطبقات اهم من التمسك بالوطنية والجنسية » . فحاول هذا الحزب الثوري
 استمالة هيئات العمال اليهود في فلسطين فرفض حزب (احادوت ها عابودا) طلبهم
 وابتلى الانضمام اليهم ، فغضبوا وقرروا اعداد تربة فلسطين للثورة الاجتماعية .

وفي خلال تشرين الاول والثاني سنة ١٩٢٠ حدثت قلاقل بين العمال واليهود
 في يافا حسمت على ايسر حال . وقد نشرت جمعية الموبس اعلانات في انحاء يافا
 وتل اييب وطلبوا من جميع العمال الاشتراك في الثورة الاجتماعية ، وان يحنفلوا باليوم
 السابع من تشرين الثاني العيد السنوي لحكومة السوفييات في روسيا وهذا بعض ماورد

في الاعلانات « ليحيى اليوم السابع من تشرين الثاني يوم العمال الاشتراكيين ، لتسقط فرنسا وانكلترا ، لتحيى الجمهورية الروسية السوفيات ، ليحيى المؤتمر الاشتراكي الثالث لتحيى فلسطين الاشتراكية ، وحملوا راياتهم الحمراء وساروا وفي مقدمتهم السيدة شارلوت روزنتال فحاولوا اكرام عمال اليهود على الاشتراك معهم فوافق بعضهم ورفض الآخرون فاعتدوا على المتعنتين وحصلت معركة بسيطة تدخل فيها الشرطة ثم اوقفت التعقبات بناءً على امر من حكومة فلسطين فاحتج العرب ومدير الشرطة وحاكم المقاطعة على انتهاك حرمة القانون وطلبوا من الحكومة ان تستعمل الشدة لزع الثوار في السجن فرفضت طلبهم وقررت ان لا تأخذ تدابير أخرى ضدهم .

وفي ١ ايار سنة ١٩٢١ خرج حزب المويس من ناديم وعلى صدورهم شارات حمراء وفي ايديهم رايات كتب عليها بخط احمر جملته تحض الناس على الثورة وهذا نموذج منها : ليحيى المؤتمر الاشتراكي ، لتحيى النساء الحرة في الجمعية الاشتراكية ، ليحيى اليوم الاول من ايار لتسقط القوة الانكليزية القهرية ٠٠٠٠ الخ . فتعقبت الشرطة جموعهم المندفعة حتى سالت في شوارع تل ابيب وصادمت اليهود واطلقت عيارات نارية فظنهم العرب مظاهرة مقصودة وجهت اليهم وتحسبوا من شر مداهم فتجمهروا للدفاع عن انفسهم ، وسرعان ما اشتبكوا مع اليهود واهرقت الدماء وامتدت الثورة الى الضواحي حيث هوجمت بعض المستعمرات الصهيونية ودام القتال ثلاثة ايام فقتل من اليهود ٤٧ شخصاً وجرح ١٤٦ وقتل من العرب ٤٨ نفساً بما فيهم البدو والقرويون وجرح ٧٣ ، فاعلنت الاحكام العرفية ووضعت غرامات باهظة على الذين اشتركوا في هذه المعركة من العرب وحرق بيت الشيخ شاكر ابو كشك قائد الثورة خارج يافا ، وقد استفاد اليهود من ضباطهم المنخرطين في الجيش اذ ساعدوهم كثيراً ، والبسوا شبابهم ثياباً عسكرية وسلحوهم ببنادق الجند واهموا العرب انهم جنود انكليزية .

كان عدد اليهود قبل احتلال الانكليز ٥٥ الف نفس فلما
 أبيضت المهاجرة وطم سيلها وتدفقت جموع الصهيوينين واكثرهم
 من شرق اوربا أنشئت الحكومة (دائرة المهاجرة والسفر) لتسهيل الهجرة الصهيونية ،

ثم تحولت هذه الدائرة الى فرع خصوصي في ديوان امين السر العام وارسلت الحكومة مأمورين من اليهود على نفقة الوطنيين لتشجيع الهجرة وترويجها فذهب احدهم الى تريستا ثم الى فارسوفيا وفعلوا ما استطاعوا ، وقد بلغ عدد اليهود في الاحصاء الرسمي سنة ١٩٢٢ (٨٤٦٠٠٠) نفس وقدر عددهم في آذار سنة ١٩٢٥ (١٠٨٦٠٠٠) شخص .

وبعض هؤلاء المهاجرين متدين وبعضهم بولشفيكي وهم فئة قليلة وبعضهم جهلاء متشردون وبعضهم متعلمون ، وكلهم وضع نصب عينيه اخراج العرب من البلاد وامتلاكها وان اكثر من ثلاثة ارباع اليهود يسكنون في المدن والباقي في القرى . وقد بذل اليهود جهوداً كبيرة لشترى الارض والاستعمار الزراعي في فلسطين بيد ان المهاجرين رغم ماليتهم الشخصية وما يتوارد عليهم من المساعدات الخارجية وما يتبع ذلك من التنظيم ، يألفون المدن ويتركون القرى كما يشاهد ذلك ، وقد دلت الاحصاءات على ان قسماً قليلاً منهم يحترف الزراعة فالاربعون الف مهاجر الذين دخلوا فلسطين لم يشتغل منهم في الزراعة سوى ثمانية آلاف وتسلس الباقيون الى المدن الكبيرة مثل القدس وبافا وحيثما ففتحوا الحوانيت المختلفة كالحلاقة وبيع السلع البسيطة واهملوا الزراعة . والذي يعلم ان فلسطين بلاد زراعية وان الزراعة هي المهنة المنتجة الرئيسة فيها يتأكد ان الصهيونيين لم ينجحوا من هذه الجبهة كثيراً .

تقدر مساحة فلسطين بعشرة آلاف ميل مربع ثقباً نصفها جبال قاحلة وارض رملية وصحراء بلقع والنصف الآخر كله قابل للزراعة . فاليهود كانوا يملكون قبل الحرب نحو ١٧٧ ميلاً مربعاً من مجموع مساحة البلاد وكان لهم ٤٣ مستعمرة . اما اليوم فيملكون نحو ٣١٩ ميلاً مربعاً اي ستة في المائة من مجموع الارض الزراعية ومستعمراتهم بلغت نحو ١٠٠ قرية اكثرها في الساحل وبعضها اشتراكية . فالبيع والشراء والزراعة والاكل والمعيشة كلها مشتركة والعزّاب نساء ورجالاً ينامون معاً اما المتزوجون فلهم غرف خصوصية ، ويؤخذ الاولاد من والديهم يجعلون تحت المراقبة ويعنى بامرهم لانهم ملك مشترك للمستعمرة . واكثر مستعمرات اليهود تعتمد على المساعدات الخارجية وعلى قروض المصارف ويملك البارون روتشلد ٤٠ ٪ مما يملكه اليهود في فلسطين .

إدارة المعارف } لليهود وفي فلسطين ادارة معارف تشرف على المدارس اليهودية من صهيونية وارثوذكسية وهي مستقلة عن ادارة

الحكومة . وقد كان لليهود سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ مائة وعشر مدارس فيها ١١٦٢٢٠ تلميذاً و ٥٨٤ معلمًا وفي سنة ١٩٢١ بلغت مدارسهم نحو ١٣٥ مدرسة فيها ٥٢٣ معلمًا و ١٢٦٨٣٠ طالبًا وهي موزعة كما يأتي : في القدس ٣٣ مدرسة وفي يافا ١٧ وفي حيفا ٦ وفي طبريا ٤ وفي صنف ٤ وفي المدن الاخرى ٥٨٧ في مستعمراتهم ٦ في سورية . و يقدر ان ٨٣ ٪ من ابناء اليهود في فلسطين يتعلمون في المدارس اليهودية ، و يندران يدخلوا المدارس الاجنبية . اما المدارس اليهودية في فلسطين فمتنوعة فبينما تجد المدرسة الدينية التي تشبه الكتاتيب المعروفة عند العرب ولا تعلم سوى التلمود والتوراة على الاصول القديمة ، تجد من جهة اخرى بساتين الاطفال الحديثة تسير على نظام منسوري وفروبل . وهي انواع فتنها مدرستان ثانويتان اختلط فيهما الشبان والشابات احدهما في القدس والاخرى في يافا ، ولهم مدرسة صناعية في حيفا ، ولهم دار معلمات في يافا ، ودار معلمين في القدس ولهم مدرسة نيتزر الزراعية التي أسست منذ ٥٠ سنة نقر بياً وفيها ١٠٠ طالب وقد كانت تابعة للجمعية الاتحاد الاسرائيلي (الاليانس) فألحقت مؤخراً بالجمعية الصهيونية . ولهم مدرسة تجارية في يافا وثلاث مدارس للموسيقى ومدرسة للفنون الجميلة في القدس تدعى هاموليل . ولغة التعليم في جميع هذه المدارس العبرية و براجها تشبه برامج مدارس اواسط اوربا مع تعديل طفيف . وهم يشددون الى حد الافراط في الاهتمام بتعليم جغرافية البلاد وتاريخها اليهودي .

ومجموع ما انفقته ادارة المعارف الصهيونية سنة ١٩٢٠ (١٢٠) الف جنيه اي ينفق على كل تلميذ تسعة جنيهات وهو معدل باعظ جداً . واكن موازنتهم اخذت لتناقص الى ان بلغت ٨٠٦٠٠٠ جنيه رغم ازدياد الطلاب .

وفوق هذا فقد ساءت الحالة المالية وامتنعت ادارة المعارف الصهيونية عن دفع رواتب المعلمين فتذمروا واندروها بالاقلاع عن العمل ان لم تجبهم الى مطالبهم فلم تصغ اليهم وعجزت عن اداء عمالاتهم فأضربوا شهراً كاملاً ثم حل المشكل حلاً سياسياً .

اما الرسوم في المدارس اليهودية فهي عالية جداً فالطلاب الخارجي في المدرسة الثانوية يدفع ما يقارب العشرين جنيهاً سنوياً لقاء التعليم فقط « تأمل »
وقد أسس اليهود « او بيرا » اسرائيلية الا ان الاقبال عليها قليل لكون لغتها عبرانية و يُقدر ما تنفقه اليهود من المال بعد الحرب بستة ملايين جنية . مليون واحد اشتروا به ارضاً ومليون للصنائع ونصف مليون للمساعدات وثلاثة ملايين ونصف للاستعمار والتهديب واللامور المختلفة من سياسية وادارية .

المصارف والصحف } ان اعظم مصرف لليهود في فلسطين هو بنك
انكوفلسطين الذي كان رأس ماله سنة ١٩٢٠ (١٠٠) الف جنية وفيه من الودائع ٧٠٠ الف جنية اما الآن فقد زيد رأس ماله الى ٣٠٠ الف جنية وقد احتفظ هذا المصرف بارباحه ولم يوزعها منذ سنة ١٩١٤ واسباب ذلك انه اضطر الى تسليف المستعمرين قروضاً لمدد طويلة . وادارة هذا المصرف العليا في لندن وله فروع في امهات المدن الفلسطينية والسورية ولم يغير هذا المصرف مصارف عقارية . وأخرى تسلفهم للبناء وكلها تفضل معاملة اليهود على غيرهم وتعطيهم بفائدة اقل مما تأخذه من العرب .

واليهود بضع صحف في فلسطين يصدر بعضها باللغة الانكليزية مثل « فلسطين الاسبوعية » « النشرة الفلسطينية » وبعضها يصدر باللغة العبرانية ومنها دوار لسان حال العمال وها آرنس ، ودوار هايوم . وكولي اسرائيل لسان حال الارثوذكس ومجلة هايشوف وغيرها من الصحف التي لا قيمة لها .

مشروع روثنبرغ } في ٢١ ايلول سنة ١٩٢١ عقد اتفاق بين وكلاء التاج
بالنيابة عن السر هربرت صموئيل المندوب السامي لفلسطين
وبين بنحاس روثنبرغ المهندس الرومي على ان يتمكن روثنبرغ المذكور خلال سنتين من جمع مليون جنية لشركة تؤسس في فلسطين وان يتمكن من جمع ما لا يقل عن مائتي الف

جنيه نقداً ، فاذا قام بهذه الشروط فالمندوب السامي يمنحه امتيازاً مدة سبعين سنة للاستفادة من مياه الانهار الآتية :

(أ) مياه نهر الاردن وحوضه ونهر اليرموك وجميع فروعه وروافد نهر الاردن التي تقع في الارض التي يسيطر عليها المندوب السامي لفلسطين .
 (ب) مياه نهر الاردن وحوضه ونهر اليرموك وجميع فروعه وروافد نهر الاردن الخارجة عن الارض الخاضعة للمندوب السامي والواقعة في منطقة الانتداب الافرنسي .
 وذلك لتوليد القوى الكهر بائية وغيرها . ثم رخص له ان يبني على جسر المجامع محطة كهر بائية بعد سنة وان يستعمل بحيرة طبريا خزاناً للمياه التي يريد الاستفادة منها وان يبني سداً عليها رفع المياه الى درجة معلومة ، ونقل هذه المياه باقية نشاد لهذه الغاية وسمح له ايضاً بان يبني غير تلك المحطات متى رآها ضرورية لتوليد القوى الكهر بائية . وان يغير مجرى نهر اليرموك وروافده وبشوقه الى بحيرة طبريا وان يستملك من الارض والابنية ما يراه ضرورياً لهذا المشروع .

ومنح ايضاً استثمار نهر العوجاء بالقرب من يافا . وتعهدت الشركة بان تبدأ بالعمل بعد اثني عشر شهراً وان تنجز المشروع في مدة خمس سنوات . لكن عدل هذا الشرط الاخير ورخص للشركة بتمديد هذه المدة وتعهدت اذا هي تأخرت عن انجاز هذا العمل في الخمس سنوات اوفي المدة التي يعينها المندوب السامي ولم تقم بالعمل تدفع عن كل شهر النفي جنيه للحكومة فلسطين ويحق للمندوب السامي الغاء هذه الاتفاقية .

نظرة في نجاح الصهيونية } اصلاح شيء - اصابه البلى اسهل من خلق شيء من
 العدم ، والصهيونية مهائت قدمت فانها فكرة خيالية
 لاحقيقة لما ارادها هوى بعض اليهود المنتشرين في الارض لاستيطان بلاد اجتازوا
 بها وسكنوها ربحاً من الزمن ثم جلوا عنها كما فعل العرب في الاندلس ، والفرق بين
 الحادئين كبير لان العرب غرسوا مدنية فأزهرت وايثع ثمرها فانظروا بعدم الى الحمراء ،
 اما اليهود فقد زالت آثارهم واندرست مدنتهم الساذجة . فمطالبتهم بالرجوع الى
 هذه البلاد من الصعوبة بمكان . (١) لاهحاء قوميتهم . (٢) لتشتيت نزعاتهم وثقاليدهم

(٣) اليهود يجمعهم الدين وتفرقهم الامم فلهم دين واحد ولكنهم امم شتى . (٤)
لا يجتمعون تحت وحدة ولا يسرون في منهج . (٥) البلاد يمتلكها اصحابها وهم جزء
من محيط عربي عظيم .

فاليهود وان تقدموا قليلاً فلا إخال نجاحهم الاموقتاً ولوساعدتهم بريطانيا ودول
الغرب لان كل حركة ليست طبيعية ودافعها غير عقيدة صادقة فعاقبتها الفشل . اما
اعمال اليهود خارج فلسطين بعد الحرب فانهم انصرفوا لاقتناع اوربا بان العرب
راضون عنهم وعقدوا بعض مؤتمرات وعدّوا بعض خططهم وجمعوا اموالاً همة
وتوددوا الى البلاد المجاورة لهم وطاف دعائهم على الاقطار التي يسكنها اليهود واكتفوا
بمصر قواهم العملية داخل فلسطين ومراقبة الحركات السياسية الدولية العالمية^(١) .

في نيسان (١٩٢٥) خطب اللورد اللنبي المعتمد البريطاني في مصر في
حفلة مقابر الحرب البريطانية في غزة خطبة ذكر فيها السامعين بان هذه
البقعة جرت عليها . مارك حربية قديمة وحديثة واثني على الابطال البريطانيين الذين ضحوا
نفوسهم فطردوا الاتراك في محاولاتهم الثلاث . وقد ذكر بعضهم ان قتلى البريطانيين في
البقعة التي حارب بها شمشون في غزه خمسة آلاف جندي .

وفي هذا الشهر وقعت فتنة بين اهالي قرية العاليات من عمل حمص بعضهم مع
بعض وبينهم وبين الحكومة انتهت بقتل اربعين نفساً وثمانية واربعين جريحاً ويقال
ان خمس أسر فثيت على بكرة ابيها والسبب في ذلك ان رجلاً من العلويين اسمه شعبان
من اهل وادي البرغل من عمل اللاذقية قام منذ السنة الماضية يدعو النصرانية الى
ادخال الاصلاح على مذهبهم ، وتعاليمه تدور على روحانية الامام علي بن ابي طالب

(١) المصادر : المعلة الانكليزية . المعلة اليهودية . بقظة فلسطين « لشتين » . تاريخ
الصهيونية (لسو كولوف) . تاريخ الصهيونية لروحي بك الخالدي مخطوط . تقرير
مندوب فلسطين السامي . تقرير قاضي القضاة في فلسطين . مناشير الحكومة الرسمية .
معلومات خصوصية من الدوائر الرسمية ، جرائد فلسطين .

في الالوهية ، وتخطئة من يزعم وجوده في الشمس كالشاليين او القمر كالكلازيين وقد اوجب على اتباعه صيام رمضان والصلوات الخمس وتعليم النساء خلافا لما جرى عليه الاسلاف في المذهب العلوي من حظر التدخين على النساء فانقاد الى رأيه كثيرون ولا سيما عشيرة المتاوردة ولما كان قد بقيت بعض البيوت في قرية العاليات لم تتمذهب بمذهبه وقع بينها وبين من دانوا به خصام ادى الى القتل وتدخل الحكومة .

وفي سلخ ذي الحجة حدث اختلاف بين السلطة المنتدبة وزعماء جبل الدروز ادى الى نفي بعضهم الى اصقاع من بلاد الشام ونشبت فتنة بين الدروز والحامية ادت الى قتل بضع مئات من الفريقين ، وخربت السلطة بضع قري بالفنابل التي قذفت بها من الطيارات والمدافع ، ودخلت السنة الجديدة ولم تعرف نتائج هذه الوقائع وسكان الجبل تزداد كل يوم رابطتهم . وقيل ان لليد الاجنبية يدا في اثاره هذه الفتنة . يؤكد العارفون ان منشئها من ضعف الادارة وعدم معرفة طبائع القوم .

يقف القلم عند هذا الحد من تدوين التاريخ السياسي في الشام الى سلخ ذي الحجة سنة ثلاث واربعين وثلاثمائة بعد الالف للهجرة الموافقة لسنة خمس وعشرين وتسماية والفي لميلاد ، ويصعب الآن اصدار الحكم الاخير على حال الشام في هذا الدور ، دور الانتداب البريطاني في فلسطين وعبر الاردن ، والانتداب الافرنسي في سورية الداخلية وساحل الشام او لبنان وما اليه من بلاد العلويين لان الانتدابين ما برحا في طور التجربة في الادارة . وقد انفقت كل من بريطانيا وفرنسا على الانتداب وعلى الجيوش اللازمة لها في البلاد التي انتدبوا لتدربها على الحكم الذاتي عشرات الملايين من الليرات وما زال الشام يئن ويشكو من نفريقه وتمزيقه .



التقسيم الادارية الحديثة



تقسيم القدماء } كان الشام ينقسم في تقسيمه الادارية بحسب مصلحة المتغلبين
قبل الاسلام } عليه وعمران البلاد ، ولما كان يطلق عليه اسم آرام كان يقسم
الى عدة اقسام مثل ارام صوبا و ارام معكة و ارام بيت رحوب و ارام دمشق و فدان دمشق
وهي اقسام مملكة ارام ، وكانت دمشق قصبته ، اي انها كانت منقسمة بين ملوك
كثيرين كملوك دمشق ورحوب و صوبة وجشور على ما يفهم من رواية التوراة .
واراد الرومان اضافة فلسطين الى ولاية سورية الرومانية سنة ٦٦ ب . م ولما نظم
اغسطس قيصر مملكته وصارت سورية ولاية امبراطورية عاصمتها انطاكية احتفظت
بعض مقاطعاتها باستقلالها فكانت خلقيس (عين جروا و عنجرا) مملكة صغيرة ، وابيلينه
(وادي بردى) رياسة روم ، ودمشق مستقلة بعض الاستقلال الى ايام نيرون .
ووسد امر اليهودية لوال كان له بعض الاستقلال في حدود ولايته تحت ادارة والي
سورية ، وكانت تدمر مستقلة في سلطاتها الى سنة ١١٤ م و اضاف الامبراطور تراجان
الاصقاع الواقعة ما وراء الأردن ، وقضى على مملكة النبطيين وجعلها حكومة متميزة
سمها الولاية العربية وجعل بصرى عاصمتها .

وقسم ساويرس الروماني سورية الى قسمين وجعل القسم الاول الى الشمال ،
وفيه سورية الكوجمانية وسورية المجوفة اي السهول التي على ضفتي العاصي الى انطاكية
والبحر وما بين اللسكام ولبنان ، والقسم الثاني في الجنوب والشرق وفيه سورية الفينيقية
والشطوط البحرية وشرقي لبنان الى وسط البرية وفيه بعلبك وحمص ودمشق وتدمر .
وانقسمت مملكة الشام بعد مقتل ديمتريوس الى قسمين ملكت كلوبطرا في عكا وجنوب

المملكة وملك زبينا في انطاكية وشمالها وكانت الشام مقسومة الى قسمين سورية وفلسطين واطلق اسم سورية على الاثنين منذ اضافتها الى المملكة الرومانية قبل المسيح بمدة .

اجناد الشام } وقسم الاوائل الشام خمسة اقسام الاول فلسطين ومن
ونقسم العرب } مدنها ايليا وهي بيت المقدس وعسقلان ولدونابلس وحبرون
اي الخليل والثاني حوران ومدينتها العظمى طبرية ، والثالث الغوطة ومدينتها العظمى
دمشق ، والرابع حمص ، والخامس قنسرين ومدينتها العظمى حلب وهو اشبه بتقسيم
العرب للبلاد الى خمسة اجناد اي خمسة فيالق ، وهي جند فلسطين ، وجند الأردن ،
وجند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين .

قال بعضهم: سمي المسلمون فلسطين جنداً لانه جمع كوراً وكذلك دمشق وكذلك
الأردن وكذلك حمص مع قنسرين . وقال بعضهم: سميت كل ناحية لها جندي قبضون
اطماعم بها جنداً وذكروا ان الجزيرة كانت الى قنسرين فجندھا عبد الملك بن مروان
اي افرادھا ، فصار جندھا يأخذون اطماعم بها من خراجھا ، وان محمد بن مروان كان
سأل عبد الملك تجنيدها ففعل ، ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة الى حمص حتى كان
يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ونيج وذواتها جنداً . وافرد الرشيد قنسرين
اي كورة حلب بكورها فصيرھا جنداً واحداً .

ومعلوم ان العرب اطلقوا اسم الشام على سورية وفلسطين معاً وهذه القسمة اي
قسمة الشام الى قطرين لا توافق عليهما الطبيعة . كما قال العارفون من علماء الجغرافيا
المحدثين لانھا شيء واحد وما هي الا اعتبارات سياسية صرفة وهو تقسيم موضوع على
التعارف كما قال المقدسي ، وقد قسم الشام الى ست كور وقال : فان قال قائل لم
جعلت قصبة الكورة حلب (اي لم تجعلها قنسرين كما كان مصطلح العرب الى القرب
الثالث) وههنا مدينة على اسمها قيل له قد قلنا ان مثل القصبات كالقواد والمدن كالجند
ولا يجوز ان نجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجمع الدواوين اليها
وانطاكية ونفاستها وبالس وعمارتها اجناداً لمدينة صغيرة اي قنسرين التي وصفها
بانھا مدينة خف اهلها .

التقسيم في عصر الصليبيين والمماليك } وما زال تقسيم الشام الى اجناد مدة الأمويين وطرف صالح من عهد العباسيين ، ويفرق العمال الذين ينصبونهم على البلاد بحسب ما يرون فيه المصلحة ، دام ذلك الى القرن الخامس فكانوا يقطعون بعض الاعمال ويدعونها ممالك فكانت صرخد مملكة والزبداني مملكة وحمص مملكة وحماة مملكة وحلب مملكة . وهذا التقسيم مخجل بالطبع لاختلال احوال البلاد بالحروب الصليبية قال القلقشندي : قواعد الشام ست كل قاعدة منها تعد مملكة بل كانت كل قاعدة منها مملكة مستقلة بسلطان في زمن بني ايوب وهذه القواعد الست العظام هي دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد والكرك . بل كانت الغوطة والمرج من عمل دمشق ولاية رأسها كما كانت الجبل ووادي بردى وبيوس ولاية وكما كانت بيت لھيا في الغوطة ولاية على عهد الامويين .

ولما جاء دور المماليك اصبحت الشام تقسم الى قسمين جنوبي وشمالى ويعين لكل منهما كافل اي وال يقيم كافل القسم الاول في دمشق ويقال له كافل الممالك الشامية وينزل عامل القسم الثاني في حلب ويقال له كافل الممالك الحلبية . وفي سنة ٧٦٨ جعل الملك الاشرف من ملوك الترك حلب اكبر من دمشق كما كانت على القاعدة القديمة وعد الظاهري سبع ممالك في الشام في القرن التاسع وهي المملكة الشامية والمملكة الكركية والمملكة الحلبية والمملكة الطرابلسية والمملكة الحماوية والمملكة الصفدية والمملكة الغزاوية .

وكان لدمشق اربع صفقات غربية وهي الساحلية والقبلية والشامية والشرقية ففي الصفقة الاولى وهي الغربية عشر نيابات وخمس ولايات . فاما النيابات فمنها غزوة والقدس والولايات فمنها ولاية الرملة واللد وقاقون وبلد الخليل ونابلس . واما الصفقة القبلية وهي الثانية ففيها نيابات وثمان ولايات ، فاما النيابات فالاولى منها نيابة قلعة صرخد ونيابة عجلون . واما الولايات فالاولى ولاية بيسان وولاية بانياس وولاية قلعة الصبيبة وولاية الشعراء واذرعات وحسبان والصلت وبصرى . والصفقة الشمالية وفيها نيابة واحدة وثلاث ولايات . فاما النيابات فبعلبك واما الولايات فالاولى ولاية البقاع البعلبكي والثانية ولاية بيروت والثالثة ولاية صيدا ، والصفقة الرابعة الشرقية وبها ثلاث

نيابات واربع ولايات . وهناك نيابات حلب ونيابة طرابلس ونيابة صفد وولاية تبنين وهونين وولاية الشقيف الي غير ذلك من مصطلح القرن الثامن للهجرة .

على عهد العثمانيين } ولما جاء العثمانيون قسموا الشام ثلاث نيابات او ايلات وهي دمشق وحلب وطرابلس وظل هذا التقسيم الى مابعد عهد السلطان احمد فكانت دمشق وهي أعظمها عبارة عن عشرة الوية واهمها القدس وغزة ونابلس وتدمر وبيروت وصيدا وولاية طرابلس خمسة الوية وهي طرابلس وحماة وحمص وسلمية وجبله . وقسمت حلب تسعة الوية ثنائول سورية الشمالية برمتها ما عدا عينتاب التي كانت تابعة لولاية مرعش وفي سنة ١٦٦٠ م احدثت الدولة ولاية جديدة وهي صيدا لمراقبة الجبل . وقد امتدح الجنرال دي تورسي من طرز الادارة التي منحها سليم الاول للشام وهي التي كان عليها العمل في الاكثر الى خروج الاتراك من هذا القطر ، وذكر بعضهم ان الشام كانت على عهد اوائل الحكم العثماني اربع ايلات كبرى وهي دمشق وحلب وصيدا والقدس وان تقسيمها الى ثلاث ايلات كما مر حدث بعد زمن .

وفي سنة ١٢٧٢ هـ كانت الشام تقسم ايلتين ايلة دمشق وايلة صيدا ولما نظمت الولايات على اسلوبها المتعارف اخذ لواء الرها (اورفة) من الجزيرة ولواء مرعش من الاناضول والحقا بحلب فجعلت ولاية وجعلت بقية الشام ولاية جسيمة حاضرتها دمشق . وأنشئت القدس لواء مستقلاً سنة ١٨٧٠ تفاوض الباب العالي في الاستانة مباشرة وكانت بعد خروج المصريين (١٨٤٠) تجعل القدس تابعة لايلة صيدا تارة وطوراً تابعة للباب العالي واصبح لبنان مؤلفاً من اقصية الكورة والبترون وكسروان والمثني والشوف وزحلة وجزين وظلت بيروت وطرابلس ونابلس واللاذقية وعكا واعمالها تابعة لولاية دمشق ، وبقي مركز الجيش دمشق على ما كان عليه قبيل دخول ابراهيم باشا . وفي سنة ١٨٨٧ جعلت القدس متصرفية مستقلة وجعلت الكرك اي ما وراء الاردن متصرفية برأسها وجعلت بيروت سنة ١٨٨٨ ولاية مستقلة عن دمشق لموقعها الاقتصادي وازيفت اليها عكا ونابلس واللاذقية وطرابلس وصور وصيدا

ومرجعيون . وكان لبنان جعل منذ سنة ١٨٦٠ مستقلاً استقلالاً ادارياً يتولاه متصرف من الباب العالي برتبة وزير وتصادق على تعيينه الدول الست العظمى .
 و يوم جلا الاتراك عن الشام كان يقسم الى ثلاث ولايات وهي دمشق وحلب و بيروت وثلاثة الوية مستقلة اي ولايات صغيرة مستقلة تفاوض الباب العالي مباشرة وهي القدس ولبنان ودير الزور . واصطلىح في فلسطين اولاً على جعلها اربعة الوية وهي لواء القدس و يافا ولواء الجليل ولواء السامرة واللواء الشمالي . وجعلت المدن الاربع دمشق وحلب وحماة وحمص وما يتبعها دولة قسمت الى عدة الوية وهي الكرك و حوران ودمشق وحمص وحماة ودير الزور وحلب والاسكندرونة واستقل لواء اللاذقية .

ونقسم النقاسيم الادارية الاخيرة نقسم حكومة فلسطين } نقاسيم فلسطين
 الى ثلاثة الوية وهي (١) لواء القدس و يافا ومركزه القدس (٢) اللواء الجنوبي ومركزه غزة (٣) اللواء الشمالي ومركزه حيفا . ويقسم لواء القدس و يافا الى سبعة اقصية وهي قضاء القدس ورام الله واريحا وبيت لحم و يافا والرملة . و يافا امتياز شبيه باستقلال اداري . ويقسم اللواء الجنوبي الى اربعة اقصية وهي قضاء غزة والمجدل وبئر السبع والخليل . ويقسم اللواء الشمالي الى عشرة اقصية وهي قضاء حيفا وعكا وزمارين والناصرية وطبرية وصفد و نابلس وطولكرم وجنين و بيسان .

ونقسم حكومة الشرق العربي الى اربعة الوية وهي (١) نقاسيم الشرق العربي | اي شرقي الاردن | لواء عمان ويتبعه قضاء مادبا وناحية الزيزة ومركزه عمان (٢) لواء الصلت ومركزه الصلت . (٣) لواء اربد ومن عمله اقصية جبل عجلون وجرش وأم قيس ومركزه اربد ، ويتبع المركز رأساً ثلاث نواح وهي الرمتا والكورة والغور ، ومن عمله قضاء جرش ناحية الزرقاء (٤) لواء الكرك ويتألف من قضاء الكرك والطفيلة ويتبع الكرك مباشرة ثلاث نواح : المزار ، السماكية ، الغور وقد اضيفت العقبة ومعان الى الشرق العربي حديثاً .

دولة سورية } ونقسم دولة سورية الى سبعة الوية وهي لواء (١) دمشق و (٢) حوران و (٣) حمص و (٤) حماة و (٥) حلب و (٦) دير الزور و (٧) الاسكندرون . و يقسم لواء دمشق الى ستة اقسية وهي (١) قضاء دوما وفيه ناحيتان « تل منين » و « دير سلمان » (٢) قضاء جبرود وفيه ناحية القطيفة و (٣) قضاء النبك وفيه ناحية ببرد و (٤) قضاء الزبداني و (٥) وادي العجم وفيه ثلاث نواح وهي الطيبة ومركزها زاكية و « بيت جن » و « الدير علي » (٦) القنيطرة وفيه ناحية مجدل شمس .

ولواء حوران وبلحق بمركزه ناحيتا بصري وطفس و يتبعه قضاء آن ازرع والزوابة وفيه قضاء ازرع خمس نواح وهي نوى ، المسمية ، المصنمين ، اللجاء الجنوبية ، اللجاء الشمالية .

ولواء حمص ومن عمله خمس نواح وهي حسيه ، الرستن ، عين ظاظ ، القصير ، جب الجراح . و يتبع حمص قضاء واحد وهو « القريتين » وفيه ناحية تدمر و يتبع لواء حماة ثلاث نواح وقضاء واحد فيه ثلاث نواح ايضاً فنواحي اللواء طار العلا ، الحميرة بارين والقضاء سلمية وفيه ثلاث نواح ، عين كاسون ، عقيربات ، معرشحور .

لواء حلب وبلحق به عشرة اقسية (١) جرابلس ولها ناحيتان ناحية قلقوم وناحية جسرين و (٢) جبل سمعان وفيه ثلاث نواح عذبان الزريرة ، ابو الظهور و (٣) الباب وفيه ناحيتا دير صافر ، صوسنباط و (٤) المعرة ولها ناحيتان الاندريين ، خوين الكبير و (٥) اعزاز وفيه ناحية نين و (٦) منبج وفيه ناحيتان ابو قلقل ، مسكنة و (٧) كرد طاغ وله اربع نواح ناحية فاطمة ، الجوم ، راجو ، بلبل و (٨) حارم وفيها اربع نواح كفر تخاريم ، باريشا ، سلقين ، ترمانيين و (٩) جسر الشغور وفيها ناحيتان دركوش ، المضيق و (١٠) ادلب وفيها ثلاث نواح أريحا ، سرمين ، معرة مصرين وأطلق على لواء حلب اسم ولاية حلب .

ويقسم لواء دير الزور الى ستة اقسية جعلت مراكزها الآت (١) دير الزور (٢) الرقة . (٣) الميادين . (٤) البوكمال . (٥) حستجة . (٦) كرو . و يقسم قضاء دير الزور الى اربع نواح مراكزها في دير الزور وكسره ومرراط وسوار . وقضاء

الرقعة الى خمس نواح مراكزها الرقة وخربة الرز ومرايط وابو هريرة وسبخة . وقضاء
الميادين الى ناحيتين مركز احدهما ميادين والثانية عشرة . وقضاء البوكمال الى
ناحيتين مركز احدهما البوكمال والثانية الصلاحية . وقضاء حسيجة الى اربع نواح
مراكزها في شدادي وحسيجة ورأس العين وعاموده . وقضاء كرو الى ثلاث نواح
مراكزها كرو وعزنور وديرون اغا .

دولة جبل الدروز } ونقسم دولة جبل الدروز الى ثلاث عشرة ناحية وهي
عري ، القرية صرخد ، ملح ، سالة ، المجدل ، نجران
عاهرة ، وادي اللوى ، الهيت ، شهبه ، سليم ، نمرة . ومركز الدولة قرية السويداء .

دولة لبنان الكبير } يقسم لبنان الكبير الى احدى عشرة محافظة ونقسم كل
محافظة الى مديريات وهي (١) محافظة صيدا ومركزها
مدينة صيدا ومن عملها مديرية النبطية ومديرية عدلون ومديرية جزين (٢) ومحافظة
صور مركزها في مدينة صور ويتبعها مديرية تبنين ومديرية علما ومركز المحافظة
مدينة صور (٣) محافظة مرجعيون مركزها الجديدة ومن عملها مديرية حاصبيا (٤)
محافظة بيروت مركزها مدينة بيروت (٥) محافظة الشوف مركزها بعقلين ويتبعها
مديريات المخارة وشحيم وعين زحلته ورشميسا والشويفات وعاليه ومديرية دير القمر
المستقلة (٦) محافظة طرابلس ومركزها مدينة طرابلس ويتبعها مديريات حلبا وقبيات
يسير (٧) محافظة المتن ومركزها بجنس ومن توابعها مديرية بكفيا وبرمانا وبسكننا
وحمانا (٨) محافظة بعلبك ومركزها مدينة بعلبك ويتبعها مديريات طليا ودير الاحمر
والهرمل ورأس بعلبك (٩) محافظة زحلة ومركزها مدينة زحلة ويتبعها مديريات
قب الياس وسغبين وراشيا (١٠) محافظة كسروان ومركزها غادير وبنت خشبو ومن
عملها مديريات جبيل وريفون والكفور وقرطبا (١١) محافظة البترون ومركزها مدينة
البترون ومن عملها مديريات لنور بن وبشري وأميون .

} دولة العلويين
 نقسم حكومة العلويين الى لوائين (١) لواء اللاذقية
 ومركزها مدينة اللاذقية ونقسم الى خمسة أفضية وهي
 اللاذقية وجبلة وصهبون وقضاء المرقب مركز حكومته بانياس وقضاء العمراية ومركز
 حكومته مصياف (٢) لواء طرطوس ويقسم الى ثلاثة أفضية وهي طرطوس وصافيتا
 وقصبتها دريكيش والحصن وقصبتها تل كلخ . اما جزيرة ارwad فمستقلة وتعد من
 دولة العلويين .



العقود والعهود الاخيرة (١)

—••••—

صورة الرسائل الرسمية التي تبودلت بين الحكومة الفرنسية والحكومة
البريطانية لاجل تثبيت اتفاقية سايكس بيكو بواسطة السراदार غراي
و م . كامبون في ايار سنة ١٩١٦

الرسالة الاولى } من مسيو . كامبون الى السر . غراي ٩ ايار ١٩١٦
١ — تميل فرنسا وبريطانيا العظمى الى الاعتراف بدولة
عربية مستقلة او حلف من الدول العربية المستقلة في منطقتي الالف والباء كما هو مبين
في المصور (الخريطة) بامارة زعيم عربي وتقدمان لها الحماية . ويكون لفرنسا في
منطقة الالف ولبريطانيا العظمى في منطقة الباء الحق الاول في عقد القروض وفي
التزام المشاريع المحلية . وتقدم فرنسا في منطقة الالف وبريطانيا العظمى في منطقة
الباء المستشارين الفنيين والاداريين حينما ترى الدولة العربية او الحلف العربي
ضرورة ذلك .

٢ — نفوض فرنسا في المنطقة الزرقاء وبريطانيا العظمى في المنطقة الحمراء ان
تعملا فيها على ما ترغبان فيه اي ان تديرهما مباشرة او غير مباشرة بالاشتراك مع العرب
وتأسيس دولة عربية او حلف من الدول العربية .

(١) رأينا اثبات هذه الوثائق التاريخية بنصوصها وان كنا اشرفنا اليها في متن
التاريخ السياسي وذلك ليسهل الرجوع اليها .

٣ — تدار المنطقة السمراء بإدارة دولية و يترك امر البت في تعيين شكلها الى ان تتم المفاوضة مع روسيا وسائر الحلفاء ومندوبي شريف مكة

٤ — تعطى بريطانيا العظمى : (اولاً) مرفأى حيفا وعكة . (ثانياً) كمية معينة من ماء نهري دجلة والفرات تؤخذ من منطقة الالف وتعطى لمنطقة الباء . وعلى حكومة جلالة الملك مقابل ذلك ان لا تفاوض في وقت من الاوقات دولة من الدول بشأن تسليمها قبرص قبل ان توافق فرنسا على ذلك .

٥ — تكون الاسكندرونة مرفأ حراً للتجارة البريطانية ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات او اختلاف في الرسوم الجمركية ، ولا ترفض التسهيلات الخاصة التي من شأنها الاسراع بنقل البضائع البريطانية وشحنها بالبحر او بالخطوط الحديدية التي تمر بالمنطقة الزرقاء . لافرق في ان تكون هذه البضائع واردة من المنطقة الحمراء او صادرة اليها او خاصة لمنطقة الالف او الباء .

تكون حيفا مرفأ حراً للتجارة الفرنسية وتجارة مستعمراتها وتجارة البلاد المشمولة بحمايتها ، ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات او اختلاف في الرسوم الجمركية ، ويكون شحن البضائع منها واليها مباحاً بالسكة الحديدية التي تمر بالمنطقة السمراء . لافرق في ان تكون هذه البضائع واردة او صادرة من المنطقة الزرقاء او من منطقة الالف او الباء .

٦ — لا تمتد سكة حديد بغداد بمنطقة الالف جنوباً الى ما وراء الموصل ولا بمنطقة الباء شمالاً الى ما وراء سامرا قبل ان يتم انشاء السكة الحديدية بين حلب وبغداد عن طريق وادي الثرات وقبل ان يوافق الفريقان على ذلك التمديد .

٧ — يحق لبريطانيا العظمى وحدها ان ننشي وتدبر وتمتلك خطاً حديدياً يبتدي من حيفا وينتهي بمنطقة الباء ، ولها الحق ايضاً ان تنقل الجنود والمواد الحربية على هذا الخط الحديدي متى شاءت ، ومن المعلوم عند الحكومتين ان هذا الخط هو لتسهيل ارتباط بغداد بحيفا فاذا تعذر مده فنياً في المنطقة السمراء واقتضى الامر امروره بغيرها سمح فرنسا بذلك .

٨ — تبقى تعرفه المكوس العثمانية كما كانت عليه سابقاً لمدة عشرين سنة في

المنطقة الحمراء والزرقاء والالاف والباء ولا يصير فيها تغيير او تبديل الا بمعرفة الفريقين وموافقتهما .

لا توضع رسوم جمركية داخلية بين المناطق المذكورة اعلاه ، بل تحصل تلك الرسوم بحسب الاصول في المرفأ الذي ترد اليه البضائع وتسلم بعد ذلك الى الادارة الداخلية التي تخصها تلك البضائع .

٩ — من البديهي ان فرنسا لا تفاوض دولة ثالثة في وقت من الاوقات بشأن النزائل عن مالها من الحقوق في المنطقة الزرقاء ولا تتخلى عن هذه الحقوق الا الى الحكومة العربية او الحكومات العربية المتحدة قبل ان توافق حكومة جلالة الملك على ذلك . وعلى حكومة جلالته ان تعمل بموجب هذه الشروط بالمنطقة الحمراء .

١٠ — يوافق الفريقان المتعاقدان الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية الحاميتين للدولة العربية ان لا تسمحا لدولة ثالثة ان تمتلك مديناً في اراضي شبه جزيرة العرب ولا تتخذ قاعدة بحرية في الجزر الواقعة الى شرق ساحل البحر الاحمر ، وهذا لا يمنع ان تعدل الحكومة البريطانية جبهة عدن بمقتضى الاصول الفنية والاحوال الخاصة بعد ان ثبتت ضرورة ذلك على اثر التعدي التركي .

١١ — تجري المفاوضة مع العرب بخصوص تخوم الدولة العربية والدول العربية المتحدة كما في السابق باسم الدولتين

١٢ — من المعلوم ان مراقبة توريد الاسلحة الى البلاد العربية منوط بالدولتين .

من مسيو ا . كامبون الى السرا . غراي في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ قبل ان تجاوب نخامتكم على رسالتنا في تاريخ ٩ ايار سنة ١٩١٦ بخصوص تأليف دولة عربية ابدىتم رغبتكم في اضافة بعض التأكيدات للمحافظة على حقوق الملاحة والامتيازات الدينية وامتيازات المدارس والبعثات الطبية في المناطق التي ستصبح فرنسوية وفي المناطق التي ستسود فيها الادارة الفرنسية ، فغب الموافقة عليها من قبل فرنسا على حكومة جلالة الملك ان توافق ايضاً على نفس الشروط في المناطق الداخلة في دائرتها .

الرسالة الثانية

ولي الشرف ان اعلم نخامتكم ان الحكومة الفرنسية . مستعدة ان تصادق على جميع الامتيازات البريطانية التي كانت تتمتع بها قبل الحرب في المناطق التي ستعطى لها (اي لفرنسا) او المناطق التي ستشمل بعنايتها ، اما الامتيازات الدينية والمدرسية والطبية والفنية فستبقى كما في الماضي ، ومن المعلوم ان هذه الامتيازات لا تعني بقاء الامتيازات الاجنبية والامتيازات القضائية .

من السر ٠ ا غراي الى المسيو ٠ ا كامبون في ١٦ ايار
 سنة ١٩١٦ يوافق على نص المعاهدة كما جاءت في كتاب
 المسيو ٠ ا كامبون في تاريخ ٩ ايار سنة ١٩١٦

نسخة مختصرة

عن دستور فلسطين الرسمي

ينص هذا النظام على تعيين رجل صالح لادارة حكومة فلسطين يعرف بالمندوب السامي والقائد العام ، ويخوله السلطة اللازمة لتنفيذ جميع الواجبات المتقرنة بوظيفته ، وتطبيق شروط الانتداب الذي منحه دول الحلفاء السامية الى بريطانيا العظمى ، وتأسيس وطن قومي لليهود .

ومنح المندوب السامي السلطة لتقسيم البلاد بموافقة الوزير الى مقاطعات او اجزاء ادارية على اسلوب ملائم لاعمال الادارة ، وخول جميع الحقوق للتصرف بالاراضي العامة او بما له علاقة فيها ، وبجميع الحقوق لاستثمار المناجم والمعادن على اختلاف انواعها واعطاء امتيازات شرعية لاي كان لاستخراجها ، وله الحق ان يهب الاراضي العامة والمعادن والمناجم ، ويؤجرها او يسمح باستثمارها مؤقتاً بالشروط التي يرتئها ، وله الحق في تعيين موظفي الحكومة بعد مراعاة اوامر الوزير بالاحوال التي يراها مناسبة ، وان يعين واجباتهم ويبقى هؤلاء الموظفون في مراكزهم ما دام المندوب السامي راضياً عن اعمالهم .

ويؤلف مجلس تنفيذي لمساعدة المندوب السامي على الطريقة التي تشير بها حكومة جلالة الملك .

ويؤلف اعتباراً من التاريخ الذي يعينه المندوب السامي مجلساً تشريعياً لفلسطين يستعاض به عن المجلس الاستشاري ويكون له السلطة التامة لسن القوانين الضرورية للحفاظ على الامن والسلام ، وانتظام الحكومة بشرط ان لا يخالف التعليمات المعطاة من حكومة جلالة الملك ، وان لا يسن قانوناً يمس الحرية الشخصية او يقيّد الحرية الدينية او يميز بين سكان فلسطين بسبب الجنسية او الديانة او اللغة او يخالف نظام الانتداب الموضوع لفلسطين .

لائتخذ القوانين التي يسنها هذا المجلس قبل ان يصادق عليها المندوب السامي ونقرها حكومة جلالة الملك .

يحتفظ المندوب السامي بالقوانين التي اجازها المجلس التشريعي لموافقة جلالاته عليها
 و يحتفظ ايضاً بالامور التي لها مساس بنظام الانتداب .
 و يحتفظ جلالة الملك لنفسه بحق رفض اي قانون قديكون المندوب السامي وافق
 عليه في خلال سنة واحدة من تاريخ الموافقة عليه و يعلن رفضه اياه بواسطة كاتب السر العام .
 يؤلف المجلس التشريعي من ٢٢ عضواً عدا المندوب السامي منهم عشرة اعضاء
 من الموظفين واثنان عشر من غير الموظفين ، و ينتخب الغير موظفين بموجب الاوامر التي
 تصدر من مجلس الملك الخاص ، او بموجب ما يوضع من القوانين والانظمة من حين الى
 آخر بشأن هذه الانتخابات ، و يكون الاعضاء الموظفون الاشخاص الذين يشغلون
 وظائف كاتب السر العام والنائب العام ومدير المالية ومفتش الشرطة والسجون ومدير
 الصحة ومدير الاشغال العامة ومدير المعارف ومدير الزراعة ومدير الكمارك ومدير
 التجارة والصناعة .



المحاكم الملكية والشرعية

تؤلف محاكم صلح في كل قضاء وناحية و يكون لها السلطة الخاصة بقانون حكام
 الصلح العثماني كما هو معدّل بموجب القوانين والانظمة السارية الفعل الآن .
 وتؤلف محاكم مركزية في الافضية التي يعينها المندوب السامي ولها الحق في رؤية
 جميع القضايا الحقوقية الخارجة عن اختصاص محاكم الصلح في ذلك القضاء والحق في رؤية
 جميع القضايا الجنائية الخارجة عن وظيفة محكمة الجنايات .
 وتؤلف محكمة جنايات لها السلطة التامة في رؤية الجرائم المعاقب عليها بالقتل والجرائم
 الاخرى التي ينص عليها القانون الخاص .
 وللمندوب السامي ان يؤلف بامر منه محاكم اراض كما دعت الحاجة الى ذلك
 للنظر في المسائل المتعلقة بملكية الاموال الغير المنقولة .
 وتؤسس محكمة تعرف بالمحكمة العليا وتعين صورة تأليفها بقانون خاص و يكون لها
 صفة المحاكم الاستئنافية .
 وللمحاكم الشرعية الاسلامية وحدها الحق في رؤية الدعاوي المتعلقة في الاحوال

الشخصية الخاصة بالمسلمين كالزواج والطلاق والنفقة وتصديق الوصاية الخ . ولحاكم الطائفة اليهودية الدينية وحدها ان ننظر في استماع الدعاوي المتعلقة بالاحوال الشخصية ولحاكم الطوائف المسيحية المختلفة وحدها ان ترى مسائل الزواج والطلاق والنفقة وتصديق الوصاية وننظر فيما يتعلق بالاوقاف الخ .

اذا شملت قضية تتعلق بالاحوال الشخصية اشخاصاً من طوائف دينية مختلفة يجوز لاي خصم ان يتقدم طالباً الى قاضي القضاة وهذا يعين بمساعدة مستشارين من الطوائف المختلفة المحكمة التي لها السلطة في استماع تلك القضية .
واذا قامت شبهة حول قضية من القضايا الشخصية الداخلة في اختصاص محكمة دينية تحال القضية الى محكمة خاصة يعين شكاها بقانون خاص .

—••••—

بعض مواد عامة

يجب ان ننشر باللغة الانكليزية و بالعربية و بالعبرية جميع القوانين والاعلانات الرسمية والناذج التي تصدرها الحكومة وجميع الاعلانات الرسمية التي تعلنها السلطات المحلية والبلديات في المناطق التي يعينها المندوب السامي بامر منه . ويجوز استعمال اللغات الثلاث في المباحثات والمناقشات التي تدور في المجلس التشريعي وفي دوائر الحكومة ومحاكمها مع مراعاة الانظمة التي تسن من وقت الى آخر .

يحق لجميع سكان فلسطين ان يتمتعوا بالحرية الشخصية التامة والحرية الدينية المطلقة مع مراعاة حفظ النظام العام والآداب العامة ويحق لكل طائفة دينية معترف بها من الحكومة ان تتمتع بالاستقلال الذاتي لادارة شؤونها الداخلية بعد مراعاة نصوص كل قانون وامر يصدره المندوب السامي .

اذا رأيت طائفة دينية او فريق كبير من اهالي فلسطين ان شروط الانتخاب لا تنفذها حكومة فلسطين كما يجب ، فلها الحق في رفع مذكرة بواسطة عضو في المجلس التشريعي الى المندوب السامي فينظر في هذه المذكرة على الطريقة التي يعينها جلالة الملك وفقاً لاصول التي وضعها مجلس عصبة الامم .

—••••—

المعاهدة البريطانية الفرنسية

المنعقدة في ٢٣ كانون الاول سنة (١٩٢٠) التي تبحث في بعض الشؤون المهمة مما له علاقة بالانتداب على سورية ولبنان وفلسطين والعراق انابت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية الوزيرين المفوضين الواضعين اسميهما ادناه ليجلا جميع الامور التي لها علاقة بالانتداب الذي منج لبريطانيا العظمى على فلسطين والعراق وفرنسا على سورية ولبنان في المجلس الاعلى الذي اجتمع في سان ريمو وقد اتفقتا على الشروط الآتية :

أ — تعيينت حدود المناطق التي شملها الانتداب الافرنسي اي سورية ولبنان وحدود المناطق التي شملها الانتداب البريطاني اي فلسطين والعراق كما يلي :

من الشرق نهر الفرات وجزيرة ابن عمر الى حدود ولايتي ديار بكر والموصل القديمة ومن الجنوب الشرقي حدود هاتين الولايتين القديمة الى غاية رومالين كوي ومن هنا خط يمتد من المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسي فيترك فيها جميع الاراضي الواقعة في حوض نهر الخابور الغربي ويمر باستقامة نحو الفرات فيجنازه بألبوكمال ويمتد باستقامة الى امتار فجنوب جبل الدروز ومن هنا يمتد الى جنوب نصيب الواقعة على خط حديد الحجاز فسمخ الواقعة على بحيرة طبرية سائراً الى جنوب خط السكة الحديدية وموازيًا له . وتبقى درعا وما حولها في المنطقة التي يشملها الانتداب الافرنسي وبقى ذلك الخط في وادي اليرموك ضمن المنطقة الافرنسية ويسير بصورة ملاصقة وموازية لخط السكة الحديدية كي يصبح في الامكان ان يمتد في وادي اليرموك سكة حديدية واقعة في الاراضي المستعملة بالانتداب البريطاني وستوضع التخوم في سمخ بصورة يمكن معها للفرقةين المتعاقدين الساميين ان يبينوا مرفأ ومحطة للسكة الحديدية ليهتمكنا من استعمال بحيرة طبرية بحرية ومن الغرب يسير الخط من سمخ ماراً داخل بحيرة طبرية فاوّل وادي المسعدية حيث يسير مع مجرى هذا النهر في وادي جرابا ، الى نبعه ومن هنا يتصل بطريق القنيطرة وبانياس بالمكان المعروف بالسكيك فيسير مع الطريق التي تبقى في المنطقة الافرنسية لغاية بانياس ومن هنا يسير نحو الغرب حتي يصل الى المطلة وتبقى المطلة في المنطقة البريطانية ، وسيوضع لهذا الجزء من الحدود تفصيلات دقيقة

يمكن معها تسهيل المواصلات بين جميع اطراف البلاد المشمولة بالانتداب الافرنسي كصور وصيدا والمناطق الواقعة الى الغرب والى الشرق من بانياس .

ونفصل التخوم بالمطلة بفرق المياه في وادي الاردن وحوض نهر الليطاني وتسير جنوباً مع وادي الاردن فوادي فرعم ووادي كركرة اللذين بهقيان في المنطقة البريطانية فوادي اليلالونه ووادي العيون والزرقاء التي تبقى في المنطقة الافرنسية ويصل الحد الى شاطئ البحر المتوسط في ميناء رأس الناقورة التي تظل في المنطقة الافرنسية .

٢- — تؤلف بعد التوقيع على هذه المعاهدة بثلاثة اشهر بعثة لتدرس الحدود بين المناطق المشمولة بالانتداب الافرنسي والمناطق المشمولة بالانتداب البريطاني التي بينها في المادة الاولى وتؤلف هذه البعثة من اربعة اعضاء تعين الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية اثنين منهم وتعين الاثنين الآخرين الحكومة المحمية المشمولة بالانتداب الفرنسي والحكومة المحمية المشمولة بالانتداب البريطاني بعد مشورة الحكومتين المنتدبتين .

اذا وقع خلاف بين اعضاء هذه البعثة يعرض على مجلس جمعية الامم ويكون قرارها فيه قطعياً .

نقدم بنقارير البعثة النهائية الحدود الثابتة التي عينت اخيراً وتربط معها المصورات الضرورية الموقع عليها من قبل اعضاء البعثة ، ويعمل ثلاث نسخ من هذه التقارير والمصورات تحفظ النسخة الواحدة بين سجلات مجلس جمعية الامم وتحفظ النسختين الاخر بين الحكومتان المنتدبتان .

٣- — توافق الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية على ترشيح لجنة خاصة مهمتها درس الخطط التمهيدية التي تعينها الحكومة الافرنسية المنتدبة لاجل مصلحة الري في البلاد المشمولة بانتدابها لثلا يقلل ابرازها لحيز الفعل مياه دجلة والفرات في الموضع الذي يدخلان به المنطقة العراقية المشمولة بالانتداب البريطاني .

٤- — توافق الحكومة البريطانية بالنظر الى مكانة جزيرة قبرص من الوجهة الجغرافية والعسكرية بالنسبة الى خليج الاسكندرونة على ان لا تفاوض احداً بخصوص النازل عنها او تسليمه اياها قبلما توافق فرنسا على ذلك .

٥- ا : توافق الحكومة الافرنسية على وضع ترتيب حرّ بين كيفية استعمال خط السكة الحديدية الواقع بين طبرية ونصيب استعمالاً مشتركاً .

تضمن سير هذا الترتيب وانتظامه ادارتا السكة الحديدية المؤلفتان في منطقتي الانتداب البريطاني والفرنسوي باسرع ما يمكن اي بعد تنفيذ الانتداب على سورية وفلسطين وتسمح هذه الاتفاقية بصورة خاصة لادارة السكة الحديدية البريطانية ان تسير قطاراتها ذهاباً واياباً بين هاتين المنطقتين وفقاً لمصالحها ، ونقبل البضائع التجارية الى المنطقة المشمولة بالانتداب الافرنسي بواسطتها ، وتعين هذه الاتفاقية الشروط المالية والادارية والفنية اللازمة لسير القطارات البريطانية ، اما اذا لم يتم الاتفاق خلال ثلاثة اشهر من تنفيذ الانتداب بين الادارتين المذكورتين اعلاه فستعين جمعية الامم حكماً بفصل الخلاف وعندئذ لنفذ شروط هذه الاتفاقية التي حازت رضى الطرفين .
ب : يمكن للحكومة البريطانية ان تمتد خطاً من الانابيب الحديدية بجانب السكة الحديدية ولها الحق في نقل جنودها على هذه السكة الحديدية دائماً .

ت : توافق الحكومة الافرنسية على تعيين بعثة خاصة تدرس الاراضي ، وبعد درسها اياها تعين الحدود في وادي اليرموك حتى نصيب بطريقة فنية يمكن معها بناء الخط الحديدي البريطاني وخط الانابيب التي توصل بين فلسطين وبين سكة الحجاز ووادي الفرات في المنطقة المشمولة بالانتداب البريطاني ، وتبقى السكة الحديدية الحالية المارة بوادي اليرموك داخل الاراضي المشمولة بالانتداب الفرنسي ، ويجب على بريطانيا العظمى احقاق حقها هذا ببرهة لا تتجاوز عشر سنوات .

تتألف البعثة التي ذكرناها اعلاه من عضو بريطاني وعضو افرنسي يضاف اليهما نواب عن الحكومات المحلية بصفة مستشارين فنيين هذا ان رأت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية لزوماً لذلك .

ج : اذا اقتضى الامر لاسباب فنية ان يمر خط السكة الحديدية البريطانية ببعض الاماكن المشمولة بالانتداب الفرنسي توافق الحكومة الفرنسية على مرور هذا الخط بتلك المناطق وتقدم للحكومة البريطانية او لعمالها المساعدات اللازمة .

د : اذا شاءت الحكومة البريطانية العمل بموجب الحق الممنوح لها بالفقرة الثالثة من هذه المادة ان تمد سكة حديدية في وادي اليرموك تنفيذ الحكومة الفرنسية الشروط التي اشترطتها على نفسها بالفقرة الاولى والثانية من هذه المادة غب مرور ثلاثة اشهر من انشاء السكة .

هـ : توافق الحكومة الفرنسية على اتخاذ التدابير الفعالة لحل الحكومات المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسي ان تصادق على هذه الحقوق الممنوحة للحكومة البريطانية .
٦ — تم الاتفاق على هذه الشروط التي تسهل اعمال الحكومة البريطانية مقابل عقد الاتفاقية الفرنسية البريطانية بخصوص الزيت في سان ريمو .

٧ — لاتضع الحكومة البريطانية ولا الحكومة الفرنسية موانع في منطقتي انتدابها لجميع الموظفين اللازمين لادارة خط السكة الحجازية او لاستخدامهم .
تفتح جميع التسهيلات الضرورية لمرور جميع المستخدمين في الخط الحديدي الحجازي بمنطقة الانتداب البريطاني والافرنسي لثلاث اواخر اعمال هذا الخط .

توافق الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية عند اللزوم على ان تعقدا اتفاقية مع الحكومات المحلية خلاصتها استثناء جميع مهمات هذا الخط ومعداته من الرسوم الجمركية عندما تمر باحدى مناطق الانتداب .

٨ — يعين خبراء واختصاصيون من قبل حكومة سورية وفلسطين غب مرور ستة اشهر من امضاء هذه المعاهدة مهمتهم فحص احوال مياه نهر الاردن الاعلى ونهر اليرموك وتوابعها لاستخدامها لاجل الري ولجل توليد الكهرباء وتعيين المقدار اللازم للاراضي الواقعة تحت الانتداب الافرنسي .

تزود الحكومة الافرنسية بالاختصاصيين الذين تعينهم لدرس هذا المشروع بالتعليمات اللازمة لمنح فلسطين المياه الزائدة خدمة لمنافعها العامة اذا لم يحصل الاتفاق المطلوب بنهاية هذا الدرس وتعرض المسألة على الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية لتدرسها وتقرر فيها قراراً نهائياً .

تشارك ادارة فلسطين بقدر انتفاعها من هذه الاعمال في دفع نفقات بناء الترع والخلجان والسدود والخزانات والاحواض والاقنية وخطوط الانابيب الحديدية الخ

وتشارك في جميع الاعمال التي من شأنها انبات الحراج وتنشيط تربيتها .

٩ — توافق الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية عملاً بنص المادة ٥ والمادة ١٦ من نظام الانتداب الفلسطيني وعملاً بنص المادة الثامنة والمادة العاشرة من نظام الانتداب العراقي وعملاً بنص المادة الثامنة من نظام الانتداب اللبناني السوري وعملاً ايضاً بموجب الحق العام المعطى من قبل الحكومات الوطنية للمدارس المحلية بخصوص التربية والتعليم على السماح للمدارس التي تخص اناساً من التبعة الفرنسية او من التبعة البريطانية على المشاركة في ادارة هذه المدارس في منطقتي انتدابهما ، ويسمح بتعليم اللغة الافرنسية واللغة الانكليزية في هذه المدارس .

لا تعني هذه المادة بحال من الاحوال منج رعايا احدى الدولتين المشار اليهما حق فتح مدارس جديدة في الوقت الحاضر في منطقة انتداب الدولة الاخرى .

صك الانتداب الافرنسي

« على سورية ولبنان »

ان مجلس جمعية الامم :

لما كانت دول الحلفاء العظمى متفقة على ان اراضي سورية ولبنان التي كانت فيما مضى جزءاً من السلطنة العثمانية يعهد بها ضمن حدود تعيينها الدول المشار اليها الى دولة مندوبة . وكول اليها نصح الاهالي ومعاونتهم وارشادهم في ادارتهم وفقاً لنص الفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من عهد عصبة الأمم .

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد قررت ان الانتداب على البلاد الآتية الذكر يعطى لحكومة الجمهورية الفرنسية التي قبلته .

ولما كان نص هذا الانتداب المبين في المواد المذكورة فيما بعد قد وافقت عليه حكومة الجمهورية الفرنسية وعرض للتصديق على مجلس جمعية الأمم .

ولما كانت حكومة الجمهورية الفرنسية تتعهد باجراء هذا الانتداب باسم عصبة الأمم طبقاً للمواد المذكورة .

ولما كانت نصوص المادة الثانية والعشرين الآتية الذكر (الفقرة الثامنة) نقضي بانه اذا كانت درجة السلطة والمراقبة والادارة التي تجريها الدولة المندوبة لم يتفق عليها سابقاً بين اعضاء جمعية الامم فالمجلس هو الذي ينظم ذلك .

يوضع نصوص الانتداب كما يلي موافقاً عليه :

أ --- تضع الحكومة المندوبة في برهة ثلاث سنوات اعتباراً من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب دستوراً نظامياً لسوريه ولبنان .

يصاغ هذا الدستور بالاتفاق مع السلطات الوطنية وتراعى فيه حقوق عموم السكان القاطنة في هذه البلاد ومصالحهم . وستشرع الحكومة المندوبة في ايجاد الوسائل التي من شأنها ان تسهل تقدم سورية ولبنان وريقيها حكومتين مستقلتين وتسيرهما بموجب روح هذا الصك الى ان يتم الشروع في تنفيذ ذاك الدستور .

ويجب على الدولة المندوبة ان تنشط الاستقلال المحلي قدر ما تسمح به الاحوال .

٢- يمكن للحكومة المنتدبة ان تبقي جنودها في البلاد للدفاع عنها . وقد خُوات حق تنظيم جند من المليس المحلي قصد المحافظة على الامن والدفاع عن البلاد كالتنظيمه الاحوال وذلك حين تنفيذ الدستور واعادة الامن الى انصابه ، ونظم جنود المليس المحلي من سكان البلاد فقط .

ترتبط هذه الجنود فيما بعد بالادارات المحلية تحت اشراف الدولة المنتدبة ولا يجوز استخدامها لاغراض أخرى سوى الاغراض المعينة فيما تقدم الابدع موافقة الدولة المنتدبة .
لامانع يمنع سورية ولبنان من الاشتراك في نفقات القوات التي تضعها الدولة المنتدبة في البلاد .

يحق للدولة المنتدبة في كل حين ان تستعمل المواني والخطوط الحديدية ووسائل النقل الموجودة في سورية ولبنان لسوق جنودها ونقل جميع المواد والمهمات والوقود اللازمة لها .

٣- يعهد الى الدولة المنتدبة بالسيطرة على جميع علاقات سورية ولبنان الخارجية ولها حق اصدار البراءات الى القناصل الذين يعينون من قبل الدول الاجنبية ، وتشمل الدول المنتدبة بمجايتها السياسية والقنصلية الرعايا السوريين واللبنانيين الذين يعيشون خارج هذه البلاد .

٤- الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن اي جزء من اجزاء سورية ولبنان وعن عدم تأجيرها او وضعه تحت تسلط دولة اجنبية .

٥- ان اعفاء الاجانب من الامور الواجبة وتمتعهم بالامتيازات الاجنبية وبقضاء القنصلات والحماية التي كانوا يتمتعون بها ايام الدولة العثمانية لا تطبق في سورية ولبنان غير ان المحاكم الاجنبية تداوم على القيام بوظيفتها الى ان يتم تنفيذ النظام الجديد المنصوص عنه بالمادة السادسة .

ان الدول التي كان اتباعها يتمتعون بالامتيازات الاجنبية المبينة اعلاه اول آب سنة ١٩١٤ والتي لم تنازل عن هذه الامتيازات او توافق على عدم تطبيقها لاجل محدود ، ستمنح ثانية جميع هذه الامتيازات او بعضها بعد انقضاء امدد الاندباب بالصورة التي يتم عليها الاتفاق بين الدول ذات الشأن .

٦ — تضع الحكومة المنتدبة في سورية ولبنان نظاماً قضائياً يصوت حقوق الوطنيين والاجانب على السواء .

يحافظ على احوال الناس الشخصية وعلى مصالحهم الدينية وخصوصاً ادارة الاوقاف التي تدار وفقاً للشريعة ولارادة الواقف .

٧ — تكون معاهدات تسليم الرعايا الاجانب المبرمة بين الدولة المنتدبة وبين سائر الدول الاجنبية مرعية في سورية ولبنان الى ان يتم عقد اتفاقات خاصة بهذا الشأن .

٨ — تضمن الدولة المنتدبة للجميع حرية الضمير وحرية القيام بجميع شعائر العبادة التي لا تخل بالامن ولا بالآداب العامة ولا يكون تمييز من اي نوع بين سكان سورية ولبنان بسبب الجنس او الدين او اللغة .

تنشط الحكومة المنتدبة التعليم العام و يكون هذا التعليم بلغة البلاد المحلية . لا تحرم جميع الطوائف حق المحافظة على مدارسها وتعليم ابنائها بلغتها متى كان ذلك مطابقاً لقانون التعليم العام الذي تعينه الحكومة .

٩ — تتجنب الحكومة المنتدبة التدخل في اعمال المجالس الادارية وفي ادارة الطوائف الدينية وفي ادارة المعابد المقدسة التي تخص احدى الطوائف وقد تكفلت بالمحافظة على هذه المعابد .

١٠ — تحدد سلطة الدولة المنتدبة في مراقبة البعثات الدينية في سورية ولبنان لاجل محافظتهم على الامن وعلى الحكم بطريقة مرضية . ولا تحصر الدولة المنتدبة مساعي هذه البعثات بصورة من الصور ولا تقيّد اعضاءها بقيود بسبب قوميتهم ما لم تخرج اعمالهم عن اصول الدين .

يمكن لهذه البعثات الدينية ان تشغل بامور الاسعاف والتعليم تحت مراقبة الدولة المنتدبة او الحكومة المحلية .

١١ — يجب على الحكومة المنتدبة ان لا تميز بالمعاملة في سورية ولبنان بين اتباعها وبين اتباع غيرها من الدول الداخلة في عضوية جمعية الامم ، وتشمل هذه المعاملة الجمعيات والشركات الاجنبية على اختلافها ، وان لا تميز ايضاً بين اتباع اي دولة اجنبية وبين اتباعها في الامور التي لها اساس بالضرائب والتجارة والملاحة ونعاطي الحرف

والمهنة او في معاملة السفن البحرية او الوسائط الهوائية وكذلك يجب ان لا يكون تمهيز في سورية ولبنان بين البضائع التي يكون مصدرها او محط رحالها بلاد تلك الدول المذكورة ويجب اطلاق حرية المرور التجارية في عبر المنطقة المشار اليها بشروط عادلة .

يمكن للحكومة المنتدبة بعد مراعاة ما ذكر اعلاه ان تفرض الضرائب والرسوم الجمركية التي تراها ضرورية او ان توغر للحكومات المحلية ان تفرضها ، ويمكن للدولة المنتدبة او للدول المحلية التابعة لمشورتها ان تعقد لاسباب جواربة اتفاقاً جمركياً خاصاً مع البلاد المتاخمة لها .

ويمكن للحكومة المنتدبة عملاً بشروط البند الاول من هذه المادة ان تتخذ الوسائل الفعالة التي تمتد صلاحها لترقية موارد البلاد الطبيعية مع المحافظة على مصالح السكان .

تمنح الامتيازات لترقية هذه الموارد الطبيعية لمن شاء دون تمهيز في تابعة الاشخاص الداخلة دولهم في عداد اعضاء جمعية الامم بشرط ان لا تمس هذه الامتيازات بسلطة الحكومة المحلية ، ولا تمنح الامتيازات بصفة احتكار عام . لا تمس هذه الفقرة بتحديد سلطة الدولة المنتدبة في ايجاد الاحتكارات المالية التي من شأنها ان ترقى مصالح سورية ولبنان وتحفظ موارد هما المالية والمحلية ، ويمكن للحكومة ان تسعى لترقية هذه الموارد الطبيعية مباشرة او بواسطة شركة خاصة تعمل تحت اشرافها بشرط ان لا يوجد هذا العمل لاعتماداً ولا بواسطة احتكاراً خاصاً بالدولة المنتدبة او برعاياها ، او يمنحها ميزة في الامور الاقتصادية والتجارية والصناعية التي تقرر فيها المساواة بين الجميع

١٢ — تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن سورية ولبنان على كل اتفاق دولي عام عقد حتى الآن او ربما يعقد فيما بعد بموافقة جمعية الامم بخصوص الاتجار بالرقيق ، والعقاقير ، والسلاح ، والمعدات الحربية ، وبالمساواة التجارية ، وحرية العبور ، والملاحة ، والطيران ، والمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية ، وبتخاذ الوسائط اللازمة لحماية الصنائع والآداب والفنون .

١٣ — تصون الدولة المنتدبة بقدر ما تسمح لها الاحوال الاجتماعية والدينية اتحاد

سورية ولبنان في الامور ذات الفوائد العامة التي تقرها جمعية الامم لمنع الامراض ومقاومتها وفي جملتها امراض الحيوان والنبات .

١٤ — تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الاولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالاثار والعاديات ينطبق على الاحكام الآتية ويكون هذا القانون ضامناً لرعايا كل الدول الداخلة في جمعية الامم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والنقيبات الاثرية . (١) يجب ان يفهم من لفظة «العاديات» كل مانتج عن عمل البشر او وضعهم قبل سنة ١٧٠٠ (٢) ان التشريع لحماية العاديات يجب ان يكون اجدر بالتشجيع منه بالتهديد ويجب على كل شخص يكتشف اثرآ بدون حصول على الاذن المذكور في الفقرة الخامسة ان يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه وينال مكافأة مناسبة مع قيمة ما اكتشفه (٣) لا يمكن نقل ملكية شيء من العاديات الا لمصلحة السلطة ذات الشأن مالم تعدل هذه السلطة عن استنواذه . ولا يمكن اخراج شيء من العاديات من البلاد الا باذن تلك السلطة (٤) كل شخص يتلف أو يثلم قطعة من العاديات تعمداً أو اهمالاً يجب أن يجازى جزاء معيناً . (٥) ممنوع كل حفر أو تنقيب لايجاد العاديات الا بأذن من السلطة ذات الشأن والاغرم المخالف غرامة مالية . (٦) توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية مؤقتاً او دائماً في الاراضي التي تحتوي فائدة تاريخية أو أثرية . (٧) لا تعطى الرخصة باجراء الحفريات الا لأشخاص يتدومون ادلة كافية على اختبارهم الاثري . وعلى الدولة المنتدبة عند اعطاء هذه الرخص ان لا تستثني علماء أمة ما . (٨) يمكن اقتسام محصول التنقيب بين الاشخاص الذين أجروه والسلطة ذات الشأن بالنسبة التي تعينها هي . فاذا تعذر الاقتسام لاسباب علمية يعطى للمكتشف تعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل .

١٥ — عندما يتم تنفيذ الدستور المنصوص عنه في المادة الاولى يوضع ترتيب بين الحكومة المنتدبة والحكومات المحلية تدفع بموجبه هذه الحكومات جميع النفقات التي انفقتها الحكومة المنتدبة لاجل تنظيم الادارة وترقية الموارد المحلية والقيام بالمشاريع العامة التي افادت البلاد افادة خاصة وترسل نسخة عن هذه الترايب الى مجلس جمعية الامم .

- ١٦ — تكون اللغة الافرنسية واللغة العربية اللغتين الرسميتين المستعملتين في سورية ولبنان .
- ١٧ — تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الامم تقريراً سنوياً حسب طلبه تبين فيه التدابير التي اتخذتها اثناء السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب و يرسل مع هذا التقرير نسخ عن جميع القوانين والانظمة التي تسن سنوياً .
- ١٨ — يجب ان يوافق مجلس جمعية الامم على كل تعديل يحصل في شروط هذا الصك .
- ١٩ — يستعمل مجلس جمعية الامم نفوذه عندما تنتهي مدة الانتداب للحفاظ حكومة سورية ولبنان في المستقبل على علاقاتها المالية ومنها الرواتب القانونية التي منحتها ادارة سورية ولبنان ايام الانتداب .
- ٢٠ — توافق الدولة المنتدبة اذا حصل نزاع بينها وبين دولة ثانية داخلية في عضوية جمعية الامم بخصوص تفسير شروط صك الانتداب او تطبيقها على عرض هذا النزاع على محكمة العدل الدولي الدائمة المنصوص عنها في المادة الرابعة عشرة من مواد عهد جمعية الامم هذا اذا لم يمكن حل النزاع بين الدولتين بواسطة المفاوضات .



صك الانتداب

« على فلسطين »

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد اتفقت — تنفيذاً لنصوص المادة ٢٢ من عهد جمعية الامم — على ان تعهد الى دولة مندوبة تخارها الدول المذكورة في ادارة شؤون فلسطين التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية ضمن الحدود التي تعينها الدول المذكورة .

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد وافقت ايضاً على ان تكون الدولة المندوبة مسؤولة عن تنفيذ التصريح الذي صرحت به حكومة جلاله ملك بريطانيا في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ وصادقت عليه الدول المذكورة بان ينشأ في فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي مع اليان الجلي بان لا يفعل شيء يضر الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن ولا الحقوق والمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى .

ولما كان ذلك اعترافاً بالصلة التاريخية التي تصل الشعب اليهودي بفلسطين والبواعث التي تبعث على اعادة انشاء وطنهم القومي في تلك البلاد .
ولما كانت دول الحلفاء اختارت الحكومة البريطانية لتكون الدولة المندوبة لفلسطين .
ولما كان الانتداب لفلسطين قد صيغ في النصوص التالية وعرض على مجلس جمعية الامم لموافقة عليه .

ولما كانت الحكومة البريطانية قد قبلت الانتداب لفلسطين وتعهدت بتنفيذه بالنيابة عن جمعية الامم طبقاً للنصوص والشروط التالية .

ولما كانت المادة ٢٢ المتقدمة الذكر (في الفقرة ٨) تنص على ان درجة السلطة والسيطرة او الادارة التي تكون للدولة المندوبة اذا لم يتم الاتفاق عليها بين اعضاء جمعية الامم فان مجلس جمعية الامم ينص على ذلك نصاً صريحاً . فالمجلس بعد تأييد الانتداب المذكور يحدد شروطه ونصوصه بما يأتي :

١ — يكون للدولة المنتدبة السلطة التامة في التشريع والادارة الاحيى اقيمت لها حدود في نصوص صك الائتداب هذا .

٢ — تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي كما جاء في ديباجة هذا الصك وترقية أنظمة الحكم الذاتي وضمن الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الاجناس والاديان .

٣ — يجب على الدولة المنتدبة ان تنشط الاستقلال المحلي على قدر ما تسمح به الاحوال
٤ — يعترف « بهيئة » يهودية صالحة (لائقة) كهيئة عمومية لتشير وتعاون في ادارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين وتساعد وتشارك في ترقية البلاد تحت سيطرة حكومتها دائماً .

و يعترف بان الجمعية الصهيونية هي هذه الهيئة المنصوص عليها في مانقدم مادامت الدولة المنتدبة ترى ان نظامها وتأليفها يجملائها صالحة ولاتقة لهذا الغرض . وعلى الجمعية الصهيونية ان تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة الحكومة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يرغبون المساعدة في انشاء الوطن القومي اليهودي .
٥ — تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن شي من اراضي فلسطين أو تأجيرها او وضعه تحت حكومة دولة اجنبية .

٦ — على حكومة فلسطين مع كفالة عدم الحاق الضرر بحقوق جميع طوائف الاهالي ان تسهل هجرة اليهود (الى فلسطين) في احوال مناسبة وتنشط بالاتفاق مع الهيئة اليهودية المشار اليها في المادة ٤ استقرار اليهود في الاراضي الزراعية وفي جملتها الاراضي المدورة والاراضي البور (الموات) غير المطلوبة للاعمال العمومية .
٧ — يتعين على حكومة فلسطين ان تسن قانوناً للجنسية يتضمن نصوصاً بتسهيل

حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم على الرعية الفلسطينية
٨ — ان امتيازات الاجانب وفي جملتها المحاكم القنصلية وحماية القنصليات ورعاياها وهي التي كان الاجانب يتمتعون بها بحكم الامتيازات او العرف في السلطنة العثمانية

لا تكون نافذة في فلسطين ولكن متى انتهى اجل الاندباب فان هذه الامتيازات تعاد برمتها او مع التعديل الذي يكون قد تم عليه الاتفاق بين الدول صاحبة الشأن الا اذا كانت الدول التي ظل رعاياها يتمتعون بالامتيازات المذكورة في اول آب ١٩١٤ قد سبقت فننازلت عن حق رد تلك الامتيازات او وافقت على عدم تطبيقها لاجل مسمى .
٩- الدولة المنتدبة مسؤولة عن ان يكفل النظام القضائي الذي ينشأ في فلسطين الحقوق القضائية للاجانب والوطنيين ويضمن تمام الضمان احترام الاحوال الشخصية والمصالح الدينية لجميع الشعوب والطوائف ولا سيما ادارة الاوقاف طبقاً للشريعة الدينية وشروط الواقفين .

١٠- تكون المعاهدة المبرمة بين الدولة المنتدبة وسائر الدول الاجنبية عن تسليم الرعايا الاجانب المطلوبين من فلسطين مرعية الى ان تعقد اتفاقات خاصة بذلك على فلسطين .

١١- تتخذ حكومة فلسطين جميع التدابير اللازمة لصون مصالح الجمهور في ماله علاقة بترقية البلاد ويكون لها السلطة التامة لتدبير ما يلزم لوضع يد الحكومة او سيطرتها على مورد ما من موارد البلاد الطبيعية او الاعمال والمصالح والمنافع العمومية الموجودة او التي ستوجد فيما بعد فيها بشرط مراعاة العهود الدولية التي قبلتها الدولة المنتدبة على نفسها . وعليها ايضاً ان توجد نظاماً للاراضي بلائم حاجات البلاد مع مراعاة امور أخرى منها المنافع التي تنجم عن تشجيع اكثار المهاجرة واستغلال اعظم ما يستطاع من الارض .

ويجوز لادارة البلاد ان تنفق مع الهيئة اليهودية المذكورة في المادة الرابعة على ان تجري او تستثمر بشروط الانصاف والعدل الاعمال والمصالح والمنافع العمومية وترقي مرافق البلاد الطبيعية حيث لا تتولى الحكومة هذه الامور مباشرة بنفسها . وانما يشترط في هذه الاتفاقات ان الارباح التي توزعها الهيئة القائمة بالعمل لا تتجاوز مباشرة او غير مباشرة فائدة معتدلة لرأس المال . وكل ما يزيد على هذه الفائدة يستخدم لما فيه نفع البلاد على الوجه الذي توافق عليه حكومتها .

١٢- يعهد الى الدولة المنتدبة في السيطرة على علاقات فلسطين الخارجية وحق

اصدار البراءات الى انفصال الذين تعينهم الدول الاجنبية والدولة المنتدبة الحق ايضاً في ان تشمل رعايا فلسطين وهم في خارج بلادهم بحماية سفرائها وقناصلها .

١٣ — لنقل الدولة المنتدبة كل التبعة المختصة بالاماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية في فلسطين وهذا يشمل المحافظة على الحقوق الموجودة وضمان الوصول الى المواضع المقدسة والمواقع الدينية وحرية العبادة مع المحافظة على مقتضيات الامن العام والآداب وتكون الدولة المنتدبة مسؤولة امام جمعية الامم دون سواها عن كل ما يتعلق بذلك بشرط ان لا تحول نصوص هذه المادة دون اتفاق الدولة المنتدبة مع حكومة البلاد على ما تراه الدولة المنتدبة لازماً لتنفيذ نصوص هذه المادة وبشرط ان لا يفسر شيء في هذا الانتداب تفسيراً يخول الدولة المنتدبة سلطة التعرض للاملاك الاسلامية او التدخل في ادارة المشاهد الاسلامية المقدسة المحفوظة الامتيازات .

١٤ — تؤلف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدرس وتعين الحقوق والدعاوي المتعلقة بالاماكن المقدسة والحقوق والدعاوي التي تخص بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين ويعرض الاسلوب الذي يتبع في تعيين هذه اللجنة وتأليفها ووظائفها على مجلس جمعية الامم ليوافق عليها ولا تعين اللجنة ولا تقوم بوظائفها من غير موافقة المجلس .

١٥ — يجب على الدولة المنتدبة ان تحقق ان الحرية الدينية التامة وحرية القيام بجميع شعائر العبادة مكفولتان للجميع بشرط المحافظة على النظام العام والآداب فقط ويجب ان لا يكون هناك تمييز من اي نوع كان بين سكان فلسطين بسبب الجنس او الدين او اللغة وان لا يحرم شخص ما من دخول فلسطين بسبب اعتقاده الديني فقط . يجب ان لا تحرم اي طائفة كانت من حق المحافظة على مدارسها لتعليم ابنائها بلغتهم اذا

كان ذلك مطابقاً لشروط التعليم العمومية التي قد تفرضها الادارة (الحكومة) .

١٦ — تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن القيام بما تقتضيه المحافظة على النظام العام والحكم المنتظم من الاشراف على الهيئات الدينية والخيرية التي لجميع المذاهب في فلسطين فاذا روعي هذا الشرط لا يجوز ان تتخذ تدابير في فلسطين لعاقة أعمال مثل هذه الهيئات أو التعرض لها أو الاجحاف باي ممثل لها أو عضو فيها بسبب دينه وجنسيته .

١٧ — يجوز لادارة (حكومة) فلسطين أن تنظم على قاعدة اختيارية القوات

اللازمة للمحافظة على السلم والنظام وللدفاع عن البلاد ايضاً بشرط ان تكون تحت اشراف الدولة المندبة ولكن لا يجوز لادارة فلسطين استخدام هذه القوات لاغراض اخرى غير الاغراض المعينة في ما تقدم الا بموافقة الدولة المندبة وفي ماعدا هذه الاغراض لا يجوز لادارة فلسطين ان تجمع قوات عسكرية او بحرية او جوية ولا ان تبقيا عندها .

وليس في هذه المادة ما يمنع ادارة فلسطين من الاشتراك في نفقات القوات التي تكون للدولة المندبة في فلسطين . ويحق للدولة المندبة في كل وقت ان تستخدم طرق فلسطين وسككها الحديدية وموانئها لحركات القوات المسلحة ونقل الوقود والمهمات .
١٨ -- يجب على الدولة المندبة ان تكفل عدم التحيز في فلسطين على رعايا اية دولة تكون عضواً في جمعية الامم (وفي جملة ذلك الشركات المؤلفة بحسب قوانين تلك الدولة) اذا قيسوا برعايا الدولة المندبة او اية دولة اجنبية كانت في الامور المتعلقة بالضرائب او التجارة او الملاحة او تعاطي الصنائع او المهن او في معاملة السفن التجارية او الطائرات الاهلية . وكذلك يجب ان لا يكون هناك تحيز في فلسطين ضد عروض يكون منشأوها في بلاد من بلدان الدول المذكورة او تكون مرسلة اليها . وتطلق حرية مرور المتاجر (الترانسيت) عبر البلاد المشمولة بالانتداب بشروط عادلة .

ومع مراعاة ما تقدم وسائر شروط حك الانتداب هذا يجوز لادارة فلسطين ان تفرض باشارة الدولة المندبة من الضرائب والرسوم الجمركية ما تراه ضرورياً وتتخذ من التدابير ما تظنه صالحاً لزيادة ترقية الموارد الطبيعية في البلاد وصون مصالح السكان و يجوز لها ان تعقد باشارة الدولة المندبة اتفاقاً جمركياً خاصاً مع اي دولة كانت املاكها كلها داخلية في تركيا الاسيوية او شبه جزيرة العرب في سنة ١٩١٤

١٩ -- تحافظ الدولة المندبة بالنيابة عن الادارة (ادارة فلسطين) على كل اتفاق من الاتفاقات الدولية العامة المعقودة حتى الآن او التي قد تعقد بموافقة جمعية الامم في ما بعد من جهة الاتجار بالرفيق والاتجار بالسلاح والذخيرة او الاتجار بالمخدرات او تتعلق بالمساواة التجارية وحرية المرور (الترانسيت) والملاحة والطيران و بالمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية بالمتلكات الادبية والفنية والصناعية .

٢٠ — تعاون الحكومة المندوبة بالنيابة عن ادارة فلسطين في تنفيذ كل سياسه مشتركة نقرها جمعية الامم لمنع انتشار الامراض وفي جملتها امراض النباتات والحيوانات ومكافحتها بقدر ما تسمح به الاحوال الدينية والاجتماعية وسواها من الاحوال .

٢١ — تضم الدولة المندوبة وتنفيذ في السنة الاولى من تاريخ تنفيذ هذا الانداب قانوناً خاصاً بالآثار والعاديات ينطبق على الاحكام الآتية ويكون هذا القانون ضامناً لرعايا كل الدول الداخلة في جمعية الامم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والنقبات الاثرية :

(١) يجب ان يفهم من لفظة « العاديات » كل ما نتج عن عمل البشر أو وضعهم قبل سنة ١٧٠٠ .

(٢) ان التشريع لحماية العاديات يجب ان يكون اجدر بالتشجيع منه بالتهديد و يجب على كل شخص يكتشف أثراً بدون حصول على الاذن المذكور في الفقرة الخامسة ان يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه و ينال مكافأة مناسبة مع قيمة ما اكتشفه .

(٣) لا يمكن نقل ملكية شيء من العاديات الا لمصلحة السلطة ذات الشأن ما لم تعدل هذه السلطة عن استحواذه . ولا يمكن اخراج شيء من العاديات من البلاد الا باذن تلك السلطة .

(٤) كل شخص يتلف او يثلم قطعة من العاديات تعمداً او اهمالاً يجب ان يجازى جزاءاً معيناً .

(٥) ممنوع كل حفر او تنقيب لايجاد العاديات الا باذن من السلطة ذات الشأن والا غرم المخالف غرامة مالية .

(٦) توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية مؤقتاً أو دائماً في الاراضي التي تحتوي فائدة تاريخية أو أثرية .

(٧) لا تعطى الرخصة باجراء الحفريات الا لاشخاص يقدمون ادلة كافية على اختبارهم الاثري . وعلى الدولة المندوبة عند اعطاء هذه الرخص ان تستثني علماء ما .

(٨) يمكن اقتسام محصول التنقيب بين الاشخاص الذين اجرؤه والسلطة ذات

الثأف بالنسبة التي تعينها هي . فاذا تعذر الاقتسام لاسباب علمية يعطى للكشف تعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل .

٢٢ — تكون الانكليزية والعربية والعبرانية اللغات الرسمية في فلسطين فكل عبارة او كتابة بالعربية على طوابع او عملة في فلسطين تكرر بالعبرانية وكل عبارة او كتابة بالعبرانية تكرر بالعربية .

٢٣ — تعترف ادارة فلسطين بالايام المقدسة (الاعياد) عند كل طائفة من طوائف فلسطين ايام راحة مشروعة لافراد تلك الطائفة .

٢٤ — تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الامم تقريراً سنوياً يرتاح اليه المجلس عن التدابير التي اتخذت في اثناء السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب وترسل نسخ من جميع الانظمة والقوانين التي نسن او تصدر في اثناء السنة مع التقرير .

٢٥ — يحق للدولة المنتدبة السماح لمجلس جمعية الامم ان تؤجل او توقف تطبيق ما تراه من هذه الشروط غير مطابق للاحوال المحلية الحاضرة في الاملاك الواقعة بين نهر الاردن والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين في آخر الامر وان تضع من التدابير لادارة هذه الاملاك ما تراه ملائماً لتلك الاحوال بشرط ان لا يعمل عمل يكون مخالفاً لشروط المواد ١٥ و ١٦ و ١٨ .

٢٦ — توافق الدولة المنتدبة على انه اذا وقع نزاع ما بينها (الدولة المنتدبة) وبين عضو آخر في جمعية الامم يتعلق بتفسير شروط صك الانتداب او تطبيقها بمرض هذا النزاع على المحكمة الدائمة للعدل الدولي المنصوص عليها في المادة الرابعة عشرة من عهد جمعية الامم اذا لم يمكن حله بالمفاوضات .

٢٧ — يلزم موافقة مجلس جمعية الامم على كل تعديل في شروط صك الانتداب هذا .

٢٨ — يتخذ مجلس جمعية الامم من التدابير في حالة انتهاء الانتداب الخول بموجب هذا الصك للدولة المنتدبة ما يراه ضرورياً لصون استمرار الحقوق المكتسبة في المادتين ١٣ و ١٤ على الدوام بضمان الجمعية ويستخدم نفوذه لاث يكفل بضمان الجمعية احترام

حكومة فلسطين الاحترام التام للعمود المالية التي اخذتها ادارة فلسطين على عاتقها في عهد الانتداب وفي جملة ذلك حقوق الموظفين في المعاش والمكافأة .
تودع الصورة الاصلية من هذا الصك في محفوظات جمعية الامم وترسل صور
مصدق عليها بواسطة السكرتير العام لجمعية الامم الى جميع اعضاء الجمعية .



صك الانتداب

« على شرقي الاردن »

لامين سر جمعية الامم العام بخصوص تطبيق الانتداب الفلسطيني في شرق الاردن
في ٢٣ ايلول سنة ١٩٢٢

يحصل لامين سر جمعية الامم العام الشرف بعرض مذكرة الى اعضاء الجمعية
قدمتها الحكومة البريطانية في ١٦ ايلول سنة ١٩٢٢ بخصوص المادة ٢٥ من نظام
الانتداب الفلسطيني .

وقد صادق المجلس على هذه المذكرة بموجب قرار قرره اثناء انعقاده في لندن
في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٢ بمناسبة تطبيق الانتداب على فلسطين وسورية .

—»»»»—

« مذكرة العضو البريطاني »

١ — لنص المادة ٢٥ من نظام الانتداب الفلسطيني على ما يأتي :

يحق للدولة المنتدبة بسماح جمعية الامم ان تؤجل او توقف تطبيق ما تراه من هذه
الشروط غير مطابق للاحوال المحلية الحاضرة في الاملاك الواقعة بين نهر الاردن
والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين في آخر الامر وان تضع من التدابير لادارة هذه
الاملاك ما تراه ملائماً لتلك الاحوال بشرط ان لا يعمل عمل يكون مخالفاً لشروط المواد
١٥ و ١٦ و ١٨ .

٢ — تطالب حكومة جلالة الملك من المجلس وفقاً لشروط هذه المادة ان يقرر

القرار الآتي :

لاتطبق الشروط الآتية على نظام الانتداب الفلسطيني في القطر المعروف بشرق
الاردن الذي يشمل جميع المقاطعات الواقعة الى شرق خط يمتد من نقطة واقعة على
خليج العقبة على بعد ميلين الى غرب مدينة العقبة ماراً بمنصف وادي عربة وبحر الميت
ونهر الاردن حتى النقطة التي يلتقي بها هذا النهر بنهر اليرموك فمنتصف هذا النهر حتى
الحدود السورية .

وتلك الشروط الملغاة هي :

الشرح الثاني والثالث من الديباجة

المادة الثانية — في جعل البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل

انشاء الوطن القومي اليهودي كما جاء في الديباجة .

المادتان — الرابعة والسادسة

المادة السابعة — يتضمن نصوصاً بتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين

مقاماً دائماً لهم على الرعوية الفلسطينية .

المادة الحادية عشرة — الجملة الثانية من الفقرة الاولى والفقرة الثانية . والمواد

١٣ و ١٤ و ٢٢ و ٢٣

وفي تطبيق نظام الانتداب على شرق الاردن تقوم حكومته بالاعمال التي تقوم بها

حكومة فلسطين في فلسطين بمراقبة الدولة المنتدبة .

٣ — تقبل حكومة جلالة الملك التبعة التي تقع على عاتقها في تطبيق نظام الانتداب

على شرق الاردن وتكفل بان الشروط التي توضع لادارة ذلك القطر وفقاً للمادة ٢٥ من

نظام الانتداب لانكون باية وسيلة غير مطابقة لبقية شروط نظام الانتداب التي لم تشر

إلي عدم تطبيقها في هذا القرار .



عهد انقرّة

الذي وقع عليه يوم ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٢١

المادة الاولى — يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان انه بعد التوقيع على هذا الوفاق تنتهي حالة الحرب بينهما و يتبلغ ذلك في الحال الى الجيوش والسلطات الملكية والسكان .

المادة الثانية — بعد التوقيع على هذا الوفاق يطلق سراح اسرى الحرب من الطرفين ويعاد جميع الفرنسيين والأتراك المأسورين والمسجونين على نفقة الفريق الذي أسرم الى اقرب مدينة تعين لذلك . وتتناول الاستفادة من هذه المادة جميع الاسرى والسجناء من الفريقين مهما كان وقت او محل سجنهم وتوقيفهم او اسرهم .

المادة الثالثة — بعد شهرين من التوقيع على هذا العهد على الاكثر تتراجع الجيوش التركية الى الشمال والجيوش الفرنسية الى جنوب الخط المعين في المادة الثامنة .

المادة الرابعة — يجري الاخلاء والاستيلاء اللذان يتان خلال المدة المذكور في المادة الثالثة على الكيفية التي تعين بالاتفاق المشترك وذلك بواسطة لجنة مختلطة يعينها قواد الجند من الفريقين .

المادة الخامسة — يمنع الفريقان المتعاقدان العفو العام في الاصقاع التي تم الجلاء عنها وذلك بمجرد وضع اليد عليها .

المادة السادسة — تصرح حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا ان حقوق الاقليات التي جرى الاعتراف بها جهاً في الميثاق الوطني سيوافق هو عليها على نفق الاساس الذي عقد في الوفاق المتعلق بهذا الشأن بين دول التحالف خصوم وبعض احلافهم .

المادة السابعة — تدار شؤون صقع الاسكندرونة ادارة خصوصية و يتمتم السكا الاتراك في تلك الارحاء بجميع التسهيلات لترقية تهذيبهم وتكون لغة الترك صفة لغة رسمية .

المادة الثامنة — يعين الخط المذكور في المادة الثالثة و يحدد كما يلي :

يمتد خط التخموم من نقطة يجري اختيارها في خليج الاسكندرونة في جنوب ناحية بياس مباشرة ويتجه الى ميدان اكبس (تبقى محطة السكة الحديدية والناحية منضمين الى سورية) .

ومن هنا بنحني نحو الجنوب الشرقي بحيث يترك لسورية مديرية مرسوى ولتركييا بلدة قارصايه مع مدينة كليس ثم يسير مع السكة الحديدية حتى محطة جوبان بك و يسير مع خط بغداد ويبقى سطحه للاملاك التركية حتى نصيبين ومن هناك يتبع الطريق القديم بين نصيبين وجزيرة ابن عمر حتى يبلغ نهر دجلة و يبقى لتركيا نصيبين وجزيرة ابن عمر والطريق بينهما ويكون للبلادين نفس الحقوق في الانشغال من هذا الطريق .

وتكون المحطات في شعبة جوبان بك ونصيبين ملكاً لتركيا كأنها جزء من سطح السكة الحديدية .

وتتألف لجنة من مندوبي الفريقين في برهة شهر بعد التوقيع على هذا الوفاق لتحديد الخط المذكور وتبدأ هذه اللجنة بعمالها في تلك البرهة .

المادة التاسعة — يبقى قبر سليمان شاه جد السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية (وهو القبر المعروف باسم ترك مزارى) الواقع في قلعة جعفر مع كل ما يتعلق به ملكاً لتركيا تستطيع ان تضع فيه حراساً وترفع العلم التركي .

المادة العاشرة — تقبل حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا بنقل امتياز فرع السكة الحديدية البغدادية الواقع بين بوزانني ونصيبين مع سائر الشعب الممتدة في ولاية اذنة الى شركة افرانسية تعينها الحكومة مع جميع الحقوق والفوائد والمنافع المتعلقة بالامتيازات ولا سيما فيما له علاقة بالاستثمار والاتجار .

يحق لتركيا ان تنقل تقياداتها العسكرية بالسكة الحديدية من ميدان اكبس الى جوبان بك في ارض سورية و يحق لسورية ان تنقل مهماتها الحربية بالسكة الحديدية من جوبان بك الى نصيبين في الارض التركية . ولا تضاف زيادة عن اجور السكة في هذه الشعبة او النزع وتحتفظ الحكومتان بحقوقها في درس ما لقضي به الضرورة من الحياد هذه القاعدة اذا اقتضت الحال وذلك باتفاق الفريقين .

واذا لم يتسن الاتفاق يكون كل فريق حراً في عمل ما يراه .
 المادة الحادية عشرة -- تؤلف لجنة مختلطة بعد التصديق على هذا العهد لتعقد
 اتفاقاً جمرانياً بين تركيا وسورية وتحدد اللجنة شروط هذا الاتفاق ومدته ويكون
 للبلادين حق التمتع بحرية العمل ريثما يعقد هذا الوفاق .
 المادة الثانية عشرة -- تقسم مياه نهر قويق بين مدينة حلب والصقع الواقع الى
 الشمال الباقي لتركيا قسمة عادلة يرتضي بها الفريقان .
 ويتأتى لمدينة حلب ان تأخذ على حسابها من نهر الفرات شطراً من المياه من الارض
 التركية لتستعملها في ارجائها .
 المادة الثالثة عشرة -- يظل كما في السابق سكان القرى او نصف الرحالة من
 اهلها ممتعين بحقوقهم في المراعي اذا كان لهم املاك في احدى الجهتين من الخط المعين
 في المادة الاولى و يتيسر لهم لضرورة استثمار اراضيهم ان يعملوا احراراً ولا يؤدون رسماً
 جمرانياً ولا ثمن المراعي ولا اي رسم كان و يتنقلون من جهة الى أخرى من هذا الخط
 مع مواشيهم وما يولد لها وادواتهم وآلاتهم وبذارهم وحاصلاتهم الزراعية لانهم مكلفون
 بان يؤدوا الحقوق والرسوم عليها في البلاد التي يسكنون فيها .

--- موقعة ---

انتهى الجزء الثالث وبه انتهى التاريخ السياسي في القطر الشامي وبإيه الجزء
 الرابع وبه يتبدى تاريخه المدني



فهرس الجزء الثالث

« من خطط الشام »

| صفحة | صفحة |
|------|--|
| ٣٥ | ٣ (العهد العثماني من سنة ١٢٠٠ الى |
| ٣٦ | ١٢٤٧) — الجند اداة الظلم والتدمير |
| ٣٩ | ٥ حوادث الجزائر وفتن الانكشارية |
| | وغيرها |
| ٤٠ | ٧ عهد سليم الثالث وفتن وكوائن |
| ٤٣ | ٨ مظالم الجزائر واختلال الادارة |
| ٤٥ | ١٢ محاولة نابوليون فتح الشام واستيلاؤه |
| | على غزوة و يافا |
| | ١٣ وقائع نابوليون على عكا وفي مرج |
| | ابن عامر |
| | ١٦ خطيئات نابوليون في الشام |
| | ١٨ حال الشام بعد رحيل نابوليون عنه |
| | ٢٠ مساويء احكام الجزائر |
| | ٢١ ثفنن الجزائر في اهراق الدماء وحكم |
| | المؤرخين عليه |
| | ٢٥ المتغلبة على الاحكام بعد الجزائر |
| | ٢٨ قتل سليم الثالث ومصطفى الرابع |
| | وتولي محمود الثاني |
| | ٢٩ فتنة كنج يوسف باشا |
| | ٣٠ سليمان باشا وامراء راشيا وكوائن حلب |
| ٣٥ | وقعة المزة واستسلام الدولة لوالي عكا |
| ٣٦ | سياسة الامير بشير مع ارباب الكبة |
| ٣٩ | في لبنان و نقاتل الولاة وارتباك الدولة |
| | محاولة الدولة قتل النصارى وفتنة |
| | بلاد نابلس |
| ٤٠ | مقتل سليم باشا والي دمشق |
| ٤٣ | الحكم على موقف البلاد في نصف قرن |
| ٤٥ | (دور الحكومة المصرية من سنة |
| | ١٢٤٧ الى سنة ١٢٥٦) — حالة |
| | الدولة العثمانية عند إذلال جيش |
| | محمد علي الكبير لها |
| ٤٧ | لما ذا تراجعت الدولة العثمانية |
| ٥٠ | حملة محمد علي على الشام وهزيمة |
| | الأتراك |
| ٥٢ | نقد يره و رخين وشاعر لغاية محمد علي |
| ٥٥ | سقوط الاناضول وتضاؤل السلطان |
| | العثماني امام الجيش المصري |
| ٥٧ | اعمال ابراهيم باشا في اصلاح الشام |
| ٥٨ | فتوق وفتن وحصار الفلستينيين |
| | لا ابراهيم |

| صفحة | صفحة |
|-----------------------------------|--------------------------------------|
| ٥٩ | خطأ اداري لبراهيم باشا ووقائعه |
| ٦٣ | في اللجاة ووادي التيم مع الدروز |
| ٦٤ | سياسة الاتراك والدول مع محمد علي |
| ٦٦ | انفراط عقد الحكم المصري |
| ٦٨ | فضل حكم محمد علي |
| ٧٠ | رأي الغرباء في حكومة محمد علي |
| ٧٥ | حكمنا على انفسنا وعلى غيرنا |
| ١٢٧٧ | (العهد العثماني من سنة ١٢٥٦ الى |
| ١٠١ | ١٢٧٧) من خروج المصريين |
| ١٠٢ | الى مذايح لبنان ودمشق |
| ١٠٤ | فتن اهلية في الجبال والمدن |
| ١٠٦ | حرب القريم منشأوها في الشام |
| ١٠٧ | و كوائن درزية ونصيرية |
| ١٠٨ | مبدأ مذابح النصارى المعروفة |
| ١٠٩ | بحادثة سنة الستين وحادثه بيت |
| ١١٠ | مري ودير القمر |
| ١١٢ | مذابح حاصبيا وراشيا ورأي |
| ١١٤ | انكليز بين في اصل المذابح |
| ١١٦ | مذابح دمشق ورأي الغريب |
| ١١٧ | والوطني في تعليلها |
| ١١٨ | ضحايا مذابح دمشق وتخريبها |
| ١١٩ | عمل الدولة والدول عقبى الحوادث |
| ١٢٠ | عمل العقلاء في دمشق وبيروت |
| ١٢١ | ورأي مؤرخ منصف في المسلمين |
| ٩٣ | من المسؤول عن هذه الفتنه الشعواء |
| ٩٤ | سوء اثر حوادث الشام في الدولة |
| ٩٧ | ومنازعة الدول لها في سلطانها |
| ١٣٠٠ | (العهد العثماني من سنة ١٢٧٧ الى |
| الستين | ١٣٠٠) — البلاد بعد فتنه سنة |
| ٩٨ | السلطان عبد المجيد وخليفه عبد العزيز |
| ١٠١ | خلع السلطان عبد العزيز وتولية |
| مراد الخامس | |
| ١٠٢ | عهد السلطان عبد الحميد الثاني |
| ١٠٤ | انسيال الدروز على جبل حوران |
| ووقائعهم | |
| ١٠٦ | المصلح مدحت باشا وطبقته من العمال |
| ١٠٧ | (العهد العثماني من سنة ١٣٠٠ الى |
| سقوط عبد الحميد الثاني) — الحالة | |
| في مبدأ القرن الرابع عشر واصلاح | |
| بلاد النصيرية والسبب في خرابها | |
| ١٠٩ | قن درزية وقن ارمنية |
| ١١٢ | الحملات على جبل الدروز وعلى |
| الكرك | |
| ١١٤ | رأي في دلال الدروز والنصيرية |
| على الدولة | |
| ١١٧ | (العهد العثماني من سنة ١٣٢٦ — |
| ١٣٣٦) — الدستور العثماني وثورته | |

| صفحة | صفحة |
|---------------------------------------|-------------------------------------|
| الدولة العثمانية | ١١٩ إعادة الدستور وحال الدولة بعده |
| ١٦٥ (العهد الحديث من سنة ١٣٣٦ — | ١٢١ عبد الحميد وسياسته واخلاقه |
| ١٣٤٣) — تجزئة الشام بين فرنسا | ١٢٤ رأي مؤرخ تركي في عبد الحميد |
| وانكثرا | وذكر حسناته |
| ١٦٦ فتنة الارمن واعتداؤهم على العرب | ١٢٧ الاحداث في ايام محمد رشاد وحرب |
| ١٦٩ اعمال الحكومة العربية وحكومة | طرابلس والبلقان وحزب الاصلاح |
| الصهيونيين | ١٣٠ الصهيونية ومنشأوها |
| ١٧٢ المؤتمر السوري ومبايعته لفیصل | ١٣٣ الحرب العامة والسياسة الالمانية |
| ملكاً على الشام | والاخلاق التركية |
| ١٧٤ العصابات بين الساحل والداخل | ١٣٥ قسط الشام من الحرب وعمل |
| ١٧٦ استفتاء البلاد في الدولة التي | جمال باشا |
| تريد انتدابها | ١٣٧ اهلاك احرار الشام والسياسة |
| ١٧٨ افكار الامير فيصل والعيش بالسياسة | الاتحادية مع العرب |
| ١٧٩ حملة فرنسا على المدن الاربع | ١٤٢ خلع شريف مكة طاعة العثمانيين |
| ١٨٤ تعريف الانتداب وسياسة الاتراك | وتأثيره في الاتراك |
| فيما يتعلق بالشام . | ١٤٤ امانى الاتراك وخبيتهم وتخريبهم |
| ١٨٦ تأثير الحورانيين بعوامل الفيصلين | ١٤٧ الوقائع المهمة في فلسطين وسقوط |
| ومقتل وزيرين وقتل اليهود في | القدس وما اليها |
| فلسطين | ١٤٩ عمل الجيش العربي |
| ١٨٨ استقلال لبنان وحكومة العلويين | ١٥٥ سقوط حوران ودمشق بيد |
| ومجلس فلسطين ودولة شرقي الاردن | الجيش البريطانية |
| ودولة جبل الدروز وخراب البلاد | ١٥٧ سقوط بيروت والساحل والمهنة |
| ونقسمها | ١٦٠ سبب سقوط الشام بايدي الحلفاء |
| ١٩٠ متاعب لبريطانيا وفرنسا واعتداءات | ١٦١ رأي مؤرخ تركي في انقراض |

| صفحة | صفحة |
|---------------------------------------|-------------------------------------|
| ٢٣٥ التقسيم في عصر الصليبيين والماليك | ١٩٢ توحيد حكومات سورية وعدم |
| ٢٣٦ على عهد العثمانيين | رضى الاهلين |
| ٢٣٧ تقاسيم فلسطين | ١٩٣ صك الانتداب وموافقة الدول |
| ٢٣٧ تقاسيم الشرق العربي اي شرقي | الكبرى عليه واشكال جديدة |
| الاردن | من الادارة |
| ٢٣٨ دولة سورية | ١٩٦ غزوة النجديين عبر الأردن |
| ٢٣٩ دولة جبل الدروز | واستيلاؤهم على مكة |
| ٢٣٩ دولة لبنان الكبير | ٢٠٠ صاحب الوعد للصهيونيين ومطالب |
| ٢٤٠ دولة العلويين | الفلسطينيين والسوريين وكوائن |
| ٢٤١ (العقود والعهود الاخيرة) — | ٢٠٣ تاريخ الصهيونية وعملها الاخير |
| الرسالة الاولى في اتفاقية سايبس | ٢١١ الاوضاع الصهيونية |
| بيكو | ٢١٣ الصهيونية في الحرب |
| ٢٤٣ الرسالة الثانية | ٢٢٢ الصهيونية بعد الحرب |
| ٢٤٤ الرسالة الثالثة | ٢٢٥ ثورتا القدس |
| ٢٤٥ نسخة مختصرة عن دستور فلسطين | ٢٢٥ ثورة يافا |
| الرسمي | ٢٢٦ المهاجرة |
| ٢٤٨ المعاهدة البريطانية الفرنسية | ٢٢٨ ادارة المعارف |
| ٢٥٣ صك الانتداب الافرنسي على | ٢٢٩ المصارف والصحف |
| سورية ولبنان | ٢٢٩ مشروع روتنبرغ |
| ٢٥٩ صك الانتداب على فلسطين | ٢٣٠ نظرة في نجاح الصهيونية |
| ٢٦٧ صك الانتداب على شرقي الاردن | ٢٣١ الخاتمة |
| ٢٦٩ عهد انقر | ٢٣٣ (التقاسيم الادارية الحديثة) — |
| | تقاسيم القدماء قبل الاسلام |
| | ٢٣٤ اجناد الشام وتقسيم العرب |